الشهيد سيد قطب (رحمه الله)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قام بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعة

الجزء الرابع (4)

دار القبس للنشر الإلكتروني

ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)

الهاتف: 78 - 73 - 20 - 0662

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة {286}

الجزء الرابع (4) الطبعة الإلكترونية الثانية (2) ماي 2022

سورة يونس

مكية و آياتها ١٠٩

نعود مرة أخرى إلى الحياة مع القرآن المكي ، بجوه الخاص ، وظلاله وإيقاعاته وإيحاءاته . والقرآن المكي ، ولو أنه قرآن من القرآن ، يشترك مع سائره في خصائصه القرآنية العامة ; وفي تفرده من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب ، في الموضوع وفي الأداء سواء . . إلا أن له مع ذلك جوه الخاص ، ومذاقه المعين ، الذي يعينه موضوعه الأساسي [وهو في اختصار:حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، وحقيقة العلاقات بينهما ؛ وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه ، ويتبعوا أمره وشرعه ؛ وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء ؛ ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته] كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع . وهو أسلوب موح ، عميق الإيقاع ، بالغ التأثير ; حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير ، والموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة . . والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة ، التي تحدد شخصيتها وملامحها . . ونحن لا نملك – في هذا التقديم – إلا تلخيص هذه المحتويات واحداً واحداً في إجمال ، حتى يجيء بيانها المفصل في أثناء استعراض النصوص القرآنية: إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول اللّه ﷺ ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ؛ فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه ، وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قال الذين لا يرجون لقاءنا:ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل:ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل:لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح المجرمون). (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ؟ قل: فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وتواجه طلبهم خارقة مادية – غير القرآن – واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعونه . فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن ؛ وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تتحداهم به . وأن الآيات في يد الله ومشيئته ؛ وأن موعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره اللّه , والنبي لا يملك شيئا فهو عبد من عباد الله . – وفي هذا جانب من التعريف لهم بربهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون) (ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون . ويقولون: متى هذا الوعد ، إن كنتم صادقين ؟ قل:لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ؟ ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل: إنما الغيب لله ، فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية – الأمر الذي يحدثهم رسول الله ﷺ فيه ، فيكذبون بالوحي أو يتشككون فيه ؛ ويطلبون قرآناً غيره ، أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته – بينما هم سادرون في عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء , على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله ؛ كما يزعمون لله الولد سبحانه بلا علم ولا بينة . . فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم ، وفي وجودهم هم أنفسهم ، وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون ، وما يتقلب بهم هم من أحوال وهتاف فطرتهم وأنفسهم بربها الحق عند مواجهة الخطر الذي لا دافع له إلا الله . . وهذه هي القضية الكبرى التي تستغرق قطاعات شتى من السورة ؛ والتي تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى (إن ربكم اللّه الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ؟ إليه مرجعكم جميعاً ، وعد اللّه حقاً , إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق , يفصل الآيات لقوم يعلمون)

(إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون:هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل:أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) (هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين:لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) (قل: من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون:الله . فقل:أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ! فأنى تصرفون ؟) (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل:الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ؟ قل:هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل:الله يهدي للحق . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى ؟ فما لكم كيف تحكمون ؟ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون) (ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون . هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ( )قالوا:اتخذ الله ولداً – سبحانه – هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل:إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) (ألا إن لله ما في السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت وإليه ترجعون) وتصور لهم حضور الله – سبحانه – وشهوده لكل ما يهم به البشر ، وكل ما يزاولون من نية وعمل ؛ مما يملأ الحس البشرى بالرهبة والروعة ، كما يملؤه بالحذر واليقظة . . وذلك في مثل قوله تعالى في هذه السورة (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا في كتاب مبين) كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة ، ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة ؛ ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتة (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (قل:أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ! ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون) وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة ، وتكذيبهم بلقاء الله ، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة ، ومن الخسارة في الصفقة الدون التي يرضونها ، وتعريفهم بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي للابتلاء ، وفي الآخرة الجزاء . . ثم تواجههم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ؛ وخاصة ما يتصل منها بتخلي الشركاء عن عبادهم ، وتبرئهم منهم إلى الله ، وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها:سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية ؛ وما يترتب على تكذيبهم بالبعث (قل:أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ؟ قل:آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) والسورة تحتشد – في إيلاغ تلك الحقائق التي تحتويها وتثبيتها وتعميقها واستجاشة القلوب والعقول لها – بشتى المؤثرات الموحية ، التي يحفل بها الأداء القرآني الفريد في الموضوع وفي التعبير عنه سواء . وهي مؤثرات – على عمقها وحيويتها وحركتها – تناسب شخصية السورة وطبيعتها التي تحدثنا في الفقرة الأولى عنها . . وهذه نماذج منها ، نلم بها هنا إجمالا ، حتى نستعرضها في السياق تفصيلا (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ؟) (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) (قل:من يرزقكم من السماء والأرض ؛ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل:أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟) (قل:يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين

تعبدون من دون الله . ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله , يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم . . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين) وبهذه المفاصلة تختم السورة ويختم هذا الحشد من المؤثرات التى سقنا نماذج منها لا تستقصى ما فى السورة من هذا المنهج القرآنى الفريد فى مخاطبة القلوب والعقول .

هذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء . وقد حمى الجدل من المشركين حول صدق الوحى ، وحول هذا القرآن ، وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم ، ومن تنديد بجاهليتهم ، ومن كشف لما فى كيانها من تناقض واضح . تناقض بين ما يعتقدونه من أن الله – سبحانه – هو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، المدبر المتصرف فى كل شىء ، القادر على كل شىء – وهى الجذور الباقية من حنيفية إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وبين ما يدعونه لله سبحانه من الولد ، حيث كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ، ويتخذونهم شفعاء عند الله ، ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار ! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقيدى من آثار فى حياتهم ؛ وفى أوله ما كان يزاوله الكهان والرؤساء فيهم من تحريم وتحليل فى الثمار والأنعام ؛ وجعل نصيب منها لله ونصيب لآلهتهم المدعاة ! نزلت السورة فى هذا الجو . وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة ، تواجه واقعا متصلا ; حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة . وهذا ما ينفى الرواية التى أخذ بها المشرفون على المصحف الأميرى من كون الآيات ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ مدنية . . فهذه الآيات متشابكة مع السياق ، وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلا ! والترابط فى سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها . فيجيء فى المطلع قوله تعالى (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق ، عند ربهم قال الكافرون ! إن هذا لساحر مبين) ويجيء فى الختام (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمى) فالحديث عن قضية الوحى هو المطلع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام . وقد سميت السورة سورة يونس . بينما قصة يونس فيها لا تتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين) . ولكن قصة يونس – مع هذا – هى المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ؛ فيثوبون إلى ربهم وفى الوقت سعة ؛ وهم وحدهم فى تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب ، فكشف عنهم العذاب الذى أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم ، كما هى سنة الله فى المكذبين المصرين .

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ {١} أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ {٢} إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ {٣} إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّن حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ {٤} هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {٥} إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ {٦} إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ {٧} أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ {٨} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {٩} دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {١٠} وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {١١} وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {١٢} وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ {١٣} ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ {١٤} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {١٥} قُل لَّوْ شَاءِ اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ {١٦} فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ{١٧} وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{١٨} وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{١٩} وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{٢٠} وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ{٢١} هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{٢٢} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٣} إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{٢٤} وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٢٥}

السورة كلها – كما أسلفنا في تقديمها – لحمة واحدة ، يصعب تقسيمها إلى مقاطع ... فهي تتدفق فى هيئة موجات متوالية ؛ تنصب بمؤثراتها الموحية على القلب البشرى ، وتخاطبه بإيقاعات منوعة . . من التعجيب من أمر المشركين فى استقبالهم للوحى والقرآن . إلى عرض المشاهد الكونية التى تتجلى فيها ألوهية الله سبحانه . . إلى عرض مشاهد القيامة . إلى عرض أحوال البشر فى مواجهة الأحداث التى تمر بهم . إلى عرض مصارع الغابرين . . إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه من الموضوعات والمؤثرات التى تحتويها السورة . وإذا جاز تقسيم السورة إلى مقاطع مميزة . فإن أكثر من نصفها الأول يعد مقطعا واحدا يتدفق بهذه الموجات المتتابعة . ثم تجىء قصة نوح – ومن بعده فى اختصار – وقصة موسى والإشارة إلى قصة يونس ؛ فتؤلف مقطعا آخر . ثم تجىء الإيقاعات الأخيرة فى السورة فتؤلف المقطع الأخير . ونظرا لطبيعة السورة هذه فسنحاول عرضها موجة موجة – أو مجموعة من الموجات المتناسقة – كما هى طبيعتها المتميزة . . أما هذا الدرس الأول منها فيبدأ بحروف ثلاثة (ألف . لام . را) كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف بحروف ذكرنا الرأى الذى اخترناه فى تفسيرها هناك . يبدأ بهذه الأحرف مبتدأ خبره: (تلك آيات الكتاب الحكيم) ثم يأخذ السياق فى عرض عدة أمور تبدو فيها الحكمة التى أشير إليها فى وصف الكتاب . من الوحى إلى الرسول ﷺ لينذر الناس ويبشر المؤمنين ، والرد على المعترضين أن يوحى الله إلى بشر . . إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما . . إلى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وتقدير منازل القمر ليعلموا عدد السنين والحساب . . إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير . ويتطرق من عرض هذه الآيات الكونية إلى الغافلين عنها ، الذين لا يرتقبون لقاء الله مدبر كل شيء ، وما ينتظر هؤلاء الغافلين من سوء المصير ؛ وما ينتظر المؤمنين فى الجانب الآخر من نعيم مقيم . ويسجل حكمة تأجيل المصير إلى يومه الموعود ، وعدم تعجيل الشر للناس كما يستعجلون هم الخير فى هذه الدنيا ولو عجل لهم بالشر كما يستعجلون بالخير لانتهى الأجل وأخذوا بذنوبهم دون إمهال . ومن ثم وصف لطبيعة البشر فى تلقيهم للشر والخير . وضراعتهم إلى الله عند مس الأذى ، ونسيانهم له عند كشف الضر . ولجاجهم فيما كانوا من قبل فيه ، دون اعتبار بالقرون الخالية التى سارت فى الطريق ذاته ، ولقيت مصارعها فى ذلك الطريق ! ومع أن مصارع الغابرين كانت واضحة للعرب الذين يدعوهم الرسول ﷺ فإن المكذبين كانوا يطلبون إلى الرسول أن يأتى لهم بقرآن غير هذا القرآن أو يبدل بعضه . غير متدبرين ولا مدركين أن القرآن من عند الله ، وأن له حكمة ثابتة فهو لا يقبل التبديل . وهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم دون استناد إلى شيء ، ويتركون عبادة الله وحده وهى تستند إلى وحى من الله . ثم يطلبون خارقة من الخوارق غير ناظرين إلى آية الله الواضحة فى القرآن ، غافلين عن آياته المعجزة فى تضاعيف الكون . ثم عودة إلى طبيعة البشر فى تلقى الرحمة والضر . وعرض نموذج حى من هذه الطبيعة ، فى مشهد من المشاهد النابضة المتحركة المؤثرة . فى ركوب البحر عندما تسير الفلك فى أول الأمر رخاء ، ثم تعصف بها الريح ويأتيها الموج من كل مكان . ومشهد آخر يمثل غرور هذه الحياة الدنيا ، وبريقها ولألاءها الذى ينطفئ فى لحظة ، وأهلها مأخوذون بزخرفها غافلون عن المصير الخاطف المرهوب (ألر تلك آيات الكتاب الحكيم) من هذه الحروف وأمثالها ، تتألف آيات الكتاب الحكيم ، الذى ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول ﷺ وهذه الحروف فى متناول أيديهم ، ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها آية واحدة من مثل آيات الكتاب – كما يتحداهم فى هذه السورة – ولا يقودهم هذا إلى التدبر ، وإدراك أن الوحى هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول ﷺ وأنه لولا هذا الوحى لوقف وقفتهم عاجزا عن تأليف آية واحدة ، من هذه الحروف

المبذولة للجميع (تلك آيات الكتاب الحكيم) الحكيم الذى يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض فى هذه السورة جوانب منها صادقة باقية ، نجد مصداقها فى كل جيل (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون . إن هذا لساحر مبين) سؤال استنكارى . يستنكر هذا العجب الذى تلقى به الناس حقيقة الوحى منذ كانت الرسل .لقد كان السؤال الدائم الذى قوبل به كل رسول:أبعث الله بشرا رسولا ؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة "الإنسان" . عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة "الإنسان" الذى يتمثل فيهم . فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله ، وأن يتصل الله به – عن طريق الوحي – فيكلفه هداية الناس . إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكا أو خلقا آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله . غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ؛ ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص . هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول ﷺ وشبهة أمثالهم في القرون الأولى . فأما فى هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتا عن تلك ! إنهم يسألون: كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق . والذى ليس كمثله شيء ؟ وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علما بحقيقة الله سبحانه وطبيعة ذاته الإلهية ، كما أحاط علما بكل خصائص الإنسان التى أودعها الله إياه . وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله ، ويعرف حدود هذا العقل . بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد ، ولم يقف العلم بعد حتى يقال:إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك . فضلا على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائما آفاق من المجهول بعد آفاق ! ففى الإنسان اذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله . والله أعلم حيث يجعل رسالته فى الإنسان ذى الطاقة التى تحمل هذه الرسالة . وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة . ولكن الله الذى نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوى عليه كل خلية ، وكل بنية ، وكل مخلوق ؛ وقادر على أن يطوع الإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها . ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب . ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه . فللعلم ميدان . هو الميدان الذى يملك أدواته . وللعلم آفاق هى الآفاق التى يملك أدوات كشفها ومراقبتها . والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقا عن الروح . فهى ليست داخلة في نطاق عمله لأنها ليست شيئا قابلا للاختبار المادى الذى يملك العلم وسائله . لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل فى ميدان الروح . أما ما يسمى "بالعلوم الروحانية " فهى محاولات وراءها الريب والشكوك فى حقيقتها وفى أهدافها كذلك ! ولا سبيل إلى معرفة شيء يقينى فى هذا الميدان إلا ما جاءنا من مصدر يقينى كالقرآن والحديث وفى الحدود التى جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس . إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية . والعقل هنا فى غير ميدانه ، وليس معه أدواته . لأنه لم يزود بأدوات العمل فى هذا الميدان (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟) فهذه خلاصة الوحى:إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة . وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهي الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال . والإنذار للناس جميعا . فكل الناس في حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير:والبشرى للذين آمنوا وحدهم . وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . . تلك المعانى التى توحى بها كلمة [صدق] مضافة إلى القدم . فى جو الإنذار والتخويف . . "قدم صدق . " .قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد ، فى جو الإنذار وفى ظلال الخوف ، وفى ساعات الحرج . . (قدم صدق عند ربهم). . فى الحضرة التى تطمئن فيها النفوس المؤمنة . حينما تتزلزل القلوب والأقدام . وحكمة الله واضحة فى الإيحاء إلى رجل منهم . رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج . أما حكمته فى إرسال الرسل فهى أوضح , والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز . ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر ، وأحاطت به الشبهات ، وجذبته التيارات والشهوات ، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التى تصيب البدن والأعصاب والمزاج , فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض . هو فى حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه , وينزل على إرشاده ، ويرجع إلى الصواب على هداه . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله . ومع وضوح قضية الوحى على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمرا عجيبا (قال الكافرون: إن هذا لساحر مبين) ساحر لأن ما ينطق به معجز . وأولى لهم – لو كانوا يتدبرون – أن يقولوا:نبى يوحى إليه لأن ما ينطق به معجز . فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة ، ومن التوجيه والتشريع ما يقوم به مجتمع راق ، وما يرتكز عليه نظام متفرد . . ولقد كان يختلط عندهم الوحى بالسحر ، لاختلاط الدين بالسحر فى الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين

الله ؛ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر , ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ؟ إليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) وهذه هى القضية الأساسية الكبرى فى العقيدة . قضية الربوبية . . فقضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدى من المشركين . فهم كانوا يعتقدون بوجود الله – لأن الفطرة البشرية لا تستطيع التخلى عن الاعتقاد بوجود إله لهذا الكون إلا فى حالات نادرة منحرفة شديدة الانحراف – ولكنهم كانوا يشركون مع الله أربابا يتوجهون إليهم بالعبادة . إما ليقربوهم إلى الله زلفى ويكونوا لهم شفعاء عنده كما كانوا يزاولون خصائص الربوبية فيشرعون لأنفسهم ما لم يأذن به الله . والقرآن الكريم لا يدخل فى جدل ذهنى جاف بصدد قضية الألوهية والربوبية – كالذى جد فيما بعد بتأثير المنطق اليونانى والفلسفة الإغريقية – إنما يلمس المنطق الفطرى الواضح البسيط المباشر ، إن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وما فيهن . وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل . وقدر اختلاف الليل والنهار . . هذه الظواهر البارزة التى تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها تدبر الواعى المدرك . . إن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئاً من خلقه . . أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التى يعلكها الذهن باردة جافة ، ولا تدفئ القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟ إن هذا الكون الهائل . سماواته وأرضه . شمسه وقمره . ليله ونهاره . وما فى السماوات والأرض من خلق ، ومن أمم ومن سنن ، ومن نبات ومن طير ومن حيوان ، كلها تجرى على تلك السنن . . إن هذا الليل الطامى السادل الشامل ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح . وهذا الفجر المتفتح فى سدف الليل كابتسامة الوليد الراضى . وهذه الحركة يتنفس بها الصبح فيدب النشاط فى الحياة والأحياء . وهذه الظلال السارية يحسبها الرائى ساكنة وهى تدب فى لطف . وهذا الطير الرائح الغادى القافز الواثب الذى لا يستقر على حال . وهذا النبت النامى المتطلع أبدا إلى النمو والحياة . وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام التى تدفع والقبور التى تبلغ ، والحياة ماضية فى طريقها كما شاء الله . . إن هذا الحشد من الصور والظلال ، والأنماط والأشكال ، والحركات والأحوال ، والرواح والذهاب ، والبلى والتجدد ، والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل التى لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . . إن هذا كله ليستجيش كل خالجة فى كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتأثر ، حين يستيقظ القلب ، ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة فى ظواهر الكون وحناياه . . والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب والعقل لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات (إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام) إن ربكم الذى يستحق الربوبية والعبادة هو هذا الخالق ، الذى خلق السماوات والأرض . خلقها فى تقدير وحكمه وتدبير (فى ستة أيام) حسب ما اقتضت حكمته أن يتم تركيبها وتنسيقها وتهيئتها لما أراده الله . ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة ، فهى لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها . إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية . . وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر . فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه . والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام ، الذى يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه (ثم استوى على العرش) والاستواء على العرش . كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة ، باللغة التى يفهمها البشر ويتمثلون بها المعانى ، على طريقة القرآن فى التصوير و (ثم) هنا ليست للتراخى الزمانى ، إنما هى للبعد المعنوى . فالزمان فى هذا المقام لا ظل له . وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله – سبحانه – ثم كانت . فهو – سبحانه – منزه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان . لذلك نجزم بأن (ثم) هنا للبعد المعنوى ، ونحن آمنون من أننا لم نتجاوز المنطقة المأمونة التى يحق فيها للعقل البشرى أن يحكم ويجزم . لأننا نستند إلى قاعدة كلية فى تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات ، وعن مقتضيات الزمان والمكان (يدبر الأمر) ويقدر أوائله وأواخره ، وينسق أحواله ومقتضياته ، ويرتب مقدماته ونتائجه ، ويختار الناموس الذى يحكم خطواته وأطواره ومصائره (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) فالأمر كله له ، والحكم كله إليه . وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى . وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ، وفقاً لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح ، لا بمجرد التوسل بالشفعاء . . وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التى يعبدون تماثيلها شفاعة لا ترد عند الله ! ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . . (ذلكم الله ربكم). . الخليق بالربوبية(فاعبدوه) فهو الذى يستحق الدينونة له دون سواه (أفلا تذكرون ؟)

فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة (إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا) إليه وحده لا للشركاء والشفعاء . وقد وعد فلا خلف ولا تخلف ، فالبعث هو تتمة الخلق (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فالعدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة ...\وبدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة . إنها قمة الكمال البشرى الذى يمكن أن تصل إليه البشرية . والبشرية لا تصل إلى شيء من هذا فى هذه الأرض وفي هذه الحياة الدنيا المشوبة بالقلق والكدر ، والتي لا تخلو فيها لذة من غصة ، أو من عقابيل تعقبها – إلا لذائذ الروح الخالصة وهذه قلما تخلص لبشر ، فأما الذين كفروا فقد خالفوا عن الناموس ، فلم يسيروا في طريق الكمال البشرى ، بل جانبوه . وهذا يقتضي – حسب السنة التي لا تتخلف – ألا يصلوا إلى مرتبة الكمال ، لأنهم جانبوا قانون الكمال ؛ وأن يلقوا عاقبة انحرافهم كما يلقى المريض عاقبة انحرافه عن قوانين الصحة الجسدية . هذا يلقاه مرضا وضعفا ، وأولئك يلقونه ترديا وانتكاسا , وغصصا بلا لذائذ – فى مقابل اللذائذ بلا غصص (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) وبعد هذه اللفتة من آيات الله فى خلق السماوات والأرض إلى عبادة الله وحده ، الذى إليه المرجع وعنده الجزاء . . يعود السياق إلى الآيات الكونية التالية فى وجودها وضخامتها للسماوات والأرض (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون) فهذان مشهدان بارزان من مشاهد الكون ، نيساهما لطول الألفة ، ونفقد وقعهما في القلب بطول التكرار . وإلا فكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرة أول شروق شمس وأول غروب ، وأول مطلع قمر وأول مغيب ؟ هذان مشهدان مألوفان مكروران يردنا القرآن إليهما ، ليثير في مشاعرنا وهلة الجدة , وليحيي فى قلوبنا إحساس التطلع الحي ، والتأمل الذى لم يبلده التكرار ، والتيقظ لما في خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم (هو الذى جعل الشمس ضياء) فيها اشتعال (والقمر نورا) فيه إنارة (وقدره منازل) ينزل فى كل ليلة منزلا يكون فيه على هيئة خاصة ، كما هو مشهود في القمر ، بدون حاجة إلى علوم فلكية لا يدركها إلا المتخصصون (لتعلموا عدد السنين والحساب) وما تزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس . هل هذا كله عبث ؟ هل هذا كله باطل ؟ هل هذا كله مصادفة ؟ كلا ما يكون كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق ، وكل هذه الدقة التي لا تتخلف معها حركة . ما يكون هذا كله عبثا ولا باطلا ولا مصادفة عابرة (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) الحق قوامه . والحق أداته . والحق غايته . والحق ثابت راجح راسخ . وهذه الدلائل التي تشهد به واضحة قائمة دائمة (يفصل الآيات لقوم يعلمون) فالمشاهد التي تعرض هنا فى حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر . ومن خلق السماوات والأرض ، ومن جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل تنشأ ظاهرة الليل والنهار ، وهي ظاهرة موحية لمن يفتح قلبه لإيحاء المشاهد والظواهر فى هذا الكون العجيب (إن فى اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله فى السماوات والأرض . . لآيات لقوم يتقون) واختلاف الليل والنهار تعاقبهما . ويشمل كذلك اختلافهما طولا وقصرا . وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما في الحس . إلا فى اللحظات التى تستيقظ فيها النفس ، وينتفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب ، فيقف فى الشروق وفى الغروب وقفة الإنسان الجديد فى هذا الكون ، يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب . وهي هي اللحظات التى يحياها الإنسان حياة كاملة حقيقية ، وينفض فيها التيبس الذى خلفته الألفة فى أجهزة الاستقبال والاستجابة (وما خلق الله فى السماوات والأرض) ولو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب (ما خلق الله في السماوات والأرض) ويستعرض هذا الحشد الذى لا يحصى من الأنواع والأجناس ، والهيئات والأحوال ، والأوضاع والأشكال . لو وقف لحظة واحدة لامتلأ وطابه وفاض بما يغنيه حياته كلها ، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش . . ودع خلق السماوات والأرض وإنشاءهما وتكوينهما على هذا النحو العجيب ، فذلك ما يوجه إليه القلب بالإشارة السريعة ، ثم يتركه ليتملاه . . إن فى ذلك كله (لآيات لقوم يتقون) تستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص . وجدان التقوى . الذى يدع هذه القلوب مستجاشة حساسة , سريعة التأثر والاستجابة لمجالي القدرة ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار والأسماع . هذا هو منهج القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية ، المبثوثة حول الإنسان فى هذا الكون ؛ والتى يعلم الله سبحانه أن بينها وبين فطرة الكائن البشرى لغة مفهومة ، وإيحاءات مسموعة ! والذين يمارون فى هذه الحقيقة لا يقدمون فى مكانها دليلا معقولا . ولا يزيدون على أن يقولوا:إن الكون وجد هكذا بقوانينه ؛ وأن وجوده لا يحتاج إلى تعليل ؛ ووجوده يتضمن قوانينه ! فإن كان هذا كلاما مفهوما – أو معقولا – فذاك ! ولقد كان هذا الكلام يقال للهروب من الله فى أوربا ؛ لأن الهروب من الكنيسة اقتضاهم هنالك الهروب من الله ! ثم أصبح يقال هنا وهناك ، لأنه الوسيلة إلى التخلص من مقتضى الاعتراف بألوهية الله . ذلك أن مشركي الجاهليات القديمة كان معظمهم يعترف بوجود الله . ثم يمارى فى ربوبيته ، على نحو ما رأينا فى الجاهلية العربية التى

واجهها هذا القرآن أول مرة . فلقد كان البرهان القرآني يحاصرهم بمنطقهم هم وعقيدتهم فى وجود الله سبحانه وصفاته . ويطالبهم بمقتضى هذا المنطق ذاته أن يجعلوا الله وحده ربهم ; فيدينوا له وحده بالاتباع والطاعة فى الشعائر والشرائع . . فأما جاهلية القرن العشرين فتريد أن تخلص من ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها ابتداء !ومن العجيب أنه فى البلاد التى تسمى "إسلامية " يروج بكل وسيلة ظاهرة أو خفية لهذا الهروب الفاضح باسم "العلم" و "العلمية " ! فيقال:إن "الغيبية " لا مكان لها فى الأنظمة "العلمية " . . ومن الغيب كل ما يتعلق بالألوهية . . ! ومن هذا المنفذ الخلفى يحاول الأبقون من الله الهروب . لا يخشون الله إنما يخشون الناس ، فيحتالون عليهم هذا الاحتيال ! وما تزال دلالة وجود الكون ذاته ، ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة . تحاصر الهاربين من الله هنا وهناك . والفطرة البشرية بجملتها – قلبا وعقلا وحسا ووجدانا – تواجه هذه الدلالة ، وتستجيب لها . وما يزال المنهج القرآني هذا يخاطب الفطرة بجملتها . يخاطبها من أقصر طريق ، ومن أوسع طريق وأعمق طريق !!! والذين يرون كل هذا ، ثم لا يتوقعون لقاء الله ؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذاالنظام المحكم أن تكون هناك آخرة ، وأن الدنيا ليست النهاية ، لأن البشرية لم تبلغ فيها كمالها المنشود ؛ والذين يمرون بهذه الآيات كلها غافلين ، لا تحرك فيهم قلبا يتدبر , ولا عقلا يتفكر . . هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشرى ، ولن يصلوا إلى الجنة التى وعد المتقون . إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حيث يفرغون من نصب الدنيا وصغارها إلى تسبيح الله وحمده فى رضاء مقيم (إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ؛ تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) إن الذين لا يتدبرون النظام الكونى الموحى بأن لهذا الكون خالقا مدبرا ، لا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام ، يتم فيها تحقيق القسط والعدل ؛ كما يتم فيها إبلاغ البشرية إلى آفاقها العليا . ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله ، ونتيجة لهذا القصور يقفون عند الحياة الدنيا ، بما فيها من نقص وهبوط ، ويرضونها ويستغرقون فيها ، فلا ينكرون فيها نقصا ، ولا يدركون أنها لا تصلح أن تكون نهاية للبشر ; وهم يغادرونها لم يستوفوا كل جزائهم على ما عملوا من خير أو اجترحوا من شر , ولم يبلغوا الكمال الذى تهيئهم له بشريتهم . والوقوف عند حدود الدنيا وارتضاؤها يظل يهبط بأصحابه ثم يهبط ، لأنهم لا يرفعون رؤوسهم إلى قمة ، ولا يتطلعون بأبصارهم إلى أفق . إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائما إلى هذه الأرض وما عليها ! غافلين عن آيات الله الكونية التى توقظ القلب ، وترفع الحس ، وتحفز إلى التطلع والكمال . . (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وبئس المأوى وبئس المصير ! وفى الضفة الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا ، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان ، تحقيقا لأمر الله بعمل الصالحات ، وانتظارا للآخرة الطيبة . . وطريقها هو الصالحات . . هؤلاء . (يهديهم ربهم بإيمانهم) يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذى يصل ما بينهم وبين الله ، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق , ويهديهم إلى الخير بوحى من حساسية الضمير وتقواه . . هؤلاء يدخلون الجنة (تجرى من تحتهم الأنهار) وما يزال الماء ولن يزال يوحى بالخصب والرى والنماء والحياة . . فما همومهم فى هذه الجنة وما هى شواغلهم ، وما هى دعواهم التى يحبون تحقيقها ؟ إن همومهم ليست مالا ولا جاها , وإن شواغلهم ليست دفع أذى ولا تحصيل مصلحة ، ولقد ارتفعوا عن مثل هذه الشواغل والهموم . إن أقصى ما يشغلهم حتى ليوصف بأنه (دعواهم) هو تسبيح الله أولا وحمده أخيرا ، يتخلل هذا وذاك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين ملائكة الرحمن (دعواهم فيها:سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم:أن الحمد لله رب العالمين) إنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ؛ والارتفاع عن ضروراتها وحاجاتها , والرفرفة فى آفاق الرضى والتسبيح والحمد والسلام . تلك الآفاق اللائقة بكمال الإنسان . بعد ذلك يواجه السياق القرانى تحديهم لرسول الله ﷺ وطلبهم تعجيل العذاب الذى يتوعدهم به ؛ ببيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة . ويرسم لهم مشهدهم حين يصيبهم الضر فعلا ، فتتعرى فطرتهم من الركام وتتجه إلى خالقها . فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة . ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ؛ ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هى للابتلاء وبعدها الجزاء (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون . وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما , فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم , لننظر كيف تعملون) ولقد كان المشركون العرب يتحدون رسول الله ﷺ أن يعجل لهم العذاب ، وكل هذا يصور حالة العناد التى كانوا يواجهون بها هدى الله . . وقد شاءت حكمته أن يؤجلهم ،

فلا يوقع بهم عذاب الاستئصال والهلاك كما أوقعهم بالمكذبين قبلهم . فقد علم الله أن كثرتهم ستدخل فى هذا الدين ، فيقوم عليها ، وينطلق فى الأرض بها . وكان ذلك بعد فتح مكة ، مما كانوا يجهلونه وهم يتحدون فى جهالة ! غير عالمين بما يريده الله بهم من الخير الحقيقى . لا الخير الذى يستعجلونه استعجالهم بالشر ! والله سبحانه يقول لهم فى الآية الأولى:إنه لو عجل لهم بالشر الذى يتحدون باستعجاله , استعجالهم بالخير الذى يطلبونه . . لو استجاب الله لهم فى استعجالهم كله لقضى عليهم ، وعجل بأجلهم ! ولكنه يستبقيهملما أجلهم له . . ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما وراءه . فالذين لا يرجون لقاءه سيظلون فى عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتيهم الأجل المرسوم . وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر ، تكشف عن التناقض فى طبيعة هذا الإنسان الذى يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ؛ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) إنها صورة مبدعة لنموذج بشرى مكرور . . وإن الإنسان ليظل مدفوعا مع تيار الحياة , يخطئ ويذنب ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس – إلا من عصم الله ورحم – من يتذكر فى إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفا وأن هناك عجزا . وساعات الرخاء تنسى ، والإحساس بالغنى يطغى . . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء . فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر . انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار . والسياق ينسق خطوات التعبير وإيقاعه مع الحالة النفسية التى يصورها , والنموذج البشرى الذى يعرضه . فيصور منظر الضر فى بطء وتلبث وتطويل (دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر ، ليصور وقفة هذا الإنسان وقد توقف التيار الدافع فى جسمه أو فى ماله أو فى قوته كما يتوقف التيار أمام السد ، فيقف أو يرتد . حتى إذا رفع الحاجز(مر) كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق (مر) لا يتوقف . ليشكر , ولا يلتفت ليتدبر ، ولا يتأمل ليعتبر (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة ! كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون فماذا كانت نهاية الإسراف فى القرون الأولى ؟ (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين) لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم – وهو الشرك – إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها فى الجزيرة العربية فى مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط . . وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم (وما كانوا ليؤمنوا) لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهيئين للإيمان . فلقوا جزاء المجرمين (كذلك نجزى القوم المجرمين) وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون فى مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) وهى لمسة قوية للقلب البشرى ؛ إذ يدرك أنه مستخلف فى ملك أديل من مالكيه الأوائل , وأجلى عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك ، وإنما هى أيام يقضيها فيه ، ممتحنا بما يكون منه ، مبتلى بهذا الملك ، محاسبا على ما يكسب ، بعد بقاء فيه قليل ! وإن شعوره بالرقابة التى تحيط به ، والتى يصورها قول الله سبحانه (لننظر كيف تعملون) ليجعله شديد التوقى ، شديد الحذر ، شديد الرغبة فى الإحسان ، وفى النجاة أيضا من هذا الامتحان ! وهذا مفرق الطريق بين التصور الذى ينشئه الإسلام فى القلب البشرى بمثل هذه اللمسات القوية ؛ والتصورات التى تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروى من حسابها . . ! فإنه لا يمكن أن يلتقى اثنان أحدهما يعيش بالتصور الإسلامى والآخر يعيش بتلك التصورات القاصرة . . لا يمكن أن يلتقيا فى تصور للحياة ، ولا فى خلق ، ولا فى حركة ؛ كما لا يمكن أن يلتقى نظامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعدة من هاتين القاعدتين اللتين لا تلتقيان ! وهنا يتحول السياق من خطابهم إلى عرض نماذج من أعمالهم بعد استخلافهم . لقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا:ائت بقرآن غير هذا أو بدله) وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد ، إنما يصدر عن عبث وهزل ؛ وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله . وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لا يظنون أنهم سيلقون الله ! وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله ؛ كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة , ويأخذونها مأخذ المباريات فى أسواق العرب فى الجاهلية . فما على محمد أن يقبل التحدى ويؤلف قرآنا آخر ، أو يؤلف جزءا مكان جزء ؟! (قال:ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى . إن أتبع إلا ما يوحى إلى . إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) إنها ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر . إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه . فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه . وإن هو إلا مبلغ متبع للوحى الذى يأتيه . وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم (قل:لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت

فيكم عمرا من قبله . أفلا تعقلون ؟). إنه وحي من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك . ولو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم . فالأمر كله لله فى نزول هذا القرآن وفى تبليغه للناس . قل لهم هذا . وقل لهم:إنك لبثت فيهم عمرا كاملا من قبل الرسالة . أربعين سنة . فلم تحدثهم بشيء من هذا القرآن . لأنك لم تكن تملكه . لم يكن قد أوحى إليك . ولو كان فى استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذى أقعدك عمرا كاملا ؟ ألا إنه الوحى الذى لا تملك من أمره شيئا إلا البلاغ

وقل لهم:ما كان لى أن أفترى على الله الكذب ، وأن أقول:إنه أوحى إلى إلا بالحق . فليس هنالك ما هو أشد ظلما ممن يفترى على الله أو من يكذب بآيات الله (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟).. وأنا أنهاكم عن ثانية الجريمتين ، وهى التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله (إنه لا يفلح المجرمون) ويستمر السياق يعرض ما فعلوه وما قالوه بعد استخلافهم فى الأرض . غير هذا الهزل فى طلب قرآن جديد (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون:هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل:أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) والنفس حين تنحرف لا تقف عند حد من السخف . وهذه الأرباب المتعددة التى يعبدونها لا تملك لهم ضررا ولا نفعا ، ولكنهم يظنونها تشفع لهم عند الله (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟). . فالله سبحانه لا يعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون ! فهل تعلمون أنتم ما لا يعلمه الله وتنبئونه بما لا يعلم له وجودا فى السماوات ولا فى الأرض ؟! إنه أسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذى يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقبل أن يمضى فى عرض ما قالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض . والفطرة فى أصلها كانت على التوحيد ، ثم جد الخلاف بعد حين (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعا إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريدها (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) وبعد هذا التعقيب يمضى فى الاستعراض لما يقول المستخلفون (ويقولون:لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل:إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) فكل الآيات التى يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم . وكل آيات الله المبثوثة فى تضاعيف الكون لا تكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل فى الأمم قبلهم . غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية . وطبيعة معجزتها . فهى ليست معجزة وقتية تنتهى بمشاهدة جيل ، إنما هى المعجزة الدائمة التى تخاطب القلب والعقل فى جيل بعد جيل . ويوجه الله رسوله أن يحيلهم على الله الذى يعلم ما فى غيبه ، ويقدر إن كان سيبرز لهم خارقة أو لا يبرز (فقل:إنما الغيب لله . فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) وهو جواب فى طيه الإمهال وفى طيه التهديد . . وفى طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية فى جانب الألوهية . فإن محمدا ﷺ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئا ، فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئا ، فأمرهم موكول إلى الله . . وهكذا يتحدد مقام العبودية فى جانب مقام الألوهية ، ويخط خط بارز فاصل بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريبة . وحين ينتهى السياق من عرض ما يقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر ، حين يذوقون الرحمة بعد الضر . كما تحدث من قبل عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه . ويضرب لهم مثلا مما يقع فى الحياة يصدق ذلك ، فيقدمه فى صورة مشهد قوى من مشاهد القرآن التصويرية (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر فى آياتنا . قل:الله أسرع مكرا ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين:لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) عجيب هذا المخلوق الإنسانى لا يذكر الله إلا فى ساعة العسرة ، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة . فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان . . ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة فى كل آن , مجلوة دائما بجلاء الإيمان . (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر فى آياتنا) كذلك صنع قوم فرعون مع موسى . فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه . فإذا ذاقوا الرحمة مكروا فى آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا:إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا . . وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك , فجاءت محمدا تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ، ثم مكرت قريش بآية الله وظلت فيما هى فيه ! وهى ظاهرة مطردة فى الإنسان ما لم يعصمه الإيمان (قل:الله أسرع مكرا . إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) فالله أقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، والمكر المكشوف إبطاله مضمون (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) فلا شيء منه يخفى ، ولا شيء منه ينسى . أما من هم هؤلاء

الرسل وكيف يكتبون ، فذلك غيب من الغيب الذى لا نعرف عنه شيئا إلا من مثل هذا النص ، فعلينا أن ندركه دون ما تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح . ثم ذلك المشهد الحى ، الذى يعرض كأنه يقع ، وتشهده العيون ، وتتابعه المشاعر ، وتخفق معه القلوب . يبدأ بتقرير القدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) ذلك أن السورة كلها معرض لتقرير هذه القدرة التى تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك . ثم ها نحن أولاء أمام المشهد القريب (حتى إذا كنتم فى الفلك) وها هى ذى الفلك تتحرك رخاء (وجرين بهم بريح طيبة) وهذهمشاعر أهل الفلك ندركها (وفرحوا بها) وفى هذا الرخاء الآمن ، وفى هذا السرور الشامل ، تقع المفاجأة ، فتأخذ الغارين الآمنين الفرحين (جاءتها ريح عاصف) \يا للهول ! (وجاءهم الموج من كل مكان) وتناوحت الفلك واضطربت بمن فيها ، ولاطمها الموج وشالها وحطها ، ودار بها كالريشة الضائعة فى الخضم . . وهؤلاء أهلها فى فزع يظنون أن لا مناص (وظنوا أنهم أحيط بهم) فلا مجال للنجاة عندئذ فقط ، وفى وسط هذا الهول المتلاطم ، تتعرى فطرتهم مما ألم بها من أوشاب ، وتنفض قلوبهم ما ران عليها من تصورات ، وتنبض الفطرة الأصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه (دعوا الله مخلصين له الدين:لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)! وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتسكن القلوب الطائرة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابسة . فماذا ؟ (فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق !) هكذا بغتة ومفاجأة ! إنه مشهد كامل ، لم تفتنا منه حركة ولا خالجة . . مشهد حادث . ولكنه مشهد نفس ، ومشهد طبيعة ومشهد نموذج بشرى لطائفة كبيرة من الناس فى كل جيل . ومن ثم يجىء التعقيب تحذيرا للناس أجمعين (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) سواء كان بغيا على النفس خاصة ، بإيرادها موارد التهلكة ، والزج بها فى ركب الندامة الخاسر بالمعصية ؛ أو كان بغيا على الناس فالناس نفس واحدة . على أن البغاة ومن يرضون منهم البغى يلقون فى أنفسهم العاقبة . والبغى لا يتمثل فى أبشع ولا أشنع من البغى على ألوهية الله سبحانه ، واغتصاب الربوبية والقوامة والحاكمية ومزاولتها فى عباده . والناس حين يبغون هذا البغى يذوقون عاقبته فى حياتهم الدينا ، قبل أن يذوقوا جزاءه فى الدار الآخرة يذوقون هذه العاقبة فسادا فى الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضار به (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم . . متاع الحياة الدنيا) لا تزيدون عليه ! (ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) فهو حساب الآخرة وجزاؤها كذلك ، بعد شقوة الدنيا وعذابها ابتداء . وما قيمة (متاع الحياة الدنيا) هذا وما حقيقته ؟ يصور السياق هذه الحقيقة فى مشهد من مشاهد القرآن التصويرية الحافلة بالحركة والحياة ، وهى مع ذلك من المشاهدات التى تقع فى كل يوم ، ويمر عليها الأحياء دون انتباه (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها . .أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ذلك مثل الحياة الدنيا التى لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ,ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى . هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر . وها هى ذى الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج . وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وبإرادتهم تزينت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، لا يغيرها عليهم مغير ,ولا ينازعهم فيها منازع . وفى وسط هذا الخصب الممرع ، وفى نشوة هذا الفرح الملعلع ، وفى غمرة هذا الاطمئنان الواثق (أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) فى ومضة ، وفى جملة ، وفى خطفة . . وذلك مقصود فى التعبير بعد الإطالة فى عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان . وهذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع . هذه هى . لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئا إلا بمقدار . هذه هى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فيا لبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس فى لحظة ، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هى حصيد كأن لم تغن بالأمس .

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٢٦} وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٢٧} وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ{٢٨} فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ{٢٩} هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{٣٠} قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ

أَفَلاَ تَتَّقُونَ{٣١} فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{٣٢} كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{٣٣} قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{٣٤} قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٥} وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{٣٦} وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{٣٧} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٣٨} بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ{٣٩} وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ{٤٠} وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ{٤١} وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ{٤٢} وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{٤٣} إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{٤٤} وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ{٤٥} وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ{٤٦} وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{٤٧} وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٤٨} قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ{٤٩} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ{٥٠} أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ{٥١} ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ{٥٢} وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ{٥٣} وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{٥٤} أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٥٥} هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٥٦} يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ{٥٧} قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{٥٨} قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ{٥٩} وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ{٦٠} وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{٦١} أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٦٢} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{٦٣} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{٦٤} وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{٦٥} أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ{٦٦} هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{٦٧} قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{٦٨} قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{٦٩} مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ{٧٠}

هذا الدرس كله لمسات وجدانية متتابعة ، تنتهى كلها إلى هدف واحد:مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر . والعدل فيه . لمسات وجدانية تأخذ النفس من أقطارها ، وتأخذ بها إلى أقطار الكون ، فى جولة واسعة شاملة . جولة من الأرض إلى السماء . ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس . ومن ماضى القرون إلى الحاضر القريب . ومن الدنيا إلى الآخرة . . فى سياق . . وفى الدرس الماضى لمسات من هذه ، وجولات من هذه . . ولكنها فى هذا الدرس أظهر . . فمن معرض الحشر ، إلى مشاهد الكون ، إلى ذات النفس ، إلى التحدى بالقرآن ، إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين . ومن ثم لمحة عابرة من الحشر فى مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب فى صورة موحية للحس بالتوجس ، إلى تصوير علم الله الشامل الذى لا يند عنه شىء ، إلى بعض آيات الله فى الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب . . إنها جملة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك فطرة سليمة التلقى ، صحيحة الاستجابة ، ألا تستجيب لها ، وألا تتذاوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . . لقد كان الكفار صادقين فى إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم تأثيره

ويزلزل قلوبهم ! وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين ! (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) كانت آخر آية فى الدرس السابق (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فهنا يبين عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين . ويكشف عن رحمة الله وفضله ,وعن قسطه وعدله فى جزاء هؤلاء وهؤلاء . فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم , وإدراك القانون الكونى المؤدى إلى دار السلام . . فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة). وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل فى أمر الخلق (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) والقتر هو الغبار والسواد وكدرة اللون من الحزن أو الضيق . والذلة هى الانكسار والمهانة أو الإهانة . فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . . والتعبير يوحي بأن فى الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه , فالنجاة من هذا كله غنيمة ، وفضل من الله يضاف إلى الجزاء المزيد فيه (أولئك) أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق (أصحاب الجنة) وملاكها ورفاقها (هم فيها خالدون) (والذين كسبوا السيئات) فكانت هي الربح الذى خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزاد عليهم السوء . ولكن (جزاء سيئة بمثلها) (وترهقهم ذلة) تغشاهم وتركبهم وتكربهم (ما لهم من الله من عاصم) يعصمهم ويمنعهم من المصير المحتوم ، نفاذا لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق , ويخالف الناموس . . ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشي وجه المكروب المأخوذ المرعوب (كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم (أولئك) المبعدون في هذا الظلام والقتام (أصحاب النار) ملاكها ورفاقها (هم فيها خالدون) ولكن أين الشركاء والشفعاء ؟ وكيف لم يعصموهم من دون الله ؟ هذه هى قصتهم فى يوم الحشر العصيب (ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا:مكانكم أنتم وشركاؤكم . فزيلنا بينهم . وقال شركاؤهم) (ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق . وضل عنهم ما كانوا يفترون) هذه هي قصة الشفعاء والشركاء فى مشهد من مشاهد القيامة ، مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله ، ولن يملكوا لهم خلاصا ولا نجاة . هؤلاء هم محشورون جميعا . . الكفار والشركاء . . وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم (شركاءهم) تهكما من جهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوما شركاء لله . هؤلاء هم جميعا كفارا وشركاء . يصدر إليهم الأمر (مكانكم أنتم وشركاؤكم) قفوا حيث أنتم . ولا بد أن يكونوا قد تسمروا فى أماكنهم ! فالأمر يومئذ للنفاذ . ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما فى الموقف (فزيلنا بينهم) وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء يتكلمون ليبرئوا أنفسهم من الجريمة . جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم ولم يشعروا ، فهم إذن لم يشتركوا فى الجناية ، ويشهدون الله وحده على ما يقولون (وقال شركاؤهم:ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) هؤلاء هم الشركاء الذين كانوا يعبدون . هؤلاء هم ضعاف يطلبون البراءة من إثم أتباعهم .ويجعلون الله وحده شهيدا ، ويطلبون النجاة من إثم لم يشاركوا فيه ! عندئذ , وفى هذا الموقف المكشوف تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة: هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت . . وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وما عداه باطل (وردوا إلى الله مولاهم الحق) وهنالك لا يجد المشركون شيئا من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وهكذا يتجلى المشهد الحي ، فى ساحة الحشر ، بكل حقائقه ، وبكل وقائعه ، وبكل مؤثراته واستجاباته . تعرضه تلك الكلمات القلائل ، فتبلغ من النفس ما لا يبلغه الإخبار المجرد ، ولا براهين الجدل الطويل ! ومن جولة الحشر الذى تسقط فيه الدعاوى والأباطيل ، ويتجلى فيه أن المولى هو الله المهيمن على الموقف وما فيه . إلى جولة فى واقعهم الذي يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التى يعلمونها ، وإلى المشاهد التى يرونها فى الحياة . بل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنها من أمر الله ومن خلق الله (قل:من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت) ولقد مر أن مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق , والمدبر . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ، ليصحح لهم – عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطرى – ذلك الخلط والضلال (قل:من يرزقكم من السماء والأرض ؟). . من المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها , ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض

لهم ولأنعامهم . وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض . وهو أوسع من ذلك بكثير (أم من يملك السمع والأبصار ؟) يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها أو يمرضها ، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها ، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره . . ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والأبصار . وهو حسبهم لإدراك مدلول هذا السؤال وتوجيهه . وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر ، ومن دقائق صنع الله فى هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولا وسعة .)ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟). . وكانوا يعدون الساكن هو الميت ، والنامى أو المتحرك هو الحى . فكان مدلول السؤال عندهم مشهودا فى خروج النبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ، وخروج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ . . إلى آخر هذه المشاهدات . وهو عندهم عجيب . وهو فى ذاته عجيب حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة وأمثالهما ليست فى الموتى بل فى الأحياء ؛ بما فيها من حياة كامنة واستعداد . فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وشياتها لأعجب العجب الذى تصنعه قدرة الله . . وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ، وتحول العناصر فى مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظه . وإن تحول الطعام الذى يموت بالطهى والنار إلى دم حى فى الجسم الحى ، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق ، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهى بعد كائنة فى كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار . وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لا جواب عليها كلها إلا أن يكون هناك إله ، يهب الحياة ! (ومن يدبر الأمر ؟). . فى هذا الذى ذكر كله وفى سواه من شؤون الكون وشؤون البشر ؟ من يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر حركة هذه الحياة فتمضى فى طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر ، والتى لا تخطى ء مرة ولا تحيد ؟ ومن ومن ؟ (فسيقولون الله) فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون يده فى هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله (فقل:أفلا تتقون ؟) أفلا تخشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض ، والذى يملك السمع والأبصار ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، والذى يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه ؟ إن الذى يملك هذا كله لهو الله ، وهو الرب الحق دون سواه (فذلكم الله ربكم الحق) والحق واحد لا يتعدد ، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل ، وقد ضل التقدير (فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون) وكيف توجهون بعيدا عن الحق وهو واضح بين تراه العيون ؟ بمثل هذا الانصراف عن الحق الواضح الذى يعترف المشركون بمقدماته وينكرون نتائجه اللازمة ، ولا يقومون بمقتضياته الواجبة ، قدر الله فى سننه ونواميسه أن الذين يفسقون وينحرفون عن منطق الفطرة السليم وسنة الخلق الماضية لا يؤمنون (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) لا لأنه يمنعهم من الإيمان . فهذه دلائله قائمة فى الكون ، وهذه مقدماته قائمة فى اعتقادهم . ولكن لأنهم هم يحيدون عن طريق الموصل إلى الإيمان ، ويجحدون المقدمات التى فى أيديهم ، ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم ، ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم . ثم عودة إلى مظاهر قدرة الله ، وهل للشركاء فيها من نصيب (قل:هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل:الله يبدأ الخلق ثم يعيده . فأنى تؤفكون ؟ قل:هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل:الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى ؟ فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟). . وهذه الأمور المسؤول عنها – من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق – ليست من بدائه مشاهداتهم ولا من مسلمات اعتقاداتهم كالأولى . ولكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكانا على مسلماتهم الأولى ، فهى من مقتضياتها بشىء من التفكر والتدبر . ثم لا يطلب إليهم الجواب ، إنما يقرره لهم اعتمادا على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات (قل:هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟). . وهم مسلمون بأن الله هو الذى يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء . . ولكن حكمة الخالق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم انتهاء حياة المخلوقين فى هذه الأرض ، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم ، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم ، وسيرهم على النهج أو انحرافهم عنه . إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم . وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد فى حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته . ولا بد من تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، وهم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحى من الميت . والحياة الأخرى قريبة الشبه بإخراج الحى من الميت الذى يسلمون به (قل:الله يبدأ الخلق ثم يعيده) وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها (فأنى تؤفكون) فتوجهون بعيدا عن الحق إلى الإفك وتضلون ؟ (قل:هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟). . فينزل كتاباً ، ويرسل رسولاً ، ويضع نظاماً ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ؛ ويكشف عن آيات الله فى الكون والنفس ؛ ويوقظ القلوب الغافلة ، ويحرك المدارك المعطلة . كما

هو معهود لكم من الله ومن رسوله الذى جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهتدوا إلى الحق ؟ وهذه قضية ليست من سابق مسلماتهم ، ولكن وقائعها حاضرة بين أيديهم . فليقررها لهم الرسول ﷺ وليأخذهم بها (قل:الله يهدى للحق) ومن هذه تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ؟ أم من لا يهدى إلا أن يهدى ؟)والجواب مقرر . فالذى يهدى الناس إلى الحق أولى بالإتباع ، ممن لا يهتدى هو بنفسه إلا أن يهديه غيره . . وهذا ينطبق سواء كان المعبودون حجارة أو أشجاراً أو كواكب . أو كانوا من البشر - بما فى ذلك عيسى عليه السلام ، فهو ببشريته محتاج إلى هداية الله له ، وإن كان هو قد بعث هاديا للناس – ومن عدا عيسى عليه السلام أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه (فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟) ما الذى وقع لكم وما الذى أصابكم ؟ وكيف تقدرون الأمور ، فتحيدون عن الحق الواضح المبين ؟ فإذا فرغ من سؤالهم وإجابتهم ، وتقرير الإجابة المفروضة التى تحتمها البديهة وتحتمها المقدمات المسلمة . . عقب على هذا بتقرير واقعهم فى النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد . فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، ولا إلى حقائق مدروسة يطمئن إليها العقل والفطرة ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهى لا تغنى من الحق شيئا (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا . إن الظن لا يغنى من الحق شيئا . إن الله عليم بما يفعلون) فهم يظنون أن لله شركاء . ولا يحققون هذا الظن ولا يمتحنونه عملا ولا عقلا . وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة:ولا يمتحنون هم هذه الخرافة ، ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظنى . وهم يظنون أن الله لا يوحى إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله . وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ولا يحققون إن كان محمد – وهو بشر – قادرا على تأليف هذا القرآن , بينما هم لا يقدرون وهم بشر مثله . . وهكذا يعيشون فى مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئا . والله وحده هو الذى يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم . وتفريعاً على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق فى جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفى التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله ، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله . وتثنى بوصمهم بالتسرع فى الحكم على ما لم يعلموه يقينا أو يحققوه . وتثلث بإثبات حالتهم فى مواجهة هذا القرآن ، وتثبيت الرسول [ص] على خطته أيا كانت استجابتهم أو عدم استجابتهم له ، وتنتهى بالتيئيس من الفريق الضال والإيماء إلى مصيرهم الذى لا يظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقونه بما هم فيه من ضلال (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) فهو بخصائصه ، الموضوعية والتعبيرية . بهذا الكمال فى تناسقه ؛ وبهذا الكمال فى العقيدة التى جاء بها ، وفى النظام الإنسانى الذى يتضمن قواعده ؛ وبهذا الكمال فى تصوير حقيقة الألوهية , وفى تصوير طبيعة البشر ، وطبيعة الحياة ، وطبيعة الكون . . لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هى التى تملك الإتيان به هى قدرة الله . القدرة التى تحيط بالأوائل والأواخر ، وبالظواهر والسرائر ، وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص ومن آثار الجهل والعجز (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) ما كان من شأنه أصلا أن يفترى . فليس الافتراء هو المنفى ، ولكن جواز وجوده هو المنفى . وهو أبلغ فى النفى وأبعد (ولكن تصديق الذى بين يديه) من الكتب التى سبق بها الرسل . تصديقها فى أصل العقيدة ، وفى الدعوة إلى الخير (وتفصيل الكتاب) الواحد الذى جاء به الرسل جميعا من عند الله ، تتفق أصوله وتختلف تفصيلاته . . وهذا القرآن يفصل كتاب الله ويبين وسائل الخير الذى جاء به ، ووسائل تحقيقه وصيانته . فالعقيدة فى الله واحدة ، والدعوة إلى الخير واحدة . ولكن صورة هذا الخير فيها تفصيل ، والتشريع الذى يحققه فيه تفصيل ، يناسب نمو البشرية وقتها , وتطورات البشرية بعدها ، بعد أن بلغت سن الرشد فخوطبت بالقرآن خطاب الراشدين , ولم تخاطب بالخوارق المادية التى لا سبيل فيها للعقل والتفكير (لا ريب فيه ، من رب العالمين) تقرير وتوكيد لنفى جواز افترائه عن طريق إثبات مصدره (من رب العالمين) (أم يقولون افتراه ؟) بعد هذا النفى والتقرير ، فهو إذن من صنع محمد . ومحمد بشر ينطق باللغة التى ينطقون بها ، و لا يملك من حروفها إلا ما يملكون . [ألف . لام . ميم] . . [ألف . لام . را .] . . [ألف . لام . ميم . صاد] . . . الخ . فدونهم إذن – ومعهم من يستطيعون جمعهم – فليفتروا ، كما افترى [بزعمهم] محمد . فليفتروا سورة واحدة لا قرآنا كاملا (قل:فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وقد ثبت هذا التحدى ؛ وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتا ولن يزال . والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان . وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية , ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة . . كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة العقول فى جيل واحد او فى جميع الأجيال . ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه . . فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الاعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات

والنفسيات وما إليها والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفني ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما فى الأداء القرآنى من إعجاز فى هذا الجانب . والذين زاولوا التفكير الاجتماعى والقانونى والنفسى ، والإنسانى بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعى فى هذا الكتاب أيضاً . إن الأداء القرآنى يمتاز ويتميز من الأداء البشرى . . إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشرى ؛ حتى ليبلغ أحيانا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً . . وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذى نقول - وإن لم تكن هى القاعدة - ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل . أذكر حادثا وقع لى وكان عليه معى شهود ستة ، وذلك منذ حوالى خمسة عشر عاماً . . كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسى إلى نيويورك ؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم . . وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة فى المحيط على ظهر السفينة ! والله يعلم - أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة ؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا ! . . وقد يسر لنا قائد السفينة - وكان إنجليزياً - أن نقيم صلاتنا ؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها - وكلهم نوبيون مسلمون - أن يصلى منهم معنا من لا يكون فى "الخدمة" وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً ، إذ كانت المرة الأولى التى تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة . . وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة ؛ والركاب الأجانب - معظمهم - متحلقون يرقبون صلاتنا ! . . وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح "القدّاس" !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم "تيتو" وشيوعيته ! - كانت شديدة التأثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول:- فى إنجليزية ضعيفة - إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح ! . . وليس هذا موضع الشاهد فى القصة . . ولكن ذلك كان فى قولها:أى لغة هذه التى كان يتحدث بها "قسيسكم" ! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم "الصلاة" إلا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة ! وقد صححنا لها هذا الفهم ! . . وأجبناها:فقالت:إن اللغة التى يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً . . ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهى تقول:ولكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أن أسأل عنه . . إن الموضوع الذى لفت حسى ، هو أن "الإمام" كانت ترد فى أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعا . . هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فى رعشة وقشعريرة ! إنها شىء آخر ! كما لو كان - الإمام - مملوءا من الروح القدس ! - حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ! - وتفكرنا قليلا . ثم أدركنا أنها تعنى الآيات القرآنية التى وردت فى أثناء خطبة الجمعة وفى أثناء الصلاة ! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئا ! وليست هذه قاعدة كما قلت . ولكن وقوع هذه الحادثة - ووقوع أمثالها مما ذكره لى غير واحد - ذو دلالة على أن فى هذا القرآن سراً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته . وقد يكون إيمان هذه السيدة بدينها ، وفرارها من الجحيم الشيوعى فى بلادها ، قد أرهف حسها بكلمات الله على هذا النحو العجيب . . ولكنما بالنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شىء ، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه - وسره هذا - وهم لا يفترقون كثيرا من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيدة اليوغسلافية !!! ويضرب السياق عن المضى فى الجدل بعد هذا التحدى ، ليقرر أنهم لا يتبعون إلا الظن , فهم يحكمون على مالم يعلموه . والحكم يجب أن يسبقه العلم ، وألا يعتمد على مجرد الهوى أو مجرد الظن . والذى حكموا عليه هنا هو الوحى بالقرآن وصدق ما فيه من الوعد والوعيد . لقد كذبوا بهذا وليس لديهم من علم يقوم عليه التكذيب ، ولما يأتهم تأويله الواقعى بوقوعه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله) شأنهم فى هذا شأن المكذبين من قبلهم ، الظالمين المشركين بربهم . فليتأمل المتأمل كيف كان مصير الأولين ليعرف حقيقة مصير الآخرين (كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وإذا كان أكثرهم لا يتبعون إلا الظن ، ويكذبون بما لم يحصل لهم عنه علم ، فإن هناك منهم من يؤمن بهذا الكتاب ، فليسوا جميعهم من المكذبين (ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به . وربك أعلم بالمفسدين) والمفسدون هم الذين لا يؤمنون . وما يقع الفساد فى الأرض كما يقع بضلال الناس عن الإيمان بربهم والعبودية له وحده . وما نجم الفساد فى الأرض إلا من الدينونة لغير الله , وما يتبع هذا من شر فى حياة الناس فى كل اتجاه . شر اتباع الهوى فى النفس والغير ويعقب على تقرير مواقفهم من هذا الكتاب بتوجيه الخطاب للرسول ﷺ بألا يتأثر بتكذيب المكذبين ، وأن ينفض يديه منهم . ويعلنهم ببراءته من عملهم ، ويفاصلهم على ما معه من الحق فى وضوح وفى حسم وفى يقين (وإن كذبوك فقل:لى عملى ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون)وهى لمسة لوجدانهم ، باعتزالهم وأعمالهم ، وتركهم لمصيرهم منفردين ، بعد بيان ذلك المصير المخيف . وذلك كما تترك طفلك المعاند الذى يأبى

أن يسير معك ، فى وسط الطريق وحده يواجه مصيره فريدا لا يجد منك سنداً . وكثيراً ما يفلح هذا الأسلوب من التهديد ! ويمضى السياق يستعرض حال بعضهم من الرسول ﷺ وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة . وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يئوبون من السمع والنظر بشىء ، ولا يهتدون إلى الطريق (ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟) إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا . . إن هؤلاء لكثير ، فى كل زمان وفى كل مكان . والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدى حقيقة وظيفتها . والرسول ﷺ لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمى . فذلك من شأن الله وحده عز وجل . والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة . وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها ، فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التى لا تتخلف ولا تحابى ، ولقوا جزاءهم عدلاً ، ولم يظلمهم الله شيئاً (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وفى هذه الآيات الأخيرة تسرية عن رسول الله ﷺ مما يجده فى نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام . وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه فى الجهد . ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم العمى . وما يفتح الآذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل فى اختصاص الله . بعد ذلك يلمس وجدانهم لمسة خاطفة بمشهد من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التى تزحم حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأكل اهتماماتهم . . رحلة سريعة ، قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم ودارهم الأصيلة (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين) وفى هذه الجولة الخاطفة ننظر فإذا المحشورون مأخوذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها فى التعارف ، ثم أسدل الستار . وهذه الشعوب المتناحرة ، والدول المتخاصمة – لا تتخاصم على حق عام ، ولا على منهج سليم ، إنما تتعارك على الحطام والأعراض – هذه . هل عرف بعضها بعضاً ؟ وهى ما تكاد تفرغ من خصام حتى تدخل فى خصام . ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، وما سبقه من أيام الحياة فى الأرض إلى حديث مع الرسول ﷺ فى شأن وعيد الله للمكذبين ؛ ذلك الوعيد الغامض ، لا يدرون إن كان سيعاجلهم غداً ، أم إنهم سينظرون إلى يوم الدين ، ليبقى مصلتاً فوق رؤوسهم لعلهم يتقون ويهتدون . . وشيئاً فشيئاً تنتهى الجولة التى بدأت بالحديث عن الوعيد إلى نهايتها يوم لا ينفع الفداء ولو كان ما فى الأرض كله ، ويوم يقضى الله بالقسط لا يظلم أحداً . . وذلك على طريقة القرآن فى وصل الدنيا بالآخرة ، فى كلمات ولحظات ,فى تصوير حى يلمس القلوب ، ويصور فى الوقت ذاته حقيقة الاتصال بين الدارين والحياتين كما هما فى الواقع ، وكما ينبغى أن يكونا فى التصور الإسلامى الصحيح ، تبدأ هذه الجولة بتقرير أن مرجع القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذى كلف الرسول ﷺ أن يبلغه لهم ، فى حياته أو بعد وفاته . فالمرجع إلى الله فى الحالين . وهو شهيد على ما يفعلون فى حضور الرسول بالحياة ، وفى غيبته بالوفاة . فلن يضيع شىء من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول ﷺ مما يوعدون (وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على ما يفعلون) فالأمور مدبرة سائرة حسب التدبير ، لا يخرم منها حرف ، ولا يتغير بالطوارئ والظروف . ولكن كل قوم يُنظرون حتى يجىء رسولهم ، فينذرهم ويبين لهم ، وبذلك يستوفون حقهم الذى فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوما إلا بعد الرسالة ، وبعد الإعذار لهم بالتبيين . وعندئذ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول (ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) ونقف من هاتين الآيتين أمام حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية التى يرتكز عليها التصور الإسلامى كله . وعناية المنهج القرآنى بتوضيحها وتقريرها فى كل مناسبة ، وفى صور شتى متنوعة إنه يقال للرسول ﷺ إن أمر هذه العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون بها ، كله لله ,وأن ليس لك من الأمر شىء . دورك فيها هو البلاغ ، أما ما وراء ذلك فكله لله . وقد ينقضى أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك ، فليس حتماً على الله أن يريك عاقبتهم ، وما ينزله بهم من جزاء . . هذا له وحده سبحانه ! اما أنت – وكل رسول – فعليك البلاغ . . ثم يمضى الرسول ويدع الأمر كله لله . . ذلك كى يعلم العبيد مجالهم ، وكى لا يستعجل الدعاة قضاء الله مهما طال عليهم فى الدعوة ,ومهما تعرضوا فيها للعذاب !! (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) وقد كانوا يسألون فى تحد واستعجال ، طالبين وقوع ما يوعدهم به النبى ﷺ من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الأمم التى جاءتها رسلها فكذبت ، فأخذ الله المكذبين:والجواب (قل:لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وإذا كان الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فهو لا يملك لهم الضر والنفع بطبيعة الحال (قل:لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعاً . . إلا ما شاء الله . .) فالأمر إذن لله يحقق وعيده فى الوقت الذى يشاؤه . وسنة الله لا تتخلف ، وأجله الذى أجله لا يستعجل (لكل أمة أجل ، إذا جاء

أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) والأجل قد ينتهي بالهلاك الحسى . هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية . وقد ينتهي بالهلاك المعنوى . هلاك الهزيمة والضياع . وهو ما يقع للأمم ، إما لفترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائماً فتضمحل وتنمحى شخصيتها وتنتهي إلى اندثارها كأمة ، وإن بقيت كأفراد . . وكل أولئك وفق سنة الله التى لا تتبدل ، لا مصادفة ولا جزافاً ولا ظلماً ولا محاباة . فالأمم التى تأخذ بأسباب الحياة تحيا والأمم التى تنحرف عنها تضعف أو تضمحل أو تموت بحسب انحرافها . والأمة الإسلامية منصوص على أن حياتها فى اتباع رسولها ، والرسول يدعوها لما يحييها . لا بمجرد الإعتقاد ، ولكن بالعمل الذى تنص عليه العقيدة فى شتى مرافق الحياة . وبالحياة وفق المنهج الذى شرعه الله لها , والشريعة التى أنزلها ، والقيم التى قررها . وإلا جاءها الأجل وفق سنة الله . . ثم يبادرهم السياق بلمسة وجدانية تنقلهم من موقف السائل المستهزئ المتحدى ، إلى موقف المهدد الذى قد يفاجئه المحظور فى كل لحظة من الليل أو النهار (قل:أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟) فهذا العذاب المغيب الذى لا يُعلم موقعه وموعده ؛ والذى قد يحل بياتاً وأنتم نيام , أو نهاراً وأنتم أيقاظ ، لا يجديكم فى رده الصحو . . ما الذى يستعجل منه المجرمون ؟ وهو عذاب لا خير لهم فى استعجاله على كل حال .

وبينما هم فى مفاجأة السؤال الذى ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلاً . . وهو لم يقع بعد . . ولكن التصور القرآنى يرسمه واقعاً ويغمر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان (أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ الآن وقد كنتم به تستعجلون ؟!). فكأنما قد وقع . وكأنما قد آمنوا به ، وكأنما يخاطبون بهذا التبكيت فى مشهد حاضر يشهدونه الآن ! وتتمة المشهد الحاضر (ثم قيل للذين ظلموا:ذوقوا عذاب الخلد . هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟) وهكذا نجدنا مع السياق فى ساحة الحساب والعذاب ، وقد كنا منذ لحظات وفقرات فى الدنيا نشهد خطاب الله لرسوله عن هذا المصير !! وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول:إن كان هذا الوعيد حقاً . فهم مزلزلون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين . والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين (ويستنبئونك:أحق هو ؟ قل:إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) (إى وربى) الذى أعرف قيمة ربوبيته فلا أقسم به حانثاً ، ولا أقسم به إلا فى جد وفى يقين . . (إنه لحق وما أنتم بمعجزين) ما أنتم بمعجزين أن يأتى بكم ، وما أنتم بمعجزين أن يحاسبكم ، وأن يجازيكم وبينما نحن معهم على هذه الأرض فى استنباء وجواب . إذا نحن فجأة – مع السياق فى نقلة من نقلات الأسلوب القرآنى المصور – فى ساحة الحساب والجزاء . مبدئياً على وجه الفرض والتقدير . (ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به) فلا يقبل منها حتى على فرض وجوده معها . ولا تكتمل الآية حتى يكون الفرض قد وقع وقضى الأمر (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط فى أيديهم ، والتعبير يرسم للخيال صورة الكمد يظلل الوجوه , دون أن تنطق الشفاه ! (وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) وانتهى المشهد الذى بدأ منذ نصف آية فرضاً وانتهى واقعاً ، على طريقة التصوير القرآنى المؤثر المثير .

(ألا إن للّه ما فى السماوات والأرض . ألا إن وعد اللّه حق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت ، وإليه ترجعون . يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل:بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ألا" . . . بهذا الإعلان المدوى" (ألا إن لله ما فى السماوات والأرض) والذى يملك ما فى السماوات والأرض يملك أن يجعل وعده حقاً فلا يعجزه عن تحقيقه معجز ، ولا يعوقه عن تصديقه معوق (ألا إن وعد الله حق) (ولكن أكثرهم لا يعلمون). . وهم لجهلهم يشكون أو يكذبون (هو يحيي ويميت) والذى يملك الحياة والموت ، يملك الرجعة والحساب (وإليه ترجعون) إنه تعقيب سريع للتوكيد السريع بعد الاستعراض المثير . ثم يعقبه النداء الجامع للبشرية جميعاً: (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين) جاءتكم فى ذلك الكتاب الذى ترتابون فيه . جاءتكم الموعظة (من ربكم)فليس هو كتاباً مفترى ، وليس ما فيه من عند بشر . جاءتكم الموعظة لتحيى قلوبكم ، وتشفى صدوركم من الخرافة التى تملؤها ، والشك الذى يسيطر عليها ، والزيغ الذى يمرضها ، والقلق الذى يحيرها . جاءت لتفيض عليها البرء والعافية واليقين والاطمئنان والسلام مع الإيمان . وهى لمن يرزق الإيمان هدى إلى الطريق الواصل ، ورحمة من الضلال والعذاب (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون) فبهذا الفضل الذى آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التى أفاضها عليهم من الإيمان . . فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذى يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة . إن ذلك هو الفرح العلوى الذى يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين فى حياة أهله (يا أيها الناس

قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل:بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) لقد كانوا يدركون قيمة النقلة البعيدة التى نقلها لهم هذا الدين ، من وهدة الجاهلية التى كانوا فيها . . وإنها لنقلة بعيدة بالقياس إلى الجاهلية فى كل زمان ومكان . . بما فيها جاهلية القرن العشرين .وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم فى إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية . وفى ظل هذا الحديث عن فضل اللّه ورحمته ، المتمثلين فيما جاء للناس من موعظة وهدى وشفاء لما فى الصدور ، يتعرض السياق للجاهلية ، وهى تزاول حياتها العملية ، لا وفق ما جاء من عند اللّه ؛ ولكن وفق أهواء البشر ، واعتدائهم على خصائص اللّه سبحانه ، ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم اللّه (قل:أرأيتم ما أنزل اللّه لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ! قل:آللّه أذن لكم ؟ أم على اللّه تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على اللّه الكذب يوم القيامة ؟ إن اللّه لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) قل:ماذا ترون فى رزق اللّه الذى أنزله إليكم ؟ - وكل ما جاء من عند اللّه فى عليائه إلى البشر فهو منزل من ذلك المقام الأعلى - ماذا ترون فى هذا الرزق الذى أعطاه لكم ، لتتصرفوا فيه وفق إذنه وشرعه ، فإذا أنتم - من عند أنفسكم ودون إذن من اللّه لكم - تحرمون منه أنواعاً وتحلون منه أنواعاً . والتحريم والتحليل تشريع . والتشريع حاكمية . والحاكمية ربوبية . وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم (قل:آللّه أذن لكم ؟ أم على اللّه تفترون ؟) إنها القضية التى يتكرر ذكرها فى القرآن الكريم ؛ وتواجه بها الجاهلية بين الحين والحين . . ذلك أنها القضية الكبرى التالية لشهادة أن لا إله إلا اللّه . بل إنها هى هى فى حالة التطبيق الواقعى فى الحياة . واللّه يجبههم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه (وما ظن الذين يفترون على اللّه الكذب يوم القيامة ؟). . وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على اللّه الكذب وتنتظمهم جميعاً . . فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذى يتصورون أن يكون فى شأنهم يوم القيامة !! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية ! (إن اللّه لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون) واللّه ذو فضل على الناس برزقه هذا المادى الذى أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ؛ والنواميس التى تحكم هذه المصادر ، وأقدرهم كذلك على التنويع فى أشكاله ، والتحليل والتركيب فى مادته لتنويع هذه الأشكال . . وكله فى الكون وفيهم من رزق اللّه . . ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك . . فإذا هم يحيدون عن منهج اللّه وشرعه ;وإذا هم يشركون به غيره . . ثم يشقون فى النهاية بهذا كله . . يشقون لأنهم لا ينتفعون بهذا الذى هو شفاء لما فى الصدور ! واللّه هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذى لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . . هذه هى اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر فى السياق ، ليخرج منها إلى طمأنة الرسول ﷺ ومن معه بأنهم فى رعايته وولايته ، لا يضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع اللّه شركاء وهم واهمون (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) شعور مطمئن ومخيف معاً ، مؤنس ومرهب معاً . . وكيف بهذا المخلوق البشرى وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن اللّه معه ، شاهداً أمره وحاضر شأنه . اللّه بكل عظمته ، وبكل هيبته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته . اللّه خالق هذا الكون وهو عليه هين . ومدبر هذا الكون ما جل منه وما هان . . اللّه مع هذا المخلوق البشرى . الذرة التائهة فى الفضاء لولا عناية اللّه تمسك بها وترعاها ! إنه شعور رهيب . ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن . إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية . . إن اللّه معها إنه ليس شمول العلم وحده ، ولكن شمول الرعاية ، ثم شمول الرقابة (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) ويسبح الخيال مع الذرات السابحة فى الأرض أو فى السماء - ومعها علم اللّه - ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصوراً فى علم اللّه . . ويرتعش الوجدان إشفاقاً ورهبة ، ويخشع القلب إجلالاً وتقوى ، حتى يطامن الإيمان من الروعة والرهبة ؛ ويهدهد القلب الواجف بأنس القرب من اللّه . وفى ظل هذا الأنس ، وفى طمأنينة هذا القرب . . يأتى الإعلان الجاهر (ألا إن أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات اللّه . ذلك هو الفوز العظيم) وكيف يخاف أولياء اللّه أو يحزنون واللّه معهم هكذا فى كل شأن وفى كل عمل وفى كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء اللّه ، المؤمنون به الأتقياء المراقبون له فى السر والعلن : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) كيف يخافون وكيف يحزنون ، وهم على اتصال باللّه لأنهم أولياؤه ؟ وعلام يحزنون ومم يخافون ، والبشرى لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذى لا يتبدل - لا تبديل لكلمات اللّه (ذلك هو الفوز العظيم) إن أولياء اللّه الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى . والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . والعمل هو تنفيذ ما أمر اللّه به واجتناب ما نهى اللّه عنه . . هكذا يجب أن نفهم معنى الولاية للّه . لا كما يفهمه العوام ، من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم

بالأولياء ! وفي ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبي ﷺ وهو أولى الأولياء , بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفترين ، وكانوا فى ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه (ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعاً . هو السميع العليم) ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين – كما فى الموضع الآخر – لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه . فيفردهِ بالعزة جميعاً – وهى أصلاً لله وحده , والرسول والمؤمنون يستمدونها منه – ليجرد منها الناس جميعاً ، ومشركو قريش العتاة داخلون فى الناس . أما الرسول ﷺ فهو فى الحماية الإلهية التى أضفاها على أوليائه . فلا يحزن لما يقولون . والله معه وهو السميع العليم . الذى يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمى أولياءه مما يقال ومما يكاد . وفى ملك يده كل من فى السماوات وكل من فى الأرض من إنس وجن وملائكة ، وفى عصاة وتقاة ، فكل ذى قوة من خلقه داخل فى سلطانه وملكه (ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض) وهذه حكمة ذكر(من) هنا لا "ما" لأن المقصود إثبات أن الأقوياء كالضعفاء كلهم فى ملك يده سواء . فالسياق جار فيها مجراه (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) فهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا فى حقيقتهم شركاء لله فى شيء ؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة (إن يتبعون إلا الظن . وإن هم إلا يخرصون) ثم لفتة إلى بعض مجالى القدرة فى المشاهد الكونية التى يغفل عنها الناس بالتكرار (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) والمالك للحركة وللسكون ، الذى يجعل الليل ليسكن فيه الناس ، ويجعل النهار مبصراً يقود الناس فيتحركون ! ويبصرهم فيبصرون . . ممسك بمقاليد الحركة والسكون ، قادر على الناس ، قادر على حماية أوليائه من الناس . ورسوله ﷺ فى مقدمة أوليائه . ومن معه من المؤمنين (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) يسمعون فيتدبرون ما يسمعون . والمنهج القرآنى يستخدم المشاهد الكونية كثيراً فى معرض الحديث عن قضية الألوهية والعبودية . ذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهده شاهد ناطق للفطرة لا تملك لمنطقه رداً . كذلك يخاطب الناس بما فى علاقتهم بهذا الكون من تناسق . وهم يجدون هذا فى حياتهم فعلاً . فهذا الليل الذى يسكنون فيه ، وهذا النهار الذى يبصرون به ، هما ظاهرتان كونيتان شديدتا الاتصال بحياتهم . وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس يحسونه هم – ولو لم يتعمقوا فى البحث و "العلم" . ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية ! وهكذا لم يكن البشر فى عماية عن لغة الكون حتى جاءتهم "العلوم الحديثة ! " لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكينونتهم كلها . ومن ثم خاطبهم بها العليم الخبير منذ تلك القرون . وهى لغة متجددة بتجدد المعرفة ، وكلما ارتقى الناس فى المعرفة كانوا أقدر على فهمها ، متى تفتحت قلوبهم بالإيمان ونظرت بنور الله فى هذه الآفاق ! وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة فى الدنيا وتنتهى بالعذاب فى الآخرة على طريقة القرآن ، (قالوا:اتخذ الله ولداً ، سبحانه هو الغنى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل:إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وعقيدة أن لله – سبحانه – ولداً ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور فى التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ؛ والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التى جرت بتوالد أبناء الفناء , وهو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله . فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فإلى أن ينقضى هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضى امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد . والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون . والولد تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدى دورها فى عمارة الأرض – كما شاء الله – وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة . والبشر يكافحون فيما يحيط بهم ، ويكافحون أعداءهم من الحيوان والناس . فهم فى حاجة إلى التساند ، والولد أقرب من يكون إلى العون فى هذه الأحوال . والبشر يستكثرون من المال الذى يجلبونه لأنفسهم بالجهد الذى يبذلونه ، والولد يعين على الجهد الذى يجلب المال . وهكذا إلى سائر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض ، حتى ينقضى الأجل ، ويقضى الله أمراً كان مفعولاً .وليس شيء من ذلك كله متعلقاً بالذات الإلهية ، فلا الحاجة إلى الامتداد ، ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة ، ولا الحاجة إلى النصير ، ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شيء ما مما يخطر أو لا يخطر على البال متعلقة بذات الله تعالى . . ومن ثم تنتفى حكمة الولد ، لأن الطبيعة الإلهية لا يتعلق بها غرض خارج عن ذاتها , يتحقق بالولد . وما قضت حكمة الله أن يتوالد البشر إلا لأن طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النوع من التكملة . فهى تقتضى الولد اقتضاء . وليست المسألة جزافاً . ومن ثم كان الرد على فرية (قالوا اتخذ الله ولداً) . . هو (سبحانه ! هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض) (سبحانه ! . .) تنزيها لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصور (هو الغنى) بكل معانى الغنى ، عن الحاجات التى أسلفنا وعن سواها مما يخطر ومما لا يخطر على البال . مما يقتضى وجود الولد . والمقتضيات هى التى تسمح بوجود المقتضيات , فلا يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية . (له ما فى السماوات وما فى الأرض) فكل شيء ملكه .

ولا حاجة به – سبحانه – لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد . فالولد إذن عبث . تعالى اللّه سبحانه عن العبث ! ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظرى حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية ، مما جد عند المتكلمين ، وفى الفلسفات الأخرى . لأنه يلمس الموضوعات فى واقعها القريب إلى الفطرة . ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائياً وتصبح غرضاً فى ذاتها ! فيكتفى هنا بهذه اللمسة التى تمس واقعهم ، وحاجتهم إلى الولد ، وتصورهم لهذه الحاجة ، وانتفاء وجودها بالقياس إلى اللّه الغنى الذى يملك ما فى السماوات وما فى الأرض ، ليبلغ من نفوسهم موضع الاقتناع أو موضع الإفحام ، بلا جدل نظرى يضعف أثر اللمسة النفسية التى تستجيب لها الفطرة فى يسر وهوادة . ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون . ويسمى البرهان سلطاناً ، لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان (إن عندكم من سلطان بهذا) ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون . تقولون على اللّه ما لا تعلمون ؟ . وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق . فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على اللّه – سبحانه – ! إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة . فهو أولاً ينافى ما يستحقه اللّه من عباده من تنزيه وتعظيم ، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور . تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً . ولأنه ضلال فى تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ينشأ عنه ضلال فى تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات . فكلها فرع من تصور هذه العلاقة . وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم فى الوثنيات من سلطان ؛ وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان ، إنما نشأ عن تصور العلاقة بين اللّه تعالى وبناته الملائكة !

أو بين اللّه تعالى وعيسى بن مريم من صلة الأبوة والنبوة ، وحكاية الخطيئة ، ومنها نشأت مسألة الاعتراف ، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبى المسيح [بزعمهم . .] إلى نهاية السلسلة التى متى بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق فسدت الحلقات التالية كلها فى كل ضروب الحياة . فليست المسألة مجرد فساد فى التصور الاعتقادى ، ولكنه مسألة الحياة برمتها . وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء ، انتهى إلى تخلص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلصه من سلطان الدين نفسه ! إنما نشأ من هذه الحلقة . حلقة فساد تصور العلاقة بين اللّه وخلقه . وجر فى ذيوله شراً كثيراً تعانى البشرية كلها ويلاته فى التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء . ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام . . اللّه خالق أزلى باق ، لا يحتاج إلى الولد . والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هى علاقة الخالق بخلقه دون استثناء . وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابى . فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز ، ومن حاد عنها ضل وخسر . . الناس فى هذا كلهم سواء . وكلهم مرجعهم إلى اللّه . وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً . ولكل نفس ما عملت . ولا يظلم ربك أحداً . عقيدة بسيطة واضحة ، لا تدع مجالاً لتأويل فاسد ، ولا تنحنى أو تنحرف بالقلب فى دروب ومنحنيات ، ولا فى سحب وضباب ! ومن ثم يقف الجميع سواء أمام اللّه وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها . وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين اللّه (قل:إن الذين يفترون على اللّه الكذب لا يفلحون) لا يفلحون أى فلاح . لا يفلحون فى شعب ولا طريق . لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الأخرى . والفلاح الحقيقى هو الذى ينشأ من مسايرة سنن اللّه الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ، ودفعها إلى الإمام . وليس هو مجرد الإنتاج المادى مع تحطم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية . فذلك فلاح ظاهرى موقوت ، منحرف عن خط الرقى الذى يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال (متاع فى الدنيا . ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) مجرد متاع واط . وهو متاع قصير الأمد . وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية فى الدار الآخرة . إنما يعقبه (العذاب الشديد) ثمرة للانحراف عن سنن اللّه الكونية المؤدية إلى المتاع العالى اللائق ببنى الإنسان .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللّه فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَىَّ وَلاَ تُنظِرُونِ{٧١} فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{٧٢} فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ{٧٣} ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ{٧٤} ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ{٧٥} فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ{٧٦} قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ{٧٧} قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء

فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ{٧٨} وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ{٧٩} فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىَ أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ{٨٠} فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ{٨١} وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ{٨٢} فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ{٨٣} وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ{٨٤} فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٨٥} وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{٨٦} وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{٨٧} وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{٨٨} قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ{٨٩} وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{٩٠} آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{٩١} فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ{٩٢} وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{٩٣} فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{٩٤} وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{٩٥} إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ{٩٦} وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{٩٧} فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ{٩٨} وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ{٩٩} وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ{١٠٠} قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ{١٠١} فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{١٠٢} ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ) {١٠٣}

الآن يأخذ السياق فى جولة تفصيلية لهاتين الإشارتين ، فيسوق طرفاً من قصة نوح مع قومه ، وطرفاً من قصة موسى مع فرعون وملئه ، تتحقق فيهما عاقبة التكذيب ، والقضاء فى أمر الأمة بعد مجيء رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة . كذلك تجيء إشارة عابرة لقصة يونس الذى آمنت قريته بعد أن كاد يحل بها العذاب ، فرفع عنها ونجت منه بالإيمان . . وهى لمسة من ناحية أخرى تزين الإيمان للمكذبين ، لعلهم يتقون العذاب الذى ينذرون . ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وقوم موسى المهلكين . والمناسبة ظاهرة لإيراد هذا القصص بالنسبة لسياق السورة ، وبالنسبة لهذه المعانى القريبة قبلها . والقصص فى القرآن يجيء فى السياق ليؤدى وظيفة فيه ؛ ويتكرر فى المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق ، والحلقات التى تعرض منه فى موضع تفى بحاجة ذلك الموضع ، وقد يعرض غيرها من القصة الواحدة فى موضع آخر ، لأن هذا الموضع تناسبه حلقة أخرى من القصة . وسنرى فيما يعرض من قصتى نوح وموسى ويونس هنا وفى طريقة العرض مناسبة ذلك لموقف المشركين فى مكة من النبى - [ص] - والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها فى وجه الكثرة والقوة والسلطان . كما سنجد المناسبة بين القصص والتعقيبات التى تتخلله وتتلوه (واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه:يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات اللّه فعلى اللّه توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على اللّه ، وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) إن الحلقة التى تعرض هنا من قصة نوح ، هى الحلقة الأخيرة:حلقة التحدى الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل . ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ، ولا التفصيلات فى تلك الحلقة ، لأن الهدف هو إبراز التحدى والاستعانة باللّه وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة . لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة . ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة ، لأن هذا هو مقتضى السياق فى هذا الموضع (واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه:يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات اللّه فعلى اللّه توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم . ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . ثم اقضوا إلى ولا تنظرون) إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائى فيكم ودعوتى لكم ; وتذكيرى لكم بآيات اللّه . فأنتم وما تريدون . وأنا ماض فى طريقى لا أعتمد إلا على اللّه (فعلى اللّه توكلت) عليه وحده فهو حسبى دون النصراء والأولياء (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) وتدبروا مصادر

أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامنين (ثم ولا يكن أمركم عليكم غمة) بل ليكن الموقف واضحاً فى نفوسكم ، وما تعتزمونه مقرراً لا لبس فيه ولا غموض ، ولا تردد فيه ولا رجعة (ثم اقضوا إلى) فنفذوا ما اعتزمتم بشأنى وما دبرتم ، بعد الروية ووزن الأمور كلها والتصميم الذى لا تردد فيه (ولا تنظرون) ولا تمهلونى للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادى ، هو اعتمادى على الله وحده دون سواه . إنه التحدى الصريح المثير ، الذى لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته ، حتى ليغرى خصومه بنفسه ، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟ كان معه الإيمان . . القوة التى تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير . وكان وراءه الله الذى لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان ! إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذى يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدى غروراً ، وليس كذلك تهوراً ، وليس انتحاراً . إنما هو تحدى القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التى تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان . والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدى قوى الطاغوت فى زمانه هذا التحدى الواضح الصريح . فلنمض مع القصة لنرى نهايتها عن قريب (فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجرى إلا على الله . وأمرت أن أكون من المسلمين) فإن أعرضتم عنى وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية ، فينقض أجرى بتوليكم (إن أجرى إلا على الله) ولن يزحزحنى هذا عن عقيدتى ، فقد أمرت أن أسلم نفسى كلها لله (وأمرت أن أكون من المسلمين) فماذا كان ؟ (فكذبوه . فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف . وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا)هكذا باختصار . نجاته هو ومن معه فى الفلك – وهم المؤمنون . واستخلافهم فى الأرض على قلتهم . وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) لينظر من ينظر (عاقبة المنذرين) المكذبين وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين . ويجعل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه ، لأن نوحاً والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدى للكثرة الكافرة . فلم تكن النتيجة مجرد هلاك هذه الكثرة ، بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار ؛ واستخلافها فى الأرض ، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها ، وتأدية الدور الرئيسى فترة من الزمان . وفى اختصار وإجمال يشير السياق إلى الرسل بعد نوح ، وما جاءوا به من البينات والخوارق وكيف تلقاها المكذبون الضالون (ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين) فهؤلاء الرسل جاءوا قومهم بالبينات . والنص يقول:إنهم ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل . . وهذا يحتمل أنهم بعد مجىء الآيات ظلوا يكذبون كما كانوا قبلها يكذبون . فلم تحولهم الآيات عن عنادهم . كما يحتمل أن المكذبين جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم ، لأنهم ذوو طبيعة واحدة . فهؤلاء ما كان يمكن أن يؤمنوا بما كذب به أسلاف لهم ، أو بما كذبوا هم به فى أشخاص هؤلاء الأسلاف ! فهم منهم ، طبيعتهم واحدة ، وموقفهم تجاه البينات واحد . لا يفتحون لها قلوبهم ، ولا يتدبرونها بعقولهم . وهم معتدون متجاوزون حد الاعتدال والاستقامة على طريق الهدى ، ذلك أنهم يعطلون مداركهم التى أعطاها الله لهم ليتدبروا بها ويتبينوا . وبمثل هذا التعطيل ، تغلق قلوبهم وتوصد منافذها (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) حسب سنة الله القديمة فى أن القلب الذى يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر ، فلا يعود صالحاً للتلقى والاستقبال . . لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء . فإنما هى السنة تتحقق مقتضياتها فى جميع الأحوال .

فأما قصة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، على نطاق أوسع مما فى قصة نوح ، ملماً بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين فى مكة من الرسول ﷺ وموقف القلة المؤمنة التى معه . وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى ، مقسمة إلى خمسة مواقف ، يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى هذه السورة على النحو الذى عرضت به . . وهذه المواقف الخمسة تتتابع فى السياق على هذا النحو: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا:إن هذا لسحر مبين . قال موسى:أتقولون للحق لما جاءكم ، أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون . قالوا: أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين) والآيات التى بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هى الآيات التسع المذكورة فى سورة الأعراف . ولكنها لا تذكر هنا ولا تفصل لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال فى هذا الموضع يغنى . والمهم هو تلقى فرعون وملئه لآيات الله (فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين) (فلما جاءهم الحق من عندنا) بهذا التحديد (من عندنا). . ليصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هذا الحق الصادر من عند الله: (قالوا:إن هذا لسحر مبين) بهذا التوكيد المتبجح الذى لا يستند مع هذا إلى دليل (إن هذا لسحر مبين) كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون فى جميع العصور ! فهكذا قال مشركو قريش ، كما حكى عنهم فى مطلع السورة ، على تباعد الزمان والمكان ، وعلى بعد ما بين معجزات موسى ومعجزة

القرآن ! (قال موسى:أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون) وقد جذف من استنكار موسى الأول ما دل عليه الثاني . فكأنه قال لهم:أتقولون للحق لما جاءكم:هذا سحر ؟ أسحر هذا ؟ وفى السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر ، وفى السؤال الثانى تعجيب من أن يقول أحد عن هذا إنه سحر . فالسحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق ؛ ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس . وما كان الساحرون ليؤدوا عملاً يستهدف مثل هذه الأغراض ، ويحقق مثل هذا الاتجاه ؛ وما كانوا ليفلحوا وكل عملهم تخييل وتزييف . وهنا يكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التي تصدهم عن التسليم بآيات الله (قالوا:أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين) وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسى والاقتصادى . وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة . إنها هي هي العلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى الله رب العالمين ! وما كان رجال من أذكياء قريش مثلاً ليخطئوا إدراك ما فى رسالة محمد ﷺ من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من تهافت وفساد . ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على ما فى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد . كما خشى الملأ من قوم فرعون على سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متبجحين (وما نحن لك بمؤمنين !) وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر ، وأرادوا – فى أغلب الظن – أن يغرقوا الجماهير بها ، بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ، ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً . وبذلك ينتهى الخطر الذى يخشونه على معتقداتهم الموروثة ، وعلى سلطانهم فى الأرض ، وهو الأساس . . ونرجح أن هذه كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة ، بعدما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقى الذى يتوقعونه (وقال فرعون:ائتونى بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لهم موسى:ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى:ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ونلاحظ هنا اختصاراً فى موقف المباراة ، لأن نهايته هى المقصودة . وفى قولة موسى) :ما جئتم به السحر). . رد على تهمة السحر التى وجهت إليه . فالسحر هو هذا الذى يصنعه هؤلاء ، لأنه ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هدف له إلا اللعب بالعقول ، لا تصحبه دعوة ، ولا تقوم عليه حركة . فهذا هو السحر لا آيات الله التى جاءهم بها حقاً من عند الله . . وفى قوله (إن الله سيبطله). تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) الذين يضللون الناس بالسحر ، أو الملأ الذين جاءوا بالسحرة بنية الفساد والإبقاء على الضلال وقد كان . . وبطل السحر وعلا الحق . . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال . ويسدل الستار هنا ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم . ! وهذا إحدى عبر القصة المقصودة (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . وإن فرعون لعال فى الأرض . وإنه لمن المسرفين . وقال موسى:يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا:على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين . وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين) ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بنى إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار ، لا مجموعة الشعب الإسرائيلى . وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى ، خوفاً من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوى المصالح عند أصحاب ، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل . وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت ، كما كان مسرفاً فى الطغيان ، لا يقف عند حد ، ولا يتحرج من إجراء قاس . وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف ، ويطمئن القلوب ، ويثبتها على الحق الذى تنحاز إليه (وقال موسى:يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه . وعنصر القوة الذى يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغى فإذا هى أقوى وأثبت . وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام . وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك . . مقتضى الاعتقاد فى الله ، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد . . واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم (فقالوا:على الله توكلنا) ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء(ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) والدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يمكن القوم الظالمين منهم ، فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون ! ويكون هذا استدراجاً لهم من الله وفتنة ليلجوا فى ضلالهم . فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين . والآية الثانية أصرح فى النتيجة المطلوبة (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) ودعاؤهم الله ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين ، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين ، لا ينافى الاتكال على الله والتقوى به . بل هو أدل

على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى اللّه . والمؤمن لا يتمنى البلاء ، ولكن يثبت عند اللقاء . وعقب هذا التميز ، وفى فترة الانتظار بعد الجولة الأولى ، وإيمان من آمن بموسى ، أوحى اللّه إليه وإلى هارون أن يتخذا لبنى إسرائيل بيوتاً خاصة بهم ، وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعداداً للرحيل من مصر فى الوقت المختار ؛ وكلفهم تطهير بيوتهم ، وتزكية نفوسهم , والاستبشار بنصر اللّه (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين) وتلك هى التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية , ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة ، تنبئ بأن العقيدة هى السلاح الأول فى المعركة ، وأن الأداة الحربية فى يد الجندى الخائر العقيدة لا تساوى شيئاً كثيراً فى ساعة الشدة . وهذه التجربة التى يعرضها اللّه على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ، ليست خاصة ببنى إسرائيل ، فهى تجربة إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين فى المجتمع الجاهلى ، وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت ، وفسد الناس ، وانتنت البيئة - وكذلك كان الحال على عهد فرعون فى هذه الفترة - وهنا يرشدهم اللّه إلى أمور :

اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها - ما أمكن فى ذلك - وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها ، لتطهرها وتزكيها ، وتدربها وتنظمها ، حتى يأتى وعد اللّه لها .

اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد . تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلى ؛ وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح ؛ وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم فى جو العبادة الطهور .

واتجه موسى - عليه السلام - إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير , وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجى لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه , الذين يملكون المال والزينة ، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين ، فتنتهى إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، وإلى الضلال . . اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال , وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب اللّه الدعاء: (وقال موسى:ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال:قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا) ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك ، وإما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الآخرين . وإما بالقوة التى يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم . ووجود النعمة فى أيدى المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التى لا يبلغ من يقينها باللّه أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل اللّه فى الدنيا والآخرة . وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود فى عامة الناس (قال:قد أجيبت دعوتكما) كتبت لها الإجابة وقضى الأمر (فاستقيما) فى طريقكما وعلى هداكما حتى يأتى الأجل (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) فيخبطوا على غير علم ، ويترددوا فى الخطط والتدبيرات ، ويقلقوا على المصير ، ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون فى الطريق الهادى أم هم ضلوا السبيل . والمشهد التالى هو مشهد التنفيذ (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال:آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير فى قصة التحدى والتكذيب . والسياق يعرضه مختصراً مجملاً ، لأن الغرض من سياقة هذه الحلقة من القصة فى هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة . بيان رعاية اللّه وحمايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه , الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التى لا ينفع بعدها ندم ولا توبة ، فهنا يأتى القصص ليصدق ذلك الوعيد (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر) بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا . ولهذا الإسناد فى هذا الموضع دلالته (فأتبعهم فرعون وجنوده) لا اهتداء وإيماناً ، ولا دفاعاً مشروعاً . ولكن (بغياً وعدواً) وتجاوزاً للحد وطغياناً ومن مشهد البغى والعدو مباشرة إلى مشهد الغرق فى ومضة (حتى إذا أدركه الغرق) وعاين الموت ، ولم يعد يملك نجاة (قال:آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) لقد سقطت عن فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى . . كل أرديته التى تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى . فهو لا يكتفى بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد فى استسلام (وأنا من المسلمين) المسلمين ! (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟!) آلآن حيث لا اختيار ولا فرار ؟ آلآن وقد سبق العصيان

والاستكبار ؟ آلآن ؟! (فاليوم ننجيك ببدنك) لا تأكله الأسماك ، ولا يذهب منكراً مع التيار لا يعرف للناس . ذلك ليدرك من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك (لتكون لمن خلفك آية) يتعظون بها ويعتبرون ، ويرون عاقبة التصدى لقوة الله ووعيده بالتكذيب (وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) لا يوجهون إليها قلوبهم وعقولهم ، ولا يتدبرونها فى الآفاق وفى أنفسهم . ويسدل الستار على المشهد النهائى فى المأساة . مأساة البغى والفساد والتحدى والعصيان . . ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بنى إسرائيل بعدها ، تستغرق ما حدث فى أجيال (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ، ورزقناهم من الطيبات ، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) والمبوأ هو مكان الإقامة الأمين . وإضافته إلى الصدق تزيده أماناً وثباتاً واستقراراً كثبات الصدق الذى لا يضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء . ولقد طاب المقام فترة لبنى إسرائيل بعد تجارب طويلة ، لا يذكرها السياق هنا لأنها ليست من مقاصده ، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال ، حتى فسقوا عن أمر الله فحرمت عليهم . والسياق لا يذكر هنا إلا اختلافهم بعد وفاق . اختلافهم فى دينهم ودنياهم ، لا على جهل ولكن بعد أن جاءهم العلم ، وبسبب هذا العلم ، واستخدامه فى التأويلات الباطلة . ولما كان المقام هنا مقام نصرة الإيمان وخذلان الطغيان ، فإن السياق لا يطيل فى عرض ما وقع بعد ذلك من بنى إسرائيل ، ولا يفصل خلافهم بعد ما جاءهم العلم . ولكن يطوى هذه الصفحة ، ويكلها بما فيها لله فى يوم القيامة (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيبقى للقصة جلالها ، ويظل للمشهد الأخير تأثيره . . وهكذا ندرك لماذا يساق القصص القرآنى ، وكيف يساق فى كل موضع من مواضعه . فليس هو مجرد حكايات تروى ، ولكنه لمسات وإيحاءات مقدرة تقديراً . بعد ذلك يجىء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطاباً إلى الرسول ﷺ تثبيتاً بما حدث للرسل قبله ، وبياناً لعلة تكذيب قومه له ، أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبينات ، إنما هى سنة الله فى المكذبين من قبلهم ، وسنة الله فى خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال . . وفى الطريق يلم إلمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ، فرد عنهم . لعل فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان . . وينتهى بالخلاصة المستفادة من ذلك القصص كله . أن سنة الله التى مضت فى الأولين ماضية فى الآخرين:عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلاص للرسل ومن معهم من المؤمنين . حقاً كتبه الله على نفسه . وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد: لقد كان آخر الحديث عن بنى إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ، يقرأونها فى كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ إن كان فى شك مما أنزل إليه ، من هذا القصص أو غيره ، فليسأل الذين يقرأون الكتاب من قبله . فلديهم عنه علم ، مما يقرأون(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) ولكن الرسول ﷺ لم يكن فى شك مما أنزل الله إليه . أو كما روى عنه ﷺ " لا أشك ولا أسأل " . ففيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان فى شك . والتعقيب عليه: (لقد جاءك الحق من ربك) وفى هذا ما يكفيه لليقين ؟ ولكن هذا التوجيه يشى بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه فى مكة بعد حادث الإسراء ،وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت خديجة وأبى طالب ، واشتداد الأذى على رسول الله [ص] ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريباً فى مكة بسبب موقف قريش العنيد . . وكل هذه ملابسات تلقى ظلالها على قلب رسول الله ﷺفيسرى عنه ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى .ثم إنه تعريض بالشاكين الممترين المكذبين (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) وهذا التعريض يترك الفرصة لمن يريد منهم أن يرجع ليرجع ؛ لأنه إذا كان الرسول ﷺ مأذوناً فى أن يسأل إن كان فى شك ، ثم هو لا يسأل ولا يشك ، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق . وفى هذا إيحاء للآخرين ألا يترددوا ، وألا يكونوا (من الممترين) وبعد فإذا كان ما جاء إلى الرسول ﷺ هو الحق الذى لا مرية فيه ، فما تعليل إصرار قوم على التكذيب ولجاجهم فيه ؟ تعليله أن كلمة الله وسنته قد اقتضت أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه ، ومن يعطل مداركه لا ينتفع بوظيفتها ، فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبينات ، لأنه لا يفيد شيئاً من الآيات والبينات . وعندئذ تكون كلمة الله وسنته قد حقت عليهم وتحققت فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه لم يجىء عن اختيار . ولم تعد هنالك فرصة لتحقيق مدلوله فى الحياة . وعند هذا الموقف الذى تظهر فيه حتمية سنن الله العامة ، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة ، متى تعرض الإنسان لها باختياره ، تفتح نافذة مضيئة بآخر شعاع من أشعة الأمل فى النجاة . ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبيل وقوع العذاب (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين) ولكن القرى لم تؤمن . إنما آمنت منها قلة ، فكانت الصفة الغالبة هى صفة عدم الإيمان . . ذلك فيما عدا قرية واحدة – والقرية هى القوم ، والتسمية هكذا

إيذان بأن الرسالات كانت فى قرى الحضر ولم تكن فى محلات البدو – ولا يفصل السياق هنا قصة يونس وقومه ، إنما يشير إلى خاتمتها هذه الإشارة ؛ لأن الخاتمة وحدها هى المقصودة هنا . فلا نزيدها نحن تفصيلاً . وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخز يتهددهم ، فلما آمنوا فى اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل . ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه . . حسبنا هذا لندرك أمرين هامين:

أولهما:الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . وهو الغرض المباشر من سياقة القصة هذا المساق . .

وثانيهما:أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب ، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى . بل مضت ونفذت . لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجىء . فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول . فلا جبرية إذن فى تصرفات الناس ، ولكن الجبرية فى ترتيب آثارها عليها .

ومن ثم ترد القاعدة الكلية فى الكفر والإيمان (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون)

ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشرى خلقة أخرى ، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً . أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفراده إلى الإيمان . ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه ، حتى لا تكون لهم إرادة فى اختياره . ولكن حكمة الخالق التى قد ندرك بعض مراميها وقد لا ندرك ، دون أن ينفى عدم إدراكنا لها وجودها . هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشرى باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال . ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك . وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك ، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى فى الكون والنفس وما يجىء به الرسل من آيات وبينات ، فإنه يؤمن ويهتدى بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص . وعلى العكس حين يعطل مواهبه ويغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه ، ويستغلق عقله ، وينتهى بذلك إلى التكذيب أو الجحود ، فإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء . . فالإيمان إذن متروك للاختيار . لا يكره الرسول عليه أحداً . لأنه لا مجال للإكراه فى مشاعر القلب وتوجهات الضمير (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟)وهو سؤال للإنكار ، فإن هذا الإكراه لا يكون (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) وفق سنته الماضية التى بيناها . فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت فى الطريق الآخر الذى لا يؤدى إليه . لا أنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تمنع عنه ، فهذا ليس المقصود بالنص . بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنته فى الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه . فلا شىء يتم وقوعه إلا بقدر خاص به . إنما الناس يسيرون فى الطريق . فيقدر الله لهم عاقبة الطريق ، ويوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا فى الله ليهتدوا . . ويدل على هذا عقب الآية (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر ، يجعل الرجس عليهم . والرجس أبشع الدنس الروحى ، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر ، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران . ويزيد الأمر إيضاحاً بأن الآيات والنذر لا تغنى عن الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم لا يتدبرونها وهى معروضة أمامهم فى السماوات والأرض (قل:انظروا ماذا فى السماوات والأرض . وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وسواء كان عقب الآية استفهاماً أو تقريراً . فمؤداه واحد . فإن ما فى السماوات والأرض حافل بالآيات ؛ ولكن الآيات والنذر لا تفيد الذين لا يؤمنون ، لأنهم من قبل لم يلقوا بالا إليها ، ولم يتدبروها . (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وماذا تجدى الآيات والنذر إذا استغلقت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقى فى الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنسانى بجملته عن هذا الوجود ، فلم يسمع إيقاعات حمده وتسبيحه ؟! ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما فى السماوات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآنى لاستحياء القلب الإنسانى ؛ لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب . ولكن أولئك المكذبين من الجاهليين العرب – وأمثالهم – لا يتدبرون ولا يستجيبون . . فماذا ينتظرون ؟ إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المكذبين معروفة ، وليس لهم أن يتوقعوا من سنة الله أن تتخلف . وقد يُنظرهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستئصال ، ولكن الذين يصرون على التكذيب لا بد لهم من النكال (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟) (

قل:فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) وهو التهديد الذى ينهى الجدل ، ولكنه يخلع القلوب . ويختم هذا المقطع من السياق بالنتيجة الأخيرة لكل رسالة ولكل تكذيب ، وبالعبرة الأخيرة من ذلك القصص وذلك التعقيب (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا . كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين) إنها الكلمة التى كتبها الله على نفسه:أن تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر ، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب . .

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ{١٠٤} وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٠٥} وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ{١٠٦} وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{١٠٧} قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{١٠٨} وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) {١٠٩}

هذه خاتمة السورة ، وخاتمة المطاف لتلك الجولات فى شتى الآفاق ، تلك الجولات التى نحس أننا عائدون منها بعد سياحات طويلة فى آفاق الكون ، وجوانب النفس ، وعوالم الفكر والشعور والتأملات . عائدون منها فى مثل الإجهاد من طول التطواف ، وضخامة الجنى ، وامتلاء الوطاب ! هذه خاتمة السورة التى تضمنت تلك الجولات حول العقيدة فى مسائلها الرئيسية الكبيرة:توحيد الربوبية والقوامة والحاكمية ، ونفى الشركاء والشفعاء ، ورجعة الأمر كله إلى الله ، وسننه المقدرة التى لا يملك أحد تحويلها ولا تبديلها . والوحى وصدقه ، والحق الخالص الذى جاء به . والبعث واليوم الآخر والقسط فى الجزاء . هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التى دار حولها سياق السورة كله ، وسيقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها . ها هى ذى كلها تلخص فى هذه الخاتمة ، ويكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس إعلاناً عاماً ، وأن يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة:أنه ماض فى خطته ، مستقيم على طريقته ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

(قل:يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين) قل:يا أيها الناس جميعاً ، وإن كان الذين يتلقون الخطاب إذ ذاك هم مشركى قريش ، إن كنتم فى شك من أن دينى الذى أدعوكم إليه هو الحق ، فإن هذا لا يحولنى عن يقينى ، ولا يجعلنى أعبد آلهتكم التى تعبدونها من دون الله (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) أعبد الله الذى يملك آجالكم وأعماركم . وإبراز هذه الصفة لله هنا له قيمته وله دلالته ، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم ، وانتهاء آجالهم إليه ، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التى لا تحيى ولا تميت (وأمرت أن أكون من المؤمنين) فأنا عند الأمر لا أتعداه . (وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين) وهنا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر ، كأن الرسول ﷺ يتلقاه فى مشهد حاضر للجميع . وهذا أقوى وأعمق تأثيراً (أقم وجهك للدين حنيفاً) متوجهاً إليه خالصاً له ، موقوفاً عليه (ولا تكونن من المشركين) زيادة فى توكيد معنى الاستقامة للدين ، ولمعنى أن يكون من المؤمنين ، عن طريق النهى المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك . فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر . فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحابى وعدله لا يلين (وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم) فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه ، والخير كذلك ، فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة . وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه . فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية (وهو الغفور الرحيم) الذى يغفر ما مضى متى وقعت التوبة ، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم . هذه خلاصة العقيدة كلها ، مما تضمنته السورة ، يكلف الرسول ﷺ أن يعلنهما للناس ، ويوجه إليه الخطاب بها كأنما على مشهد منهم . وهم هم المقصودون بها . إنما هو أسلوب من التوجيه الموحى المؤثر فى النفوس . ويقف رسول الله ﷺ بها فى وجه القوة والكثرة ؛ ووجه الرواسب الجاهلية ، ووجه التاريخ الموغل بالمشركين فى الشرك يعلنها فى قوة وفى صراحة وهو فى عدد قليل من المؤمنين فى مكة ، والقوة الظاهرة كلها للمشركين . ولكنها الدعوة وتكاليفها ، والحق وما ينبغى له من قوة ومن يقين ومن ثم يكون الإعلان الأخير للناس (قل:يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى

لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل) فهو الإعلان الأخير ، والكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الكاملة ، ولكل أن يختار لنفسه . فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها) وليس الرسول موكلا بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم ، وإلى قدر الله بهم فى النهاية والختام خطاب إلى الرسول ﷺ باتباع ما أمر به ، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) وهو الختام المناسب الذى يلتقى مع مطلع السورة ، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن فى التصوير والتنسيق . .

سورة هود

مكية و آياتها ١٢٣

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التى نزلت فيها ؛ وهى من أحرج الفترات وأشقها كما فى تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبى طالب وخديجة ؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرؤوا عليه فى حياة أبى طالب - وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته ، واستهزاء المشركين به ، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله - مع وحشة رسول الله ﷺ من خديجة - رضى الله عنها - فى الوقت الذى تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ؛ وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى ما كاد يدخل فى الإسلام أحد من مكة وما حولها . . وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية . . قال ابن إسحاق:ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها - وبهلك عمه أبى طالب - وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، ومنعة وناصرا على قومه - وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا . قال ابن إسحاق:فحدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، قال:لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب ، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى . ورسول الله ﷺ يقول لها:" لاتبكى يا بنية ، فإن الله مانع أباك " قال:ويقول بين ذلك:" ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " . وقال المقريزى فى إمتاع الأسماع:فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتهما وسماه "عام الحزن" وقال:" ما نالت قريش منى شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " لأنه لم يكن فى عشيرته وأعمامه حاميا له ولا ذابا عنه غيره . ففى هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها ، وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحمل طابع هذه الفترة ؛ وتحدث عن مدى تحدى قريش وتعديها . وآثار هذه الفترة وجوها وظلالها واضحة فى جو السورة وظلالها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله ﷺ والذين معه على الحق ؛ والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة فى المجتمع الجاهلى . وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها فى السورة فى سمات عدة نشير إلى بعض منها:

فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية فى التاريخ البشرى كله ، من لدن نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة:هى الدينونة لله وحده بلا شريك ، والعبودية له وحده بلا منازع ؛ والتلقى فى هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هى دار ابتلاء لا دار جزاء ؛ وأن الجزاء إنما يكون فى الآخرة ؛ وأن حرية الاختيار التى أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هى مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . .(أما مضمون هذا الكتاب الأساسى فهو:(ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير). . .

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق . . لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم). . (وإلى عاد أخاهم هودا قال:يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى ، أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . . ولا تتولوا مجرمين) وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال:يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب) (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال . يا قوم اعبدوا الله ما لكم

من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان , إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ)

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة . .

ومن ذلك عرض مواقف الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وهم يتلقون الإعراض والتكذيب , والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ، وفى نصر الله الذى لا شك آت ؛ ثم تصديق العواقب فى الدنيا – وفى الآخرة كذلك – لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم ، بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين:

ففى قصة نوح نجد هذا المشهد: (فقال الملأ الذين كفروا من قومه:ما نراك إلا بشرا مثلنا , وما نراك)اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . . قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم . ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكرون ? ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول:إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم:لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين . قالوا:يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال:إنما يأتيكم به الله – إن شاء – وما أنتم بمعجزين). . ثم يجىء مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفى قصة هود نجد هذا المشهد (قالوا:يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول:إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . قال:إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ,ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ). . ثم تجىء العاقبة (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود !).

وفى قصة صالح نجد هذا المشهد (قالوا:يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب . قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير). . ثم تجىء العاقبة بعد عقر الناقة والتكذيب: فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ,وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعدا لثمود ! . .

وفى قصة شعيب نجد هذا المشهد (قالوا:يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود . قالوا:يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال:يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل , سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب . . ثم تجىء الخاتمة:(ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود !). .

ومن ذلك التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله ﷺ إلى دلالته:والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ؛ وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ؛ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذى أرسلوا به . . وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه فى الوحى والرسالة .

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين)

وفى نهاية القصص الوارد فى السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ؛ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون:اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده ، وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون)

وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركى فى التوجيه القرآنى ؟ وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة فى كل مرحلة بالتوجيه المكافىء للموقف ؛ وهكذا نجد القصص فى القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية فى مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة , شأنه شأن بقية السورة التى يجىء فيها ؛ ونجده فى الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها ، متوافيا مع أهدافها ، مصدقا فى عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية .

فالآن نفصل هذه الإشارة المجملة:

فالقصص فيها هو جسم السورة . وهو إن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقاديه التى تستهدفها ؛ إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية فى التاريخ البشرى هو الهدف الواضح البارز .

لذلك نجد تركيب السورة يحتوى على ثلاثة قطاعات متميزة:

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة فى مقدمة السورة ويشغل حيزا محدودا .

والقطاع الثانى يتضمن حركة هذه الحقيقة فى التاريخ ويشغل معظم سياق السورة .

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة فى حيز كذلك محدود . .

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق فى تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التى يستهدفها سياق السورة كله ؛ وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق . وهى تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه

وهذه الحقائق الأساسية التى تستهدف السورة تقريرها هى:

أن ما جاء به النبى ﷺ وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله - سبحانه - وهى تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك . والتلقى فى هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك . والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة:

ففى مقدمة السورة تجىء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله ﷺ (ألر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير) (أم يقولون:افتراه ؟ قل:فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟) وفى قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ؛ وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) (ونادى نوح ربه فقال:رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال:يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) (وإلى عاد أخاهم هودا قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) (وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب) (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير) (وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا) وفى التعقيب ترد هذه الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفاصلة بين الناس على أساسها (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون) (ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون) وهكذا تلتقى قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة .

ولكى يدين الناس لله وحده بالربوبية ، فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه ، وتقرر كذلك أنهم فى قبضته فى هذه الدنيا ؛ وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير . . وتتوافى مقاطع السورة الثلاثة فى تقرير هذه الحقيقة كذلك .

فى المقدمة يجىء (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون)

وفى قصص الرسل تجىء أمثال هذه التعريفات (إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ). .

وفى التعقيب يجىء (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إن أخذه أليم شديد).

)وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير).

وفى سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية فى الضمائر ، وتثبيتها فى النفوس ، وتعميقها فى الكيان البشرى ، وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية ، مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات . . فى سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفى هذا المستوى يحتوى سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التى تلمس أوتار الكيان البشرى كلها فى عمق واستجاشة ، وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها . . يحتوى الكثير من الترغيب والترهيب . . الترغيب فى خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعى الدينونة لله وحده بلا شريك ، وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء . . والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة ؛ وبالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعى ، ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم فى الآخرة إلى جهنم ، التى يقودون لها أتباعهم فى الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع فى الدنيا ؛ ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى . وهذه نماذج من الترهيب والترغيب :(ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله . وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم

كبير . إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شيء قدير) (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون) (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ، فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود . واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود !)

. . .الخ . . . الخ . .

ويحتوى السياق ذلك القصص الطويل الذى يصدق ذلك الترغيب والترهيب فى حركة العقيدة على مدار التاريخ ؛ من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين – على النحو الذى سبق فى بعض المقتطفات – ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة ؛ ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه فى ثنايا هذا المشهد الكونى الفريد (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال:إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا:احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك – إلا من سبق عليه القول – ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال:اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه – وكان فى معزل – يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال:سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ! قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل:يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودى ، وقيل:بعدا للقوم الظالمين . .) . الخ . . . الخ . . . الخ . . .

ويحتوى بعض صور النفس البشرية فى مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ؛ فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب ، المتحدين للنذر فى استهتار . . يرفع لهم صور أنفسهم وهم فى مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم ؛ وفى الحسرات التى تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ؛ وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ؛ وفى البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن:ما يحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن:ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير)

ويحتوى شيئا من مشاهد القيامة ؛ وصور المكذبين فيها ؛ ومواجهتهم لربهم الذى كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله ؛ وما يجدونه يومئذ من خزى ؛ لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد:هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ! ألا لعنة الله عى الظالمين ! الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون .أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون).

ومن المؤثرات التى ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه واطلاعه على ما يخفى البشر من ذوات الصدور ؛ بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه ,ولا علمه المحيط ؛ ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعا ، وهم – الذين يكذبون – فى قبضته كسائر الخلائق ؛ من حيث لا يشعرون (إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شيء قدير . ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين)

ومن المؤثرات الموحية فى سياق السورة كذلك ، استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام ، على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة ، فى صراحة وفى صرامة ، وفى ثقة وطمأنينة ويقين . . وقد مر جانب من هذا الاستعراض فى المقتطفات السابقة ، والبقية ستأتى فى موضعها فى تفسير السورة . ومما لا شك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام ، ووحدة الحقيقة

التى يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ؛ ووحدة العبارات المحكية عنهم التى تتضمن هذه الحقيقة . . يحمل فى طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء . .

وحسبنا فى تقديم السورة هذه الإشارات المجملة حتى نلتقى بنصوص السورة مفصلة . .

. .والله المستعان . .

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ{١} أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ{٢} وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ{٣} إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٤} أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{٥} وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{٦} وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{٧} وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٨} وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ{٩} وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ{١٠} إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ{١١} فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{١٢} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{١٣} فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{١٤} مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ{١٥} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{١٦} أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ{١٧} وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ{١٨} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{١٩} أُوْلَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ{٢٠} أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{٢١} لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ{٢٢} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٢٣} مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ){٢٤}

هذا الدرس الأول من السورة يمثل المقدمة – التى يتوسط القصص بينها وبين التعقيب – وهى تتضمن عرض الحقائق الأساسية فى العقيدة الإسلامية:توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والاعتقاد فى البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب فى دار العمل والابتلاء . . مع تعريف الناس بربهم الحق ؛ وصفاته المؤثرة فى وجودهم وفى وجود الكون من حولهم ؛ وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاهما فى حياة البشرية . وتوكيد الدينونة لله فى الآخرة كالدينونة له سبحانه فى الحياة الدنيا . كذلك تتضمن هذه المقدمة بيانا لطبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ كما تتضمن تسلية وترويحا للرسول ﷺ فى وجه العناد والتكذيب ، والتحدى والمكابرة ، التى كان رسول الله ﷺ يواجهها فى تلك الفترة العصيبة فى حياة الدعوة بمكة ، كما أسلفنا فى التعريف بالسورة . مع تحدى المشركين بهذا القرآن الذى يكذبون به ، أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات – كما يزعمون أن هذا القرآن مفترى – وتثبيت الرسول ﷺ و الفئة المؤمنة معه بهذا التحدى من الله وبذلك العجز من المشركين ! ومع هذا التحدى تهديد قاصم للمكذبين بما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب الذى يستعجلون به ويكذبون . وهم الذين لا يطيقون أن تنزع منهم رحمة الله فى الدنيا ، ولا يصبرون على ابتلائه فيها وهو أيسر من عذاب الآخرة ! ثم يجسم هذا التهديد فى مشهد من مشاهد القيامة ؛ يتمثل فيه موقف المكذبين بهذا القرآن من أحزاب المشركين ؛ ويتبين فيه عجزهم وعجز أوليائهم عن إنقاذهم من العذاب الأليم ,المصحوب بالخزى والتشهير والتنديد والتأنيب . وفى الصفحة المقابلة من المشهد . . الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما

ينتظرهم من الثواب والنعيم والتكريم . . ومشهد مصور للفريقين – على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟). .

(آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى , ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم . وهو على كل شىء قدير . .)

إنها جملة الحقائق الاعتقاديه الأساسية:

إثبات الوحى والرسالة .

العبودية لله وحده بلا شريك .

جزاء الله فى الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة .

جزاء الله فى الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله عصاة وطائعين .

قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

ألف . لام . راء :مبتدأ ، خبره (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وهذا الكتاب المؤلف من مثل هذه الأحرف هو الذى يكذبون به . وهم عن شىء من مثله عاجزون ! (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء ، دقيقة الدلالة ، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة , وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب ، وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم . متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب ، ومنسقة ذات نظام واحد . ثم فصلت . فهى مقسمة وفق أغراضها ، مبوبة وفق موضوعاتها ، وكل منها له حيز بمقدار ما يقتضيه . أما من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله سبحانه ، وليس هو الرسول (من لدن حكيم خبير) يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة . . هكذا جاءت من لدنه ، على النحو الذى أنزل على الرسول ، لا تغيير فيها ولا تبديل . وماذا تضمنت ؟ إنه يذكر أمهات العقيدة وأصولها (أن لا تعبدوا إلا الله). . فهو توحيد الدينونة والعبودية والاتباع والطاعة (إننى لكم منه نذير وبشير) فهى الرسالة ، وما تضمنته من نذارة وبشارة (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فهى العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينونة (يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله). . فهو الجزاء للتائبين المستغفرين (وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) فهو الوعيد للمتولين (إلى الله مرجعكم) فهى الرجعة إلى الله فى الدنيا والآخرة (وهو على كل شىء قدير) فهى المقدرة المطلقة والسلطان الشامل . هذا هو الكتاب . أو هو آيات الكتاب . فهذه هى القضايا الهامة التى جاء ليقررها ويقيم عليها بناءه كله بعد تقريرها . وما كان لدين أن يقوم فى الأرض ، وأن يقيم نظاما للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد . فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام فى عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف ، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية – وهى الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية – فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة . وما من نظام اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى أو أخلاقى أو دولى ، يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة . وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقة التى أكرمهم بها الله ، إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية , ويتجرد منها العبيد فى كل صورة من الصور . وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ، على ألوهية الله – سبحانه – للكون ؛ وتصريف أموره فى عالم الأسباب والنواميس الكونية:إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ، الذى يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟ لقد كان الطواغيت المجرمون فى الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه فى حياة الناس ، ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله ، ويجعلونهم عبيدا لهم من دون الله . وكانت الرسالات

والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدى الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعى . . الله سبحانه . . والله - سبحانه - غنى عن العالمين . لا ينقص فى ملكه شيئا عصيان العصاة وطغيان الطغاة . ولايزيد فى ملكه شيئا طاعة الطائعين وعبادة العابدين . . ولكن البشر - هم أنفسهم -الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ، ويتحررونمن العبودية للعبيد . . ولما كان الله - سبحانه - يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة الله وحده . وليخرجوهم من عبادة العبيد . . لخيرهم هم أنفسهم . . والله غنى عن العالمين . إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذى يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله . ذلك النير المذل لكرامة الإنسان فى أية صورة قد كان !

والدينونة لله وحده تتمثل فى ربوبيته للناس وحده . والربوبية تعنى القوامة على البشر وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله ، لا من عند أحد سواه . وهذا ما يقرر مطلع هذه السورة الكريمة أنه موضوع كتاب الله وفحواه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير:ألا تعبدوا إلا الله) وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب فى لغتهم التى نزل بها كتاب الله الكريم . والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه ، وشعوره بالإثم ورغبته فى التوبة . والتوبة بعد ذلك هى الإقلاع الفعلى عن الذنب ، والأخذ فى مقابله فى أعمال الطاعة . ولا توبة بغير هذين الدليلين ، فهما الترجمة العملية للتوبة ، وبهما يتحقق وجودها الفعلى ، الذى ترجى معه المغفرة والقبول . . فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل فى الإسلام ، بينما هو لا يدين لله وحده ، ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه ؛ فلا قيمة لهذا الزعم الذى يكذبه واقع الدينونة لغير الله . . والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة ، وقوام التبليغ . وهما عنصرا الترغيب والترهيب ، اللذان علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوى العميق ! ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة ، بعد توحيد الدينونة لله ، وإثبات الرسالة من عنده . . الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة . . وهما بدء الطريق للعمل الصالح . والعمل الصالح ليس مجرد طيبة فى النفس وشعائر مفروضة تقام . إنما هو الإصلاح فى الأرض بكل معانى الإصلاح ، من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج . والجزاء المشروط (يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله) والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم فى هذه الحياة الدنيا . أما فى الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر . فلننظر فى المتاع الحسن فى هذه الحياة (ويؤت كل ذى فضل فضله) خصصها بعض المفسرين بجزاء الآخرة . وأرى أنها عامة فى الدنيا والآخرة ، على النحو الذى فسرنا به المتاع الحسن فى الدنيا ؛ وهو متحقق فى جميع الأحوال . وذو الفضل يلقى جزاءه فى اللحظة التى يبذل فيها الفضل . يجده رضى نفسيا وارتياحا شعوريا ,واتصالا بالله وهو يبذل الفضل عملا أو مالا متجها به إلى الله . أما جزاء الله له بعد ذلك فهو فضل من الله وسماحة فوق الجزاء (وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هو عذاب يوم القيامة . لا عذاب يوم بدر كما يقول بعض المفسرين . فاليوم الكبير حين يطلق هكذا ينصرف إلى اليوم الموعود . ويقوى هذا ما بعده (إلى الله مرجعكم) وإن كان المرجع إلى الله فى الدنيا والآخرة وفى كل لحظة وفى كل حالة . ولكن جرى التعبير القرآنى على أن المرجع هو الرجعة بعد الحياة الدنيا (وهو على كل شىء قدير) وهذه كذلك تقوى هذا المعنى ، لأن التلويح بالقدرة على كل شىء ، مناسب للبعث الذى كانوا يستبعدونه ويستصعبونه ! وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . . يمضى السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات ، عندما يقدمها لهم النذير البشير ، ويصور الوضع الحسى الذى يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له وهى إحناء رؤوسهم وثنى صدورهم للتخفى . ويكشف عن العبث فى تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم فى أخفى أوضاعهم ; وكل دابة فى الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها . كل فى كتاب مبين) والآيتان الكريمتان تستحضران مشهدا فريدا ترجف له القلوب حين تتدبره وتتصوره ! ويا لها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشرى حضور الله - سبحانه - وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله:(ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه عليم بذات الصدور) ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله ﷺ يسمعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم استخفاء من الله الذى كانوا يحسبون فى أعماقهم أنه قائل هذا الكلام . . وذلك كما ظهر منهم فى بعض الأحيان ! ولا يكمل السياق الآية حتى يبين عبث هذه الحركة ، والله ، الذى أنزل هذه الآيات , معهم حين يستخفون وحين

يبرزون . ويصور هذا المعنى – على الطريقة القرآنية – فى صورة مرهوبة ، وهم فى وضع خفى دقيق من أوضاعهم . حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم , والليل لهم ساتر ، وأغطيتهم لهم ساتر . ومعذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر . يعلم فى هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون). والله يعلم ما هو أخفى . وليست أغطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الإنسان يحس عادة فى مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد . فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التى قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أنه ليس هناك من عين تراه ! (إنه عليم بذات الصدور) عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التى لا تفارقها ، والتى تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه ، أو المالك ملكه . . فهى لشدة خفائها سميت ذات الصدور . ومع ذلك فالله بها عليم . . وإذن فما من شىء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكنة تذهب أو تضيع (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ؛ كل فى كتاب مبين) وهذه صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب . . هذه الدواب – وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة . ما من دابة من هذه الدواب التى تملأ وجه البسيطة ، وتكمن فى باطنها ، وتختفى فى دروبها ومساربها . ما من دابة من هذه الدواب التى لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء . . إلا وعند الله علمها . وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن . من أين تجىء وأين تذهب . . وكل منها . كل من أفرادها مقيد فى هذا العلم الدقيق . إنها صورة مفصلة للعلم الإلهى فى حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنسانى فلا يطيق . ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذى يعجز عن تصوره الخيال . وهذه درجة أخرى ، الخيال البشرى عنها أعجز إلا بإلهام من الله . . وقد أوجب الله – سبحانه – على نفسه مختارا أن يرزق هذا الحشد الهائل الذى يدب على هذه الأرض . فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعا ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع فى الأرض فى صورة من صوره . ساذجا خامة ، أو منتجا بالزرع ، أو مصنوعا ، أو مركبا . . إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده . حتى إن بعضها ليتناول رزقه دما حيا مهضوما ممثلا كالبعوضة والبرغوث !! وليس المقصود أن هناك رزقا فرديا مقدرا لا يأتى بالسعى ، ولا يتأخر بالقعود ، ولا يضيع بالسلبية والكسل ، كما يعتقد بعض الناس ! وإلا فأين الأسباب التى أمر الله بالأخذ بها ، وجعلها جزءا من نواميسه ؟ وأين حكمة إن لكل مخلوق رزقا . هذا حق . وهذا الرزق مذخور فى هذا الكون . مقدر من الله فى سننه التى ترتب النتاج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات . حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التى لا تحابى أحدا ، ولا تتخلف أو تحيد . إنما هو كسب طيب وكسب خبيث ، وكلاهما يحصل من عمل وجهد . إلا أنه يختلف فى النوع والوصف . وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذاك . ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا ؛ وبين المتاع الحسن الذى ذكر فى التبليغ الأول . والسياق القرآنى المحكم المتناسق لا تفوته هذه اللفتات الأسلوبية والموضوعية ، التى تشارك فى رسم الجو فى السياق ثم يمضى السياق فى تعريف البشر بربهم ، وإطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . فى خلق السماوات والأرض بنظام خاص فى أطوار أو آماد محكمة ؛ لحكمة كذلك خاصة . يبرز منها السياق هنا ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا . ولئن قلت:إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا:إن هذا إلا سحر مبين) وخلق السماوات والأرض فى ستة أيام تحدثنا عنه فى سورة يونس . . وهو يساق هنا للربط بين النظام الذى يقوم عليه الكون والنظام الذى تقوم عليه حياة الناس (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) والجديد هنا فى خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة: (وكان عرشه على الماء(وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أى إبرازهما إلى الوجود فى شكلهما الذى انتهيا إليه كان هناك الماء ؛ وكان عرش الله سبحانه على الماء . . أما كيف كان هذا الماء ، وأين كان ، وفى أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء . . فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئا على مدلول النص ، فى هذا الغيب الذى ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفى حدوده . وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقا من النظريات التى تسمى "العلمية " – حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق – فالنظريات "العلمية " قابلة دائما للانقلاب رأسا على عقب ، كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد ، وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذى قامت عليه النظرية الأولى . والنص القرآنى صادق بذاته ، اهتدى العلم إلى الحقيقة التى يقررها أم لم يهتد . وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية . فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة – وإن كانت دائما احتمالية وليست قطعية – أما النظرية العلمية فهى قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر ، وهى قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب . . ومن ثم لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هى على القرآن , فلها طريق غير طريق القرآن .

ومجال غير مجال القرآن . وتلمس موافقات من النظريات "العلمية " للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه ، وأنه من لدن حكيم خبير . هزيمة ناشئة من الفتنة" بالعلم" وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعي الذى لا يصدق ولا يوثق به إلا فى دائرته . فلينتبه إلى دبيب الهزيمة فى نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على "العلم" يخدم القرآن ويخدم العقيدة ، ويثبت الإيمان ! إن الإيمان الذى ينتظر كلمة العلم البشرى المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه ! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء . أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن . وقد تركها القرآن للعقل البشرى يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التى يصل إليها بتجاربه ، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة , وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة . كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم ، وأن يتحرر ، وأن يعيش فى سلام ونشاط . . ثم تركه بعد ذلك يعمل فى دائرته الخاصة . ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه . ولم يتعرض لذكر شىء من الحقائق العلمية إلا نادرا . مثل أن الماء أصل الحياة والعنصر المشترك فى جميع الأحياء . ومثل أن جميع الأحياء أزواج حتى النبات الذى يلقح من نفسه فهو يحتوى على خلايا التذكير والتأنيث . . . وأمثال هذه الحقائق . التى صرحت بها النصوص القرآنية .

(وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام – وكان عرشه على الماء – ليبلوكم أيكم أحسن عملا) خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . . وهنا فقرات كثيرة محذوفة يشير إليها ما بعدها فيغنى عنها . . خلقها فى هذا الأمد ، لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشرى , وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السماوات . . وهو سبحانه مسيطر على الكون كله . . (ليبلوكم أيكم أحسن عملا). . والسياق يظهر كأن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام – مع سيطرة الله سبحانه على مقاليده – كان من أجل ابتلاء الإنسان . ليعظم هذا الابتلاء ويشعر الناس بأهميتهم وبجدية ابتلائهم . ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة فى تكوين هذا الوجود , وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجؤون (ولئن قلت:إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا:إن هذا إلا سحر مبين). . فما أعجبها قولة ، وما أغربها ، وما أكذبها فى ظل هذا البيان الذى تقدمها ! و استعجال الكفار العذاب شأنهم فى التكذيب بالبعث ، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم فى مسألة العذاب الدنيوى ، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن:ما يحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها ، بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التى يطلبونها ثم يمضون هم فى التكذيب . ذلك أنها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس ، ولجيل واحد من هذه الأمة . والمعجزة كذلك لا يشهدها إلا هذا الجيل ، ولا تبقى لتشاهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن الجيل الذى شهدها أول مرة . فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات ، ولجميع الأقوام وجميع الأجيال , وكانت المعجزة التى صاحبتها معجزة غير مادية ، فهى قابلة للبقاء ، قابلة لأن تتدبرها أجيال وأجيال ، وتؤمن بها أجيال وأجيال ، ومن ثم اقتضت الحكمة ألا تؤخذ هذه الأمة بعذاب الاستئصال . وأن يقع العذاب على أفراد منها فى وقت معلوم . . وكذلك كان الحال فى الأمم الكتابية قبلها من اليهود والنصارى ، فلم يعم فيهم عذاب الاستئصال (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة . وإذا ما أبطأ فهى حكمة ورحمة . ليؤمن من يتهيأ للإيمان . وفى فترة التأجيل التى صرف الله العذاب فيها عن مشركى قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء . وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد فى الإسلام . . وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن . ولكن البشر القاصرين العجولين لا يعلمون .وبمناسبة استعجال العذاب يجول السياق جولة فى نفس هذا المخلوق الإنسانى العجيب ، الذى لا يثبت ولا يستقيم إلا بالإيمان (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن:ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات , أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة ، ويطغى عليه ما يلابسه ؛ فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلى . فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه . مع أنها كانت هبة من الله له . وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل فى الشدة ويصبر ويؤمل فى رحمة الله ويرجو فرجه ; ولا يقتصد فى فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حسابا (إلا الذين صبروا) صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، فإن كثيرا من الناس يصبرون على الشدة تجلدا وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور ، ولكن القلة هى التى تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر (وعملوا الصالحات) فى الحالين . فى الشدة بالاحتمال والصبر ، وفى النعمة بالشكر والبر (أولئك لهم مغفرة وأجر

كبير) بما صبروا على الضراء وبما شكروا فى السراء . إن الإيمان الجاد المتمثل فى العمل الصالح هو الذى يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر فى الشدة ؛ كما يعصمها من البطر الفاجر فى الرخاء . وهو الذى يقيم القلب البشرى على سواء فى البأساء والنعماء ؛ ويربطه بالله فى حاليه ، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء . ولا يتنفج ويتعالى عندما تغمره النعماء . . وكلا حالى المؤمن خير . وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله ﷺ . (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا:لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) ولعل هنا تحمل معنى الاستفهام . وهو ليس استفهاما خالصا ، إنما يتلبس به أن المتوقع من النفس البشرية أن تضيق صدرا بهذا الجهل ، وبهذا التعنت ، وبهذه الاقتراحات السخيفة التى تكشف عن بعد كامل عن إدراك طبيعة الرسالة ووظيفتها . فهل سيضيق صدرك - يا محمد - وهل سيحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبلغه لهم ، كى لا يقابلوه بما اعتادوا أن يقابلوا به نظائره فيما أخبرتهم من قبل ؟ كلا . لن تترك بعض ما يوحى إليك ولن يضيق به صدرك من قولهم هذا (إنما أنت نذير) فواجبك كله أن تنذرهم - وأبرز صفة النذير هنا لأن المقام يستوجبها مع أمثال هؤلاء - فأد واجبك: (والله على كل شىء وكيل). فهو الموكل بهم ، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون . ولست أنت موكلا بكفرهم أو إيمانهم . إنما أنت نذير . وهذه الآية تشى بجو تلك الفترة الحرجة فى تاريخ الدعوة ؛ وما كان يعتور صدر رسول الله ﷺ من الضيق . كما تشى بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة ، فى الوقت الذى هلك فيه العشير والنصير ؛ وغمرت الوحشة قلب رسول الله ﷺ وغشى الكرب على قلوب المؤمنين القلائل فى هذه الجاهلية المحيطة . ومن بين كلمات الآية نحس جوا مكروبا تتنزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة ، وتسكب فيه الطمأنينة ، وتريح الأعصاب والقلوب ! وقولة أخرى يقولونها . وقد قالوها مرارا:إن هذا القرآن مفترى . فتحداهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون فى هذا الافتراء (أم يقولون افتراه ؟ قل:فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة فى سورة يونس ، فما التحدى بعد ذلك بعشر سور ؟ قال المفسرون القدامى:إن التحدى كان على الترتيب:بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور . وحقيقة إن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور . فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته . وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز . ولقد حاول السيد رشيد رضا فى تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة ، فأجهد نفسه طويلا - رحمة الله عليه - ليقول:إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرا . فتحداهم بعشر . . لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظرا لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج المتحدى إلى عشر سور كالتى ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى . . الخ ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة . فيقول مرة:ائتوا بمثل هذا القرآن . أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيب زمنى . لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هومقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة . فهو الذى يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التى لم يذكرها لنا القرآن (وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ادعوا شركاءكم وفصحاءكم وبلغاءكم وشعراءكم وجنكم وإنسكم . وأتوا بعشر سور فقط مفتريات ، إن كنتم صادقين فى أن هذا القرآن مفترى من دون الله ! (فإن لم يستجيبوا لكم) ولم يقدروا على افتراء عشر سور ، لأنهم عاجزون عن أن يقدموا لكم عونا فى هذه المهمة المتعذرة ! وعجزتم أنتم بطبيعة الحال ، لأنكم لم تدعوهم لتستعينوا بهم إلا بعد عجزكم ! (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) فهو وحده القادر على أن ينزله ، وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا النحو الذى نزل به ، متضمنا ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم فى نفوسهم وفى معاشهم . . . وأن لا إله إلا هو . . فهذا مستفاد كذلك من عجز آلهتكم عن تلبيتكم فى تأليف عشر سور كالتى أنزلها الله . فلا بد أن يكون هناك إله واحد هو القادر وحده على تنزيل هذا القرآن . ويعقب على هذا التقرير الذى لا مفر من الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جوابا واحدا عند غير المكابرين المتعنتين . سؤال (فهل أنتم مسلمون ؟) بعد هذا التحدى والعجز ودلالته التى لا سبيل إلى مواجهتها بغير

التسليم ؟ ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون !!! لقد كان الحق واضحا ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ، وتعبيد للناس كى لا يستجيبوا لداعى الحرية والكرامة والعدل والعزة . . داعى لا إله إلا الله . . لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم فيقول (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئک الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون)

إن للجهد فى هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها , فإنه يلقى نتيجة عمله فى هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد – فى أجل محدود – ولكن ليس له فى الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئا ، ولم يحسب لها حسابا , فكل عمل الدنيا يلقاه فى الدنيا . ولكنه باطل فى الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط [من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض] وهى صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم فى الدنيا وهو مؤد إلى الهلاک ! ونحن نشهد فى هذه الأرض أفرادا اليوم وشعوبا وأمما تعمل لهذه الدنيا ، وتنال جزاءها فيها . ولدنياها زينة , ولدنياها انتفاخ ! فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل:لماذا ؟ لأن هذه هى سنة الله فى هذه الأرض (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه – ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله فى الكسب والمتاع – فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئا ، وينالوا كذلک متاع الحياة الأخرى . بعد ذلک يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله ﷺ وما جاءه من الحق ؛ وإلى هذا القرآن الذى يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛ كما يشهد له كتاب موسى من قبله . يلتفت السياق إلى هذا الحشد من الأدلة المحيطة بالنبى ﷺ وبدعوته ورسالته . ذلک ليثبت بهذه الالتفاتة قلب رسول الله ﷺ والقلة المؤمنة معه . ثم ليوعد الذين يكفرون به من أحزاب المشركين بالنار ؛ وليعرضهم فى مشهد من مشاهد العذاب يوم القيامة يجلله الخزى والعار جزاء العتو والاستكبار ؛ وليقرر أن هؤلاء المتبجحين بالباطل ، المعاندين فى الحق أعجز من أن يفلتوا من عذاب الله ؛ وأعجز من أن يجدوا لهم من دون الله أولياء . .(لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون). . وليعقد بينهم وبين المؤمنين موازنة فى صورة حسية مشهودة ؛ تصور الفارق البعيد بين الفريقين فى طبيعتهما ، وفى موقفهما وحالهما فى الدنيا وفى الآخرة سواء (أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئک يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تک فى مرية منه ، إنه الحق من ربک ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؛ أولئک يعرضون على ربهم ؛ ويقول الأشهاد:هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئک لم يكونوا معجزين فى الأرض , وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب . ما كانوا يستطيعون السمع , وما كانوا يبصرون . أولئک الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئک أصحاب الجنة هم فيها خالدون) (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون) إن طول هذه الجملة ، وتنوع الإشارات والإيحاءات فيها ، وتنوع اللفتات والإيقاعات أيضا . . إن هذا كله يشى بما كانت تواجهه القلة المؤمنة ، فى تلک الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة ؛ ويصور لنا حاجة الموقف إلى هذه المعركة التقريرية الإيحائية ؛ كما يصور لنا طبيعة هذا القرآن الحركية ؛ وهو يواجه ذلک الواقع ويجاهده جهادا كبيرا (أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ? أولئک يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تک فى مرية منه ، إنه الحق من ربک ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) وفى قوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) وفى عائد هذه الضمائر فى(ربه) وفى (يتلوه) وفى (منه). . وأرجحها – كما يبدو لى – هو أن المقصود بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) هو رسول الله ﷺ وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به – وأن المقصود بقوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) أى ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته . وهو هذا القرآن الذى يشهد بذاته أنه وحى من الله لا يقدر عليه بشر . (ومن قبله -(أى من قبل هذا الشاهد وهو القرآن ؛ "كتاب موسى " يشهد كذلک بصدق النبى ﷺ سواء بما تضمنه من البشارة به ؛ أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده . والذى يرجح هذا عندى هو وحدة التعبير القرآنى فى السورة – فى تصوير ما بين الرسل الكرام وربهم ، من بينة يجدونها فى أنفسهم ، يستيقنون معها أن الله هو الذى يوحى إليهم , ويجدون بها ربهم فى قلوبهم وجودا مستيقنا واضحا لا يخالجهم معه شک ولا ريبة . فنوح – عليه السلام – يقول لقومه: يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم

لها كارهون ؟ . . وصالح عليه السلام يقول الكلمة ذاتها (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير) وشعيب عليه السلام يقولها كذلك (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا) فهو تعبير موحد عن حال واحدة للرسل الكرام مع ربهم ، تصور حقيقة ما يجدونه فى أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية فى نفوسهم ؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحى أيضا . . وهذا التوحيد فى التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصدا فى سياق السورة – كما أسلفنا فى التعريف بها – لإثبات أن شأن النبى ﷺ مع ربه ومع الوحى الذى تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله ؛ مما يبطل دعاوى المشركين المفتراة عليه ﷺ وكذلك لتثبيته هو والقلة المؤمنة معه على الحق الذى معهم ؛ فهو الحق الواحد الذى جاء به الرسل جميعا ، والذى أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعا . ويكون المعنى الكلى للآية: أفهذا النبى الذى تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه . . حيث يجد فى نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه – أو يتبع يقينه هذا – شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الربانى . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذى جاء إماما لقيادة بنى إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو يصدق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التى يقوم عليها دين الله كله . . يقول:أفمن كان هذا شأنه يكون موضعا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التى تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن فى مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات . . ثم يعرض مواقف الذين يؤمنون بهذا القرآن والذين يكفرون به من الأحزاب ، وما ينتظر هؤلاء من جزاء فى الآخرة . ويعرج على تثبيت الرسول ﷺ والذين يؤمنون بما معه من الحق ؛ فلا يقلقهم شأن المكذبين الكافرين ، وهم كثرة الناس فى ذلك الحين :(أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) وقد وجد بعض المفسرين إشكالا فى قوله تعالى (أولئك يؤمنون به) إذا كان المقصود بقوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) هو شخص رسول الله ﷺ كما أسلفنا . . فإن أولئك "تعنى جماعة يؤمنون بهذا الوحى وبتلك البينة . . ولا إشكال هناك . فالضمير فى قوله تعالى (أولئك يؤمنون به) يعود على "شاهد" وهو القرآن . وكذلك الضمير فى قوله تعالى (ومن قبله) فإنه يعود على القرآن كما أسلفنا . . فلا إشكال فى أن يقول (أولئك يؤمنون به) أى بهذا الشاهد أى بهذا القرآن – والرسول ﷺ هو أول من آمن بما أنزل إليه ، ثم تبعه المؤمنون: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . .) كما جاء فى آية البقرة . . والآية هنا تشير إلى رسول الله ﷺ وتدمج معه المؤمنين الذين آمنوا بما آمن به هو وبلغهم إياه . . وهو أمر مألوف فى التعبير القرآنى ، ولا إشكال فيه . (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وهو موعد لا يخلف ، والله سبحانه هو الذى قدره ودبره ! (فلا تك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون). وما شك رسول الله ﷺ فيما أوحى إليه ، ولا امترى – وهو على بينة من ربه – ولكن هذا التوجيه الربانى عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشى بما كان يخالج نفس رسول الله ﷺ من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين ، تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت . وكذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وكرب يحتاج إلى برد اليقين يتنزل عليهم من ربهم الرحيم . وما أحوج طلائع البعث الإسلامى ؛ وهى تواجه مثل تلك الحال فى كل مكان ؛ ويتآزر عليها الصد والإعراض ، والسخرية والاستهزاء ، والتعذيب والإيذاء ؛ والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية ؛ وتتضافر عليها كل قوى الجاهلية فى الأرض من محلية وعالمية ; وتسلط عليها أبشع ألوان الحرب وأنكدها ؛ ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها هذه الحرب ومن يطاردونها هذه المطاردة . . . ما أحوج هذه الطلائع إلى تدبر هذه الآية بكل فقرة فيها ، وبكل إشارة ، وبكل لمحة فيها وكل إيماءة ! ما أحوجها إلى اليقين الذى يحمله التوكيد الربانى الحكيم وما أحوجها إلى أن تجد فى نفوسها ظلالا لما كان يجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه من بينة من ربهم ، ومن رحمة لا يخطئونها ولا يشكون فيها لحظة ؛ ومن التزام بالمضى فى الطريق مهما تكن عقبات الطريق:

ثم يمضى السياق يواجه الذين يكفرون به ؛ ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله سبحانه وعلى رسوله ﷺ وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الكذب . سواء بقولهم:إن الله لم ينزل هذا الكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله . أو بدعواهم فى الربوبية الأرضية وهى من خصائص الألوهية . . يجمل النص هنا الإشارة لتشمل كل ما يوصف بأنه كذب على الله . هؤلاء يعرضون فى مشهد يوم القيامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد . وفى الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وما ينتظرهم من نعيم . ويضرب للفريقين مثلا:الأعمى والأصم والبصير والسميع (ومن أظلم ممن

افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد:هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ,وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟). إن افتراء الكذب فى ذاته جريمة نكراء ، وظلم للحقيقة ولمن يفترى عليه الكذب . فما بال حين يكون هذا الافتراء على الله ؟ (أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد:هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) إنه التشهير والتشنيع . بالإشارة (هؤلاء) (هؤلاء الذين كذبوا) وعلى من ؟ (على ربهم) لا على أحد آخر ! إن جو الفضيحة هو الذى يرتسم فى هذا المشهد ، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة (ألا لعنة الله على الظالمين) يقولها الأشهاد كذلك . والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون ، أو هم الناس أجمعون . فهو الخزى والتشهير – إذن – فى ساحة العرض الحاشدة ! أو هو قرار الله سبحانه فى شأنهم إلى جانب ذلك الخزى والتشهير على رؤوس الأشهاد (ألا لعنة الله على الظالمين) والظالمون هم المشركون . وهم الذين يفترون الكذب على ربهم ليصدوا عن سبيل الله (ويبغونها عوجا) فلا يريدون الاستقامة ولا الخطة المستقيمة ، إنما يريدونها عوجا والتواء وانحرافا . يريدون الطريق أو يريدون الحياة أويريدون الأمور . . كلها بمعنى . .) وهم بالآخرة هم كافرون)ويكرر(هم)مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها فى مقام التشهير . والذين يشركون بالله – سبحانه – وهم الظالمون – إنما يريدون الحياة كلها عوجا حين يعدلون عن استقامة الإسلام . وما تنتج الدينونة لغير الله – سبحانه – إلا العوج فى كل جانب من جوانب النفس ، وفى كل جانب من جوانب الحياة . (أولئك) البعداء المبعدون الملعونون (لم يكونوا معجزين فى الأرض) فلم يكن أمرهم معجزا لله ، ولو شاء لأخذهم بالعذاب فى الدنيا (وما كان لهم من دون الله من أولياء) ينصرونهم أو يمنعونهم من الله . إنما تركهم لعذاب الآخرة ، ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة (يضاعف لهم العذاب) فقد عاشوا معطلى المدارك مغلقى البصائر ؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) (أولئك الذين خسروا أنفسهم) وهى أفدح الخسارة ، فالذى يخسر نفسه لا يفيد شيئا مما كسب غيرها وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها فى الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التى تتمثل فى الارتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد . كما تتمثل فى الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع – مع المتاع بها – إلى ما هو أرقى وأسمى . وذلك حين كفروا بالآخرة ، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه . وخسروا أنفسهم فى الآخرة بهذا الخزى الذى ينالهم ، وبهذا العذاب الذى ينتظرهم (وضل عنهم ما كانوا يفترون) غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله . فقد تبدد وذهب وضاع (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) الذين لا تعدل خسارتهم خسارة . وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى . وفى الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) والإخبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم . . وهى تصور حال المؤمن مع ربه ,وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتى به ، وهدوء نفسه وسكون قلبه ، وأمنه واستقراره ورضاه (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟) صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع – والذى يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها ، وهى أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس – والفريق الثانى كالبصير يرى وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه (هل يستويان مثلا ؟) سؤال بعد الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررة (أفلا تذكرون) فالقضية فى وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكر . فهى بديهية لا تقتضى التفكير ، وتلك وظيفة التصوير الذى يغلب فى الأسلوب القرآنى فى التعبير . . أن ينقل القضايا التى تحتاج لجدل فكرى إلى بديهيات مقررة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٢٥} أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ{٢٦} فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ{٢٧} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ{٢٨} وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ{٢٩} وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{٣٠} وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ

الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِن الظَّالِمِينَ{٣١} قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٣٢} قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ{٣٣} وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{٣٤} أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ{٣٥} وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{٣٦} وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ{٣٧} وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ{٣٨} فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{٣٩} حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ{٤٠} وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{٤١} وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ{٤٢} قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ{٤٣} وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{٤٤} وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ{٤٥} قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ{٤٦} قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ{٤٧} قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{٤٨} تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ{٤٩}

القصص فى هذه السورة هو قوامها ؛ ولكنه لم يجىء فيها مستقلا ، إنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التى جاءت السورة لتقريرها . والقصص هنا مفصل بعض الشىء – وبخاصة قصة نوح والطوفان – وهو يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التى وردت فى مطلع السورة ، والتى يجىء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون ، وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ . ويتبع القصص فى هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم فى الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى . . ويشير إلى الخط التاريخى ، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالى بهذا الترتيب ، ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص فى السياق . وأوله فى التاريخ (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التى أرسل بها محمد ﷺ والتى تضمنها الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وهذه المقاربة فى ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسى الواحد مقصودة فى السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة ، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها . وذلك مع تقدير أن المحكى هنا هو معنى ما قاله نوح – عليه السلام – لا ألفاظه . وهو الأرجح . فنحن لا ندرى بأية لغة كان نوح يعبر (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه:إنى لكم نذير مبين) ولم يقل قال:إنى . . . لأن التعبير القرآنى يحيى المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية . وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة (إنى لكم نذير مبين) وهو أقوى فى تحديد هدف الرسالة وإبرازه فى وجدان السامعين . ومرة أخرى يبلور مضمون الرسالة فى حقيقة جديدة (ألا تعبدوا إلا الله) فهذا هو قوام الرسالة ، وقوام الإنذار . ولماذا ؟ (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار ، فى هذه الكلمات القصار واليوم ليس أليما . إنما هو مؤلم . والأليم – اسم مفعول أصله مألوم ! – إنما هم المألومون فى ذلك اليوم . ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا ، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم ، شاعر به ، فما بال من فيه ؟ (فقال الملأ الذين كفروا من قومه:ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) ذلك رد العلية المتكبرين . . الملأ . . كبار القوم المتصدرين . . وهو يكاد يكون رد الملأ من قريش:ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا – بادى الرأى – وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . الشبهات ذاتها ، والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاتها ، والاستقبال الغبى الجاهل المتعافى ! إنها الشبهة التى وقرت فى نفوس جهال البشر:أن الجنس البشرى أصغر من حمل رسالة الله ; فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق اخر . وهى شبهه جاهلة ، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذى استخلفه الله فى أرضه ، وهى وظيفة خطيرة ضخمة ، لا بد أن يكون الخالق قد أودع فى هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع فى جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيأون لحمل الرسالة ، باختيار الله

لهم ، وهو أعلم بما أودع فى كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس فى عمومه . وشبهة أخرى جاهلة كذلك . هى أنه إذا كان الله يختار رسولا ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء فى قومهم ، المتسلطين العالين ؟ وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنسانى ، والتى من أجلها استحق الخلافة فى الأرض بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته فى المختارين من صفوفه . وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة فى الأرض ، إنما هى فى صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقى ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها . . . إلى آخر صفات النبوة الكريمة . . وهى صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء ! ولكن الملأ من قوم نوح ، كالملأ من قوم كل نبى تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلا يدركون مبررا لاختصاص الرسل بالرسالة . وهى فى زعمهم لا تكون لبشر . فإن كانت فهى لأمثالهم من الوجهاء العالين فى الأرض ! (ما نراك إلا بشرا مثلنا) هذه واحدة . . أما الأخرى فأدهى (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى)!! وهم يسمون الفقراء من الناس (أراذل) كما ينظر الكبراء دائما إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان ! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا ؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التى تحرر الناس من العبودية للكبراء ، وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء . ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ؛ ولأنهم لا يخافون من العقيدة فى الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية فى شتى صورها . وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك . فرسالات التوحيد هى حركات التحرير الحقيقية للبشر فى كل طور وفى كل أرض . ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائما ، ويصدون عنها الجماهير ; ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتنفير (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) أى دون ترو ولا تفكير . . وهذه تهمة كذلك توجه دائما من الملأ العالين لجموع المؤمنين . . أنها لا تتروى ولا تفكر فى اتباع الدعوات . ومن ثم فهى متهمة فى اتباعها واندفاعها ، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها ، ولا أن يسلكوا طريقها . فإذا كان الأراذل يؤمنون ، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل ؛ ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون ! (وما نرى لكم علينا من فضل) يدمجون الداعى بمن تبعوه من الأراذل ! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان ما معكم خيرا وصوابا لاهتدينا إليه ، ولم تسبقونا أنتم إليه ! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطىء الذى تحدثنا عنه . قياس الفضل بالمال ، والفهم بالجاه ، والمعرفة بالسلطان . . فذو المال أفضل . وذو الجاه أفهم . وذو السلطان أعرف !!! هذه المفاهيم وتلك القيم التى تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها ، فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية ، وإلى تقاليد الوثنية فى صورة من صورها الكثيرة . وإن بدت فى ثوب من الحضارة المادية قشيب . وهى انتكاسة للبشرية من غير شك ، لأنها تصغر من القيم التى بها صار الإنسان إنسانا ، واستحق الخلافة فى الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية ! (بل نظنكم كاذبين) وهى التهمة الأخيرة يقذفون بها فى وجه الرسول وأتباعه . ولكنهم على طريقة طبقتهم . . "الأرستقراطية " . . يلقونها فى أسلوب التحفظ اللائق "بالأرستقراط ! " (بل نظنكم !) لأن اليقين الجازم فى القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة - بادى الرأى - التى يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون ! إنه النموذج المتكرر من عهد نوح ، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب ، المتعاظمة المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ !! ويتلقى نوح - عليه السلام - الاتهام والإعراض والاستكبار ، فى سماحة النبى وفى استعلائه وفى ثقته بالحق الذى جاء به ، واطمئنانه إلى ربه الذى أرسله ؛ وفى وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه فى شعوره . فلا يشتم كما شتموا ، ولا يتهم كما اتهموا ، ولا يدعى كما ادعوا ، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرا غير حقيقته ولا على رسالته شيئا غير طبيعتها (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ، وما أن بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم:عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول:إنى ملك ، ولاأقول للذين تزدرى أعينكم:لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين) (يا قوم) فى سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم . إنكم تعترضون فتقولون (ما نراك إلا بشرا مثلنا) فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربى , بين فى نفسى مستيقن فى شعورى . وهى خاصية لم توهبوها . وإن كان الله آتانى رحمة من عنده باختيارى للرسالة ، أو آتانى من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة - وهذه رحمة ولا شك عظيمة - مارأيكم رأيكم إن كانت هذه وتلك فخفيت عليكم خفاء عماية ، لأنكم غير متهيئين لإدراكها ، وغير مفتوحى البصائر لرؤيتها (أنلزمكموها ؟) إنه ما كان لى وما أنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها (وأنتم لها كارهون)!

وهكذا يتلطف نوح فى توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم ، والخصائص التى يغفلون عنها فى أمر الرسالة والاختيار لها:ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولا إلى الظواهر السطحية التى يقيسون بها . وفى الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم . مبدأ الاختيار فى العقيدة ، والاقتناع بالنظر والتدبر ، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء ! (ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون) يا قوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا ، وليس لى عند الناس إلا أن يؤمنوا . إننى لا أطلب مالا على الدعوة ، حتى أكون حفيا بالأثرياء غير حفى بالفقراء ; فالناس كلهم عندى سواء . . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء (إن أجرى إلا على الله) عليه وحده دون سواه (وما أنا بطارد الذين آمنوا) ونفهم من هذا الرد أنهم طلبوا أو لوحوا له بطردهم من حوله ، حتى يفكروا هم فى الإيمان به ، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد ! - لست بطاردهم ، فهذا لا يكون منى . لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لى إنهم ملاقوا ربهم . . (ولكنى أراكم قوما تجهلون) تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الناس فى ميزان الله . وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله (ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم . أفلا تذكرون ؟) فهناك الله . رب الفقراء والأغنياء . رب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقوم الناس بقيم أخرى . ويزنهم بميزان واحد . هو الإيمان . فهؤلاء المؤمنون فى حماية الله ورعايته . من يعصمنى من الله إن أنا أخللت بموازينه ، وبغيت على المؤمنين من عباده - وهم أكرم عليه - وأقررت القيم الأرضية الزائفة التى أرسلنى الله لأعدلها لا لأتبعها ؟ (أفلا تذكرون ؟). . وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة ؟ ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة . يقدمها لهم فى معرض التذكير ، ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدرى أمامهم القيم الظاهرية ، بتخليه عنها ، وتجرده منها . فمن شاء الرسالة كما هى ، بقيمها ، بدون زخرف ، بدون ادعاء ، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله (ولا أقول لكم عندى خزائن الله . .) فأدعى الثراء أو القدرة على الإثراء (ولا أعلم الغيب) فأدعى قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة (ولا أقول:إنى ملك) فأدعى صفة أعلى من صفة الإنسانية فى ظنكم لأرتفع فى أعينكم ، وأفضل نفسى بذاتى عليكم (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا) إرضاء لكبريائكم ، أو مسايرة لتقديركم الأرضى وقيمكم العرضية (الله أعلم بما فى أنفسهم) فليس لى إلا ظاهرهم ، وظاهرهم يدعو إلى التكريم ، وإلى الرجاء فى أن يؤتيهم الله خيرا (إنى إذن لمن الظالمين) إن ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى . الظالمين للحق وقد جئت أبلغه ؛ والظالمين لنفسى فأعرضها لغضب الله ؛ والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله ـــ و لا يفسر الظلم بالشرك فى كل الحالات ـــ وهكذا ينفى نوح - عليه السلام - عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه فى الرسول والرسالة . ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التى لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية . ويردهم فى نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها ، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها . بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة . فيعطى أصحاب الدعوة فى أجيالها جميعا ، نموذجا للداعية ، ودرسا فى مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون ممالأة لهم ، مع المودة التى لا تنحنى معها الرؤوس ! وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة ؛ فإذا هم - على عادة طبقتهم - قد أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، وأن يذعنوا للبرهان العقلى والفطرى . وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدى: (قالوا:يا نوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) إنه العجز يلبس ثوب القدرة ، والضعف يرتدى رداء القوة ؛ والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدى (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) وأنزل بنا العذاب الأليم الذى أنذرتنا به فلسنا نصدقك ، ولسنا نبالى وعيدك . أما نوح فلا يخرجه هذا التكذيب والتحدى عن سمت النبى الكريم ، ولا يقعده عن بيان الحق لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى غفلوا عنها وجهلوها فى طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم ، وردهم إلى هذه الحقيقة وهى أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وهو الذى يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة فى تعجيل العذاب أو تأجيله ، وسنته هى التى تنفذ . . وما يملك هو أن يردها أو يحولها . . إنه رسول . وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة ، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه (قال:إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى - إن أردت أن أنصح لكم - إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون) فإذا كانت سنة الله تقتضى أن تهلكوا بغوايتكم ، فإن هذه السنة ستمضى فيكم ، مهما بذلت لكم من النصح . لا لأن الله سيصدكم عن الانتفاع بهذا النصح ، ولكن لأن تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضى أن تضلوا ، وما أنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم دائما فى قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ؛ ولا مفر لكم من لقائه وحسابه وجزائه: وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت

السياق لفتة عجيبة ، إلى استقبال مشركى قريش لمثل هذه القصة ، التى تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمدا يفترى هذا القصص . فيرد هذا القول قبل أن يمضى فى استكمال قصة نوح (أم يقولون افتراه ؟ قل:إن افتريته فعلى إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون) فالافتراء إجرام ، قل لهم:إن كنت فعلته فعلى تبعته ، وأنا أعرف إنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه ، وأنا برىء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب . وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة فى القرآن ، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا فى السياق . ثم يمضى السياق فى قصة نوح ؛ يعرض مشهدا ثانيا . مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره (وأوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل ! فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه . هكذا أوحى الله إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضى فى دعوة لا تفيد . ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لا تحس بالبؤس والقلق ، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذى كان منهم ، لا على نفسك فما هم بضاريك بشىء ، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم . دع أمرهم فقد انتهى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) برعايتنا وتعليمنا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون) فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم . فلا تخاطبنى فيهم . . لا دعاء بهدايتهم ، ولا دعاء عليهم – وقد ورد فى موضع آخر أنه حين يئس منهم دعا عليهم ، والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحى – فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء . . والمشهد الثالث من مشاهد القصة:مشهد نوح يصنع الفلك ، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه:قال:إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) والتعبير بالمضارع . فعل الحاضر . . هو الذى يعطى المشهد حيويته وجدته . فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التعبير . يصنع الفلك . ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون . يسخرون من الرجل الذى كان يقول لهم:إنه رسول ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ؛ ثم إذا هو ينقلب نجارا يصنع مركبا . . إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر . شأنهم دائما فى إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير . فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم فى اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية (قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله وما ينتظركم من مصير(فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أنحن أم أنتم . يوم ينكشف المستور ، عن المحذور ! ثم مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا:احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك – إلا من سبق عليه القول – ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال:اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم) وتتفرق الأقوال حول فوران التنور ، ويذهب الخيال ببعضها بعيدا ، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفى قصة الطوفان كلها واضحة . أما نحن فلا نضرب فى متاهة بغير دليل , فى هذا الغيب الذى لا نعلم منه إلا ما يقدمه لنا النص ، وفى حدود مدلوله بلا زيادة . وأقصى ما نملك أن نقوله:إن فوران التنور – والتنور هو الموقد – قد يكون بعين فارت فيه , أو بفوارة بركانية . وأن هذا الفوران ربما كان علامة من الله لنوح ، أو كان مصاحبا مجرد مصاحبة لمجيء الأمر ، وبدءا لنفاذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء . وسح الوابل من السماء . لما حدث هذا (قلنا:احمل فيها من كل زوجين اثنين . . .) كان نظام العملية كان يقتضى أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة فى حينها . فقد أمر أولا بصنع الفلك فصنعه , ولم يذكر لنا السياق الغرض من صنعه ، ولم يذكر أنه أطلع نوحا على هذا الغرض كذلك (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنو ر) أمر بالمرحلة التالية (قلنا:احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن) ومرة أخرى تتفرق الأقوال حول (من كل زوجين اثنين) وتشيع فى الجو رائحة الإسرائيليات قوية . أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص (احمل فيها من كل زوجين اثنين) مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء . وما وراء ذلك خبط عشواء (وأهلك – إلا من سبق عليه القول –) أى من استحق عذاب الله حسب سنته (ومن آمن) من غير أهلك (وما آمن معه إلا قليل) (وقال:اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) فنفذ الأمر وحشر من حشر وما حشر ووهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة فى جريانها ورسوها ، فهى فى رعاية الله وحماه . . وماذا يملك البشر من أمر الفلك فى اللجة الطاغية بله الطوفان ؟! ثم يأتى المشهد الهائل المرهوب:مشهد الطوفان (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه – وكان فى معزل – يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال:سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) إن الهول هنا هولان . هول فى الطبيعة الصامتة ، وهول فى النفس البشرية يلتقيان (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) وفى هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه فى معزل عنهم وليس معهم , وتستيقظ فى كيانه الأبوة الملهوفة ، ويروح يهتف

بالولد الشارد (يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل (قال:سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) ثم ها هى ذى الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير (قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) لا جبال ولا مخابئ ولاحام ولا واق . إلا من رحم الله . وفى لحظة تتغير صفحة المشهد . فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شىء (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) وإننا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفاسنا – ونحن نتابع السياق – والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء . وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف فى سرعة خاطفة راجفة وينتهى كل شىء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب ! وإن الهول هنا ليقاس بمداه فى النفس الحية – بين الوالد والمولود – كما يقاس بمداه فى الطبيعة ، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . وإنهما لمتكافئان ، فى الطبيعة الصامتة وفى نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة فى تصوير القرآن . .. وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك فى الألفاظ وفى إيقاعها فى النفس والأذن (وقيل:يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين) ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل فتبلع الأرض ، وتكف السماء (وقيل:يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى) (وغيض الماء) ابتلعته الأرض فى جوفها وغار من سطحها (وقضى الأمر) ونفذ القضاء (واستوت على الجودى) ورست رسو استقرار على جبل الجودى . . (وقيل بعدا للقوم الظالمين) وهى جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير . .(قيل) على صيغة المجهول فلا يذكر من قال ، من قبيل لف موضوعهم ومواراته (وقيل بعدا للقوم الظالمين) بعدا لهم من الحياة فقد ذهبوا ، وبعدا لهم من رحمة الله فقد لعنوا ، وبعدا لهم من الذاكرة فقد انتهوا . . وما عادوا يستحقون ذكرا ولا ذكرى !

والآن وقد هدأت العاصفة ، وسكن الهول ، واستوت على الجودى . الآن تستيقظ فى نفس نوح لهفة الوالد المفجوع (ونادى نوح ربه ، فقال:رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين)رب إن ابنى من أهلى ، وقد وعدتنى بنجاة أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . فلا تقضى إلا عن حكمة وتدبير . . قالها يستنجز ربه وعده فى نجاة أهله ، ويستنجزه حكمته فى الوعد والقضاء . . وجاءه الرد بالحقيقة التى غفل عنها . فالأهل – عند الله وفى دينه وميزانه – ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة . وهذا الولد لم يكن مؤمنا ، فليس إذن من أهله وهو النبى المؤمن . . جاءه الرد هكذا فى قوة وتقرير وتوكيد ؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد (قال:يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم . إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) إنها الحقيقة الكبيرة فى هذا الدين . حقيقة العروة التى ترجع إليها الخيوط جميعا . عروة العقيدة التى تربط بين الفرد والفرد مالا يربطه النسب والقرابة (إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح) فهو منبت منك وأنت منبت منه ، ولو كان ابنك من صلبك ، فالعروة الأولى مقطوعة ، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة . ولأن نوحا دعا دعاء من يستنجز وعدا لا يراه قد تحقق . . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد (فلا تسألن ما ليس لك به علم . إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) إنى أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق . ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل فى حق ربه ، فيلجأ إليه ، يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته (قال:رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) وأدركت رحمة الله نوحا ، تطمئن قلبه ، وتباركه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم (قيل ؛ يا نوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وكانت خاتمة المطاف:النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم . . ذات البشرى وذات الوعيد ، اللذان مرا فى مقدمة السورة . فجاء القصص ليترجمهما فى الواقع المشهود ومن ثم يجىء التعقيب (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين) فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة ، حقيقة الوحى التى ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبى ، وما كان معلوما لقومه ، ولا متداولا فى محيطه . إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير .

وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى . فهى هى . والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التى لا تمنع جيلا أن يرددها وقد بدت باطلة فى جيل .

وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبى وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

وحقيقة السنن الجارية التى لا تتخلف ولا تحابى ولا تحيد: (والعاقبة للمتقين). . فهم الناجون وهم المستخلفون .

وحقيقة الرابطة التى تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل . . إنها العقيدة الواحدة التى تربط المؤمنين كلهم فى إله واحد ورب واحد يلتقون فى الدينونة له بلا منازع ولا شريك .

تعقيب على قصة نوح:دروس وعبر ودلالات منها

وبعد . . أكان الطوفان عاما في الأرض ؟ أم إنه كان فى تخوم الأرض التى بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها فى العالم القديم وفى العالم الحديث ؟ أسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ؛ وإلا الإسرائيليات التى لا تستند إلى دليل صحيح . . وليس لها بعد ذلك قيمة فى تحقيق أهداف القصص القرآنى فى كثير ولا قليل . ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية فى ذلك الزمان . وأن الأرض التى يسكنونها كانت هى الأرض المعمورة في ذلك الحين . وأن الطوفان قد عم هذه الرقعة ، وقضى على جميع الخلائق التى تقطنها – فيما عدا ركب السفينة الناجين . وهذا حسبنا فى إدراك طبيعة ذلك الحادث الكونى الذى جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذى لا يعرف "التاريخ" عنه شيئا . وإلا فيومها أين كان "التاريخ" ؟! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل ! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والتجريح والتعديل ! وما ينبغى قط أن يستفتى ذات يوم فى شأن جاءنا به الخبر الصادق . ومجرد استفتائه فى مثل هذا الشأن قلب للأوضاع ، وانتكاسة لا تصيب عقلا قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين ! ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها فى تاريخ قديم مجهول ، بسبب معصية ذلك الجيل الذى شهد ذلك الحادث الكبير . . وأساطير بنى إسرائيل المدونة فيما يسمونه "العهد القديم" تحوى كذلك ذكرى طوفان نوح . . ولكن هذا كله شىء لا ينبغى أن يذكر فى معرض الحديث القرآنى عن الطوفان ؛ ولا ينبغى أن يخلط الخبر الصادق الوثيق . بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد . وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالته فى أن الطوفان قد كان فى أرض هذه الأقوام ؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذرارى الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد . . ونخلص من هذه القضية العرضية إلى عبرة هذا الحادث الكونى العظيم . وهى – فى الحقيقة – عبر شتى ، لا عبرة واحدة . وسنحاول أن نلم بشىء منها فى الصفحات التالية ,قبل أن ننتقل من قصة نوح إلى قصة هود:

إن قوم نوح – عليه السلام – هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم ، ومدى إصرارهم على باطلهم , ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التى حملها نوح – عليه السلام – إليهم , وخلاصتها:التوحيد الخالص الذى يفرد الله – سبحانه – بالدينونة والعبودية ؛ ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية . .

إن قوم نوح هؤلاء . . هم ذرية آدم . . وآدم – كما نعلم من قصته فى سورة الأعراف من قبل – وفى سورة البقرة كذلك – قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها – وهى المهمة التى خلقه الله لها وزوده بالكفايات والاستعدادات اللازمه لها – بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التى زلها ، وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها . وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق – هو وزوجه وبنوه – أن(يتبع) ما يأتيه من هدى الله ، ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه . . وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل ؛ وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية فى الأرض ؛ حيث لم تكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح – وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله – قد صاروا إلى هذه الجاهلية – التى

وصفتها القصة فى هذه السورة - فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعا . وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بنى آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية فى النفس البشرية . تلك الثغرات التى ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله , واتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه فى كبيرة ولا صغيرة . . ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدرا من الاختيار – هو مناط الابتلاء – وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف – ولو قيد شعرة – عن هدى الله إلى تعاليم غيره ؛ فيجتاله الشيطان حتى يقذف به – بعد أشواط – إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التى انتهت إليها ذرارى آدم – النبى المسلم – بعد تلك الأجيال التى لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة . . حقيقة أن أول عقيدة عرفت فى الأرض هى الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده . . تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم "علماء الأديان المقارنة " وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة . سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة . ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشموس والكواكب . . إلى آخر ما تخبط فيه هذه "البحوث" التى تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحى الإلهى والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشرى على مدار الزمان !

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ؛ فيتابعون تلك النظريات التى يقررها الباحثون فى تاريخ الأديان – وفق ذلك المنهج الموجه ! – من حيث لا يشعرون ! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامى الذى يقرره القرآن الكريم فى وضوح حاسم . حين يقرر أن آدم – عليه السلام – هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام . وأن نوحا – عليه السلام – واجه ذرارى آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه . . القائم على التوحيد المطلق . . وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ؛ وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام . . القائم على التوحيد المطلق . . وأنه لم يكن قط تطور فى العقيدة السماوية فى أصل الاعتقاد – إنما كان الترقى والتركيب والتوسع فى الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة - وأن ملاحظة ذلك التطور فى العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور فى أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب فى الأجيال التالية – حتى بعد انحراف الأجيال عنها – ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها ; حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الربانى . أما عقيدة التوحيد فى أصلها فهى أقدم فى تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعا ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت ، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية ؛ إنما هى آتية لهم من عند الله سبحانه . فهى حق منذ اللحظة الأولى ، وهى كاملة منذ اللحظة الأولى . .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ؛ ويقوم عليه التصور الإسلامى . فلا مجال – إذن – لباحث مسلم – وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! – أن يعدل عن هذا الذى يقرره القرآن الكريم فى وضوح حاسم ، إلى شىء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا !

ومع أننا هنا – فى ظلال القرآن – لا نناقش الأخطاء والمزالق فى الكتابات التى تكتب عن الإسلام – إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل – . . ولكننا نلم بنموذج واحد , نعرضه فى مواجهة المنهج القرآنى والتقريرات القرآنية فى هذه القضية . .

كتب الأستاذ العقاد فى كتابه:"الله" فى فصل أصل العقيدة:

" . .ترقى الإنسان فى العقائد . كما ترقى فى العلوم والصناعات .

"فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى .

"وينبغي أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات . " لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

"وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

"فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة فى عصر واحد ؛ وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر ، وطورا بعد طور . وأسلوبا بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

"وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة . فهذه هى وحدهاالنتيجة المعقولة التى لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس فى هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديدا فى الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحث عن محال . . .

كذلك كتب فى فصل:"أطوار العقيدة الإلهية " فى الكتاب نفسه:

"يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب:

وهى دور التعدد

ودور التمييز والترجيح

ودور الوحدانية

"ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات . ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات والقرابين .

"وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

"وفى الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك المطاع .

"ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوارا من الحضارة تشيع فيها المعرفة , ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيرا ما يتفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة , وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية " . . . الخ .

وواضح سواء من رأى الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ؛ ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية . وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمنى مطرد على الإجمال . .

وهذا واضح من الجملة الأولى فى تقديم المؤلف لكتابه:"موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ أن اتخذ الإنسان ربا ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد" . . .

والذى لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر فى كتابه الكريم ، تقريرا واضحا جازما ، شيئا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب:"الله" متأثرا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة . . وأن الذى يقرره الله – سبحانه – أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة , وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده . وأنه عرف بنيه بهذه العقيدة ، فكانت هنالك أجيال فى أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا ، وإلا التوحيد عقيدة . . وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد . . ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد . . ودانت لشتى الأرباب الزائفة . . . حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد . وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعا ; ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون "نزاهة التوحيد" وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية ! ولنا أن نجزم أن أجيالا من ذرارى هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق . قبل أن يطول عليهم الأمد , ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد . . وأنه هكذا كان شأن كل رسول):وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون). .

والذى لاشك فيه أن هذا شىء ، والذى يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب:"الله" شىء آخر . وبينهما تقابل تام فى منهج النظر وفى النتائج التى ينتهى إليها . . وآراء الباحثين فى تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا , فهى ليست الكلمة النهاية حتى فى مباحث البشر الفانين !

وما من شك أنه حين يقرر الله – سبحانه – أمرا يبينه فى كتابه الكريم هذا البيان القاطع , ويقرر غيره أمرا آخر مغايرا له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع . وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة . . وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية فى أن الدين جاء وحيا من عند الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ؛ وإنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجىء بغير التوحيد فى أية فترة من فترات التاريخ ، ولا فى أيه رسالة . كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ; وهى أنه وحي من الله ، وليس من وحى الفكر البشرى المترقى المتطور ! وليس وقفا على ترقى العقل البشرى فى العلم المادى والخبرة التجريبية !

ولعل هذه اللمحة المختصرة – التى لا نملك الاستطراد فيها فى كتاب الظلال – تكشف لنا عن مدى الخطورة فى تلقى مفهوماتنا الإسلامية – فى أى جانب من جوانبها – عن مصدر غير إسلامي . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها فى أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها . حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه . . (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم). .

ونقف وقفة أخرى مع قصة نوح . . نقف مع نوح وابنه الذى ليس من أهله ! (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل –:يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال:سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال:لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . .) (

ونادى نوح ربه ، فقال:رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال:يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال:رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) إن الوشيجة التى يتجمع عليها الناس فى هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الربانى الكريم . إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ؛ وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة . . إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ؛ كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح – عليه السلام – وهو يقول (رب إن ابنى من أهلى) (يا نوح إنه ليس من أهلك) ثم بين له لماذا يكون ابنه . . ليس من أهله (إنه عمل غير صالح) إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح) :فلا تسألن ما ليس لك به علم)فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطئ . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك ! وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط , وبين نظرات الجاهلية المتفرقة . . إن الجاهليات تجعل الرابطة أنا هى الدم والنسب ؛ وأنا هى الأرض والوطن ، وأنا هى القوم والعشيرة ، وأنا هى اللون واللغة , وأنا هى الجنس والعنصر ، وأنا هى الحرفة والطبقة ! تجعلها أنا هى المصالح المشتركة , أو التاريخ المشترك . أو المصير المشترك . . وكلها تصورات جاهلية – على تفرقها أو تجمعها – تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامى ! والمنهج الربانى القويم – ممثلا فى هذا القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم وفى توجيهات الرسول ﷺ وهى من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه – قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير . . والمعلم الواضح البارز فى مفرق الطريق وهذا المثل الذى يضربه فى هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ,وضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التى يعتبرها . .

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله سبحانه :

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام ، تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر , هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح فى هذا الشأن . . إن هذه الحفنة – وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل – قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ؛ وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء وكل حى فى المعمور وقتها من الأرض ! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك , وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد . . . . وهذا أمر خطير . . إن طلائع البعث الإسلامى التى تواجه الجاهلية الشاملة فى الأرض كلها ؛ والتى تعانى الغربة فى هذه الجاهلية والوحشة ؛ كما تعانى الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل . . إن هذه الطلائع ينبغى أن تقف طويلا أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالته التى تستحق التدبر والتفكير ! إن وجود البذرة المسلمة فى الأرض شىء عظيم فى ميزان الله تعالى . . شىء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدخراتها جميعا ؛ كما يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد ! لقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترون عليه كما قال الله تعالى فى سورة القمر (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه (مغلوب) ويدعو ربه أن "ينتصر" هو وقد غلب رسوله . . عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون فى خدمة عبده المغلوب: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاول عملها على هذا المستوى الكونى الرائع المرهوب . . كان الله سبحانه – بذاته العلية – مع عبده المغلوب وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا . . جزاء لمن كان كفر . .). هذه هى الصورة الهائلة التى يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان وفى كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ؛ وحين "تغلبها" الجاهلية ! إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة . . وليس من الضرورى أن تكون هى الطوفان . فما الطوفان إلا صورة من صور تلك القوى ! (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر فى طريقها ؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه ; وإلا أن تصبر حتى يأتى الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وأنه لن يترك أولياءه إلى أعدائه ، إلا فترة الإعداد والابتلاء ;

وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها فى الأرض ما يشاء . وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنه لا ينبغى له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه (أنى مغلوب فانتصر) إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة . . إن الجاهلية تملك قواها . . ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب ! وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله . . ولقد لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ؛ قبل أن يأتى الأجل الذى قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثنى عشر مسلما . . ولكن هذه الحفنة من البشر كانت فى ميزان الله تساوى تسخير تلك القوى الهائلة ، والتدمير على البشرية الضالة جميعا ، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها . . إن عصر الخوارق لم يمض ! فالخوارق تتم فى كل لحظة - وفق مشيئة الله الطليقة - ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطا أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها . وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائما ، ويلابسون آثارها المبدعة . والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملا ، بكل ما فى طاقتهم من جهد ؛ ثم يدعوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح (فدعا ربه أنى مغلوب , فانتصر) ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ؛ فهم على هذا الانتظار مأجورون . ومرة أخرى نجد أن هذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهادا كبيرا . . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون فى مثل الجو الذى تنزل فيه القرآن ؛ ومن ثم يتذوقونه ويدركونه ؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين خطابا مباشرا به , كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى ، فتذوقته وأدركته وتحركت به . .

. . والحمد لله فى الأولى والآخرة . .

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ{٥٠} يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{٥١} وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ{٥٢} قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ{٥٣} إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{٥٤} مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ{٥٥} إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٥٦} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ{٥٧} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ{٥٨} وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ{٥٩} وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ{٦٠} وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ{٦١} قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ{٦٢} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ{٦٣} وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ{٦٤} فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ{٦٥} فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ{٦٦} وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٦٧} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ) {٦٨}

مضى قوم نوح فى التاريخ ، الأكثرون المكذبون طواهم الطوفان وطواهم التاريخ ؛ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء ، والناجون استخلفوا فى الأرض تحقيقا لسنة الله ووعده (إن العاقبة للمتقين) ولقد كان وعد الله لنوح (يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله . وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد - ومن بعدهم ثمود - ممن حقت عليهم كلمة الله (وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) لقد عادت الجاهلية مرة أخرى كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلا الله من المسلمين من

ذرية آدم . . فلا بد أن أجيالا من ذرية آدم بعد استخلافه في الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذى كان عليه أبواهم . حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم , وانحرفت بهم إلى الجاهلية التى واجهها نوح – عليه السلام – ثم جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين ، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين ديار – كما دعا نوح ربه . ولا بد أن أجيالا كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده . حتى اجتالتهم الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية . وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية . . فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف [والحقف كثيب الرمل المائل] فى جنوب الجزيرة العربية ، وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر فى شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة وبلغت كل منهما فى زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع . . ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله ، واختاروا الوثنية على التوحيد ، والدينونة للعبيد على الدينونة لله ، وكذبوا الرسل شر تكذيب . وفى قصصهم هنا مصداق ما فى مطلع السورة من حقائق وقضايا كقصة نوح (وإلى عاد أخاهم هودا قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجرا . إن أجرى إلا على الذى فطرنى . أفلا تعقلون ؟ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه , يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم , ولا تتولوا مجرمين) وكان هود من عاد . فهو أخوهم . واحد منهم ، تجمعه – كانت – آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحدة . وتبرز هذه الآصرة هنا فى السياق ، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته ، وليبدو موقف القوم من أخيهم ونبيهم شاذا ومستقبحا ! ثم لتقوم المفاصلة فى النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة . ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حين تنقطع وشيجة العقيدة . لتتفرد هذه الوشيجة وتبرز فى علاقات المجتمع الإسلامى ، ثم لكى تتبين طبيعة هذا الدين وخطه الحركى . . فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض . . . ثم تنتهى بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد . . أمة مسلمة وأمة مشركة . . وبينهما فرقة ومفاصلة . . وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين . ولا يجيى ء وعد الله بهذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة ، وتتم المفارقة ، وتتميز الصفوف , وينخلع النبى والمؤمنون معه من قومهم ، ومن سابق روابطهم ووشائجهم معهم ، ويخلعوا ولاءهم لقومهم ولقيادتهم السابقة ، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيادتهم المسلمة التى دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحده وخلع الدينونة للعباد . . وعندئذ فقط – لا قبله – يتنزل عليهم نصر الله (وإلى عاد أخاهم هودا) أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحا إلى قومه فى القصة السابقة (قال:يا قوم) بهذا التودد ، والتذكير بالأواصر التى تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول . فالرائد لا يكذب أهله ، والناصح لا يغش قومه . (قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) القولة الواحدة التى جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا – كما أسلفنا – عن عبادة الله الواحد التى هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة . ولعل أول خطوة فى هذا الانحراف كانت هى تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التى حملت فى السفينة مع نوح ! ثم تطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل فى أشجار وأحجار نافعة ; ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هى معبودات ، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة – فى صورة من صور الجاهلية الكثيرة . ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق . الذى لا يتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولا يدين بالعبودية إلا الله وحده . . الانحراف خطوة واحدة لا بد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله . على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لا يدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هم يدعوهم تلك الدعوة التى جاء بها كل رسول (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (إن أنتم إلا مفترون) مفترون فيما تعبدونه من دون الله ، وفيما تدعونه من شركاء لله . ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة ، فليس له من ورائها هدف . وما يطلب على النصح والهداية أجرا . إنما أجره على الله الذى خلقه فهو به كفيل (يا قوم لا أسألكم عليه أجرا . إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟) مما يشعر أن قوله (لا أسألكم عليه أجرا) كان بناء على اتهام له أو تلميح بأنه يبتغى أجرا أو كسب مال من وراء الدعوة التى يدعوها . وكان التعقيب (أفلا تعقلون) للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولا من عند الله يطلب رزقا من البشر ، والله الذى أرسله هو الرزاق الذى يقوت هؤلاء الفقراء ! ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة . ويكرر السياق التعبير ذاته الذى ورد فى أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ما وعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين) استغفروا ربكم مما أنتم فيه ، وتوبوا إليه فابدأوا طريقا جديدا يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية (يرسل السماء عليكم مدرارا) وكانوا فى حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم فى الصحراء ، ويحتفظون به بالخصب الناشئ من هطول الأمطار فى تلك البقاع (ويزدكم قوة إلى قوتكم) هذه القوة التى عرفتم بها (ولا تتولوا مجرمين) مرتكبين لجريمة

التولي والتكذيب . وننظر فى هذا الوعد . وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة . وهى أمور تجرى فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة فى نظام هذا الوجود ، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الاستغفار بها وما علاقة التوبة ؟ فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ، بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح فى الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدانهم صحة فى الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته فى كل آن ؛ ويزيدانهم صحة فى المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التى تطلق الناس أحرارا كراما لا يدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه . . كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة فى الأرض ؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإله الحق فى فطرة البشر ! والملحوظ دائما أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها سدنتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة . . أحيانا . . كل ذلك ليدين لها الناس ! فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد ! وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعباد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده فى عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها ، بدلا من أن ينفقه عباد الأرباب الأرضية فى الطبل والزمر والتراتيل والتسابيح لهذه الأرباب المفتراة ! ولقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله فى قلوبهم ولا فى مجتمعهم ، ولكنها قوة إلى حين . حتى تنتهى الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله ، وتتحطم هذه القوة التى لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج . وهذه وحدها لا تدوم . لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضى عليها بعد حين . فأما إرسال المطر . مدرارا . فالظاهر للبشر أنه يجرى وفق سنن طبيعية ثابتة فى النظام الكونى . ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محييا فى مكان وزمان ، ومدمرا فى مكان وزمان ؛ وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم ، وأن يكون الدمار معه لقوم ، وأن ينفذ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية ؛ فهو خالق هذه العوامل ، وجاعل الأسباب لتحقيق سنته على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التى تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذى يحكم كل شىء فى السماوات والأرض غير مقيد بما عهده الناس فى الغالب . تلك كانت دعوة هود - ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة . ربما لأن الطوفان كان قريبا منهم ، وكان فى ذاكرة القوم وعلى لسانهم ، وقد ذكرهم به فى سورة أخرى - فأما قومه فظنوا به الظنون . . (قالوا . يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . .) إلى هذا الحد بلغ الانحراف فى نفوسهم ، إلى حد أن يظنوا أن هودا يهذى ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء ، فأصيب بالهذيان ! (يا هود ما جئتنا ببينة) والتوحيد لا يحتاج إلى بينة ، إنما يحتاج إلى التوجيه والتذكير ، وإلى استجاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أى لمجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل ! (وما نحن لك بمؤمنين) أى مستجيبين لك ومصدقين . . وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذى وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء ! وهنا لم يبق لهود إلا التحدى . وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه . وإلا الوعيد والإنذار الأخير للمكذبين . وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب (قال إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ) إنها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقا . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة . وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم . ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم فى وجوههم ؛ كى لا تبقى فى أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم ! وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه . ومع ثقة الإيمان واطمئنانه ! (قال:إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) إنى أشهد الله على براءتى مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئنى وتكون حجة عليكم:أننى عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله . ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التى تزعمون أن أحدها مسنى بسوء . تجمعوا أنتم وهى - جميعا - ثم كيدونى بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعا ، ولا أخشاكم شيئا (إنى توكلت على الله ربى وربكم) ومهما أنكرتم وكذبتم . فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله لى ولكم . فالله الواحد هو ربى وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) وهى صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس . والناصية أعلى الجبهة . فهو القهر والغلبة والهيمنة ، فى

صورة حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . . وإلى جانبها تقرير استقامة السنة الإلهية فى اتجاهها الذى لا يحيد (إن ربى على صراط مستقيم) فهى القوة والاستقامة والتصميم . وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدى . . إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبى الله هود – عليه السلام – فى نفسه من ربه . . إنه يجد هذه الحقيقة واضحة ، إن هذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة فى نفسه ، لا تدع فى قلبه مجالا للشك فى عاقبة أمره ، ولا مجالا للتردد عن المضي فى طريقه . إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة أبدا . وعند هذا الحد من التحدى بقوة الله ، وإبراز هذه القوة فى صورتها القاهرة الحاسمة ، يأخذ هود فى الإنذار والوعيد (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) فأديت واجبى لله ، ونفضت يدى من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه (ويستخلف ربي قوما غيركم) يليقون بتلقى دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم (ولا تضرونه شيئا) فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك فى كونه فراغا ولا نقصا (إن ربى على كل شيء حفيظ) يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربا ! وكانت هى الكلمة الفاصلة . وانتهى الجدل والكلام . ليحق الوعيد والإنذار (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا . ونجيناهم من عذاب غليظ) لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء . وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة . والآن وقد هلكت عاد . يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيع باللعنة والطرد ، فى تقرير وتكرار وتوكيد (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عادا كفروا ربهم . ألا بعدا لعاد قوم هود) (وتلك عاد) بهذا البعد . وقد كان ذكرهم منذ لحظة فى السياق ، وكان مصرعهم معروضا على الأنظار . . ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) وهم عصوا رسولا واحدا . ولكن أليست هى رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا ؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعا . ولا ننسى أن هذا الجمع فى الآيات وفى الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها . فهم جحدوا آيات ، وهم عصوا رسلا . فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة ! (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أمر كل متسلط عليهم ، معاند لا يسلم بحق ، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين ، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم . ولا يكونوا ذيولا فيهدروا آدميتهم . وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد . . كانت هى قضية الحاكمية والاتباع . . كانت هى قضية:من الرب الذى يدينون له ويتبعون أمره ؟ يتجلى هذا فى قول الله تعالى (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد) فهى المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل – لأنه أمر الله – ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان . . فى كل رسالة وعلى يد كل رسول . لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد . . هلكوا مشيعين باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) ثم لا يتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم فى إعلان عام وتنبيه عال (ألا إن عادا كفروا ربهم) ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد: (ألا بعدا لعاد قوم هود) بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد . كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا (ألا بعدا لعاد قوم هود)!!!

ونقف وقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه فى سياق هذه السورة ، قبل أن ننتقل منها إلى قصة صالح . ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجيء فى القرآن الكريم لرسم معالم الطريق فى خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون . . ليس فقط فى ماضيها التاريخى ، ولكن فى مستقبلها إلى آخر الزمان . وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التى تلقت هذا القرآن أول مرة . وتحركت به فى وجه الجاهلية يومذاك ؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التى يدين لها الناس الدينونة الشاملة . . . إن هذا التوحيد هو الذى يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل فى سبيله كل هذه الجهود ؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان . . لا لأن الله سبحانه فى حاجة إليه ، فالله سبحانه غنى عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة "بالإنسان" إلا بهذا التوحيد الذى

لا حد لتأثيره فى الحياة البشرية فى كل جانب من جوانبها . [وهذا ما نرجو أن نزيده بيانا – إن شاء الله – فى نهاية قصص الرسل فى ختام السورة] . .

ونقف أمام الحقيقة التى كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين . وهى ذات الحقيقة التى ذكرت فى مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله ﷺ لقومه بمضمون الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك فى قوله تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) . .

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية فى الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذى يحتويه هذا الدين . . وهى حقيقة فى حاجة إلى جلاء وتثبيت ؛ وبخاصة فى نفوس الذينيعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ والذين لم تصقل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها . .

إن الحق الذى نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل فى ألوهية الله – سبحانه – والحق الذى خلقت به السماوات والأرض ، المتجلى فى طبيعة هذا الكون و نواميسه الأزلية . . والقرآن الكريم كثيرا ما يربط بين الحق المتمثل فى ألوهية الله – سبحانه – والحق الذى قامت به السماوات والأرض ؛ والحق المتمثل فى الدينونة لله وحده . . والحق المتمثل فى دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة ،

لقد وقف هود – عليه السلام – هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه فى نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب ! وهو مستيقن أنه ما من دابة إلا وربه آخذ بناصيتها ؛ ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب ؟! وان ربه هو الذى استخلفهم فى الأرض ، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقدرة على التصنيع والتعدين ! للابتلاء لا لمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضرونه شيئا ، ولا يردون له قضاء . . ففيم إذن يهوله شىء مما هم فيه ، وربه هو الذى يعطى ويسلب حين يشاء كيف شاء ؟ . .

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ{٦١} قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ{٦٢} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ{٦٣} وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ{٦٤} فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ{٦٥} فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ{٦٦} وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٦٧} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ){٦٨}

وحسبنا هذه الوقفات مع إلهامات قصة هود وعاد . لنتابع بعدها سياق السورة مع قصة صالح وثمود (وإلى ثمود أخاهم صالحا . قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب . .) إنها الكلمة التى لا تتغير (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وإنه كذلك المنهج الذى لا يتبدل (فاستغفروه ثم توبوا إليه) ثم هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها فى نفسه الرسول (إن ربى قريب مجيب) وذكرهم صالح بنشأتهم من الأرض . نشأة جنسهم ، ونشأة أفرادهم من غذاء الأرض أو من عناصرها التى تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدى . ومع أنهم من هذه الأرض . من عناصرها . فقد استخلفهم الله فيها ليعمروها . استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم . ثم هم بعد ذلك يشركون معه آلهة أخرى (فاستغفروه ثم توبوا إليه) واطمئنوا إلى استجابته وقبوله (إن ربى قريب مجيب) والإضافة فى(ربى) ولفظ (قريب) ولفظ (مجيب) واجتماعها وتجاورها . . ترسم صورة لحقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلب من قلوب الصفوة المختارة ، وتخلع على الجو أنسا واتصالا ومودة , تنتقل من قلب النبى الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب ! ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة ولا جلالها ، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق ، ولا وضاءة هذا الجو الطليق . . وإذا بهم يفاجأون ، حتى

ليظنون بأخيهم صالح الظنون ! (قالوا:يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ! أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) لقد كان لنا رجاء فيك . كنت مرجوا فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك , أو لهذا جميعه . ولكن هذا الرجاء قد خاب (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) إنها للقاصمة ! فكل شىء يا صالح إلا هذا ! وما كنا لنتوقع أن تقولها ! فيا لخيبة الرجاء فيك ! ثم إننا لفى شك مما تدعونا إليه . شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه ؛ بل يستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده . لماذا ؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير . ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة !وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين . وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء ! وهكذا يتبين مرة ثانية وثالثة أن عقيدة التوحيد هى فى صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح ودعوة إلى إطلاق العقل البشرى من عقال التقليد ، ومن أوهاق الوهم والخرافة التى لا تستند إلى دليل وتذكرنا قولة ثمود لصالح (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمد ﷺ وأمانته . فلما أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح ، وقالوا:ساحر . وقالوا:مفتر . ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه ! إنها طبيعة واحدة ، ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور . . ويقول صالح كما قال جده نوح (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير) يا قوم:ماذا ترون إن كنت أجد فى نفسى حقيقة ربى واضحة بينة ، تجعلنى على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وآتانى منه رحمة فاختارنى لرسالته وأمدنى بالخصائص التى تؤهلنى لها .فمن ينصرنى من الله إن أنا عصيته فقصرت فى إبلاغكم دعوته ، احتفاظا برجائكم فى ؟ أفنافعى هذا الرجاء وناصرى من الله ؟ كلا (فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير) ما تزيدوننى إلا خسارة على خسارة . . غضب الله وحرمانى شرف الرسالة وخزى الدنيا وعذاب الآخرة . وهى خسارة بعد خسارة . ولا شىء إلا التخسير ! والتثقيل والتشديد ! (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) ولا يذكر السياق صفة لهذه الناقة التى أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة . ولكن فى إضافتها لله (هذه ناقة الله) وفى تخصيصها لهم (لكم آية) ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله . ونكتفى بهذا دون الخوض فى ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التى تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجىء ! (هذه ناقة الله لكم آية . فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء) وإلا فيعالجكم العذاب . يدل على هذه المعاجلة فاء الترتيب فى العبارة . ولفظ قريب (فيأخذكم عذاب قريب). يأخذكم أخذا . وهى حركة أشد من المس أو الوقوع (فعقروها . . فقال:تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب) ودل عقرهم للناقة ، أى ضربهم لها بالسيف فى قوائمها وقتلها على هذا النحو . دل على فساد قلوبهم واستهتارهم . والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم الناقة وعقرهم إياها , لأنها لم تحدث فى نفوسهم تجاه الدعوة تغييرا يذكر . ثم ليتابع السياق عجلة العذاب . فهو يعبر هنا بفاء التعقيب فى كل الخطوات (فعقروها . فقال:تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) فهى آخر ما بقى لكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة (ذلك وعد غير مكذوب) فهو وعد صادق لن يحيد . وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك . فالعذاب لم يتأخر (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) فلما جاء موعد تحقيق الأمر – وهو الإنذار أو الإهلاك – نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا . . خاصة ومباشرة . . نجيناه من الموت ومن خزى ذلك اليوم ، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين فى دورهم بعد الصاعقة المدوية التى تركتهم موتى على هيئتهم مشهدا مخزيا . (إن ربك هو القوى العزيز) يأخذ العتاة أخذا ولا يعز عليه أمرا ، ولا يهون من يتولاه ويرعاه .ثم يعرض السياق مشهدهم ، معجبا منهم ، ومن سرعة زوالهم (كأن لم يغنوا فيها) كأن لم يقيموا ويتمتعوا . . وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسة مثيرة ، والمشهد معروض , وما بين الحياة والموت – بعد أن يكون – إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع . كأن لم يغنوا فيها . . . ثم الخاتمة المعهودة فى هذه السورة:تسجيل الذنب ، وتشييع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى (ألا إن ثمود كفروا ربهم . ألا بعدا لثمود !)

ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ . . الدعوة فيها هى الدعوة . وحقيقة الإسلام فيها هى حقيقته . . عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع . . ومرة أخرى نجد الجاهلية التى تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذى يعقب التوحيد – فثمود كعاد هم من ذرارى المسلمين الذين نجوا فى السفينة مع نوح – ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد . .

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التى طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة !

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كى يؤمنوا . فهاهم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التى طلبوا . فما أغنت معهم شيئا ! إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هى التى تطمس على القلوب والعقول:!!!

ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها فى قولة صالح التى يحكيها عنه القرآن الكريم: قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير . . وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده فى قلبه: (إن ربى قريب مجيب)

وما تتجلى حقيقة الألوهية قط فى كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هى المعرض الصافى الرائق الذى تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب !

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التى ترى في الرشد ضلالا ؛ وفى الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذى كان مرجوا فى قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ما ورثوا عن آباءهم من الدينونة لغيره !

إن القلب البشرى حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد فى ضلاله وشروده . حتى إن الحق البسيط الفطرى المنطقى ليبدو عنده عجيبة العجائب التى يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذى لا يستند إلى منطق فطرى أو منطق عقلى على الإطلاق !

إن صالحا يناديهم (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . .) فهو يناديهم بما فى نشأتهم ووجودهم فى الأرض من دليل فطرى منطقى لا يملكون له ردا . . وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التى يستمتعون بها فى الأرض . . وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله – سبحانه – هو الذى أنشأهم من الأرض ، وهو الذى أقدرهم على عمارتها . ولكنهم ما كانوا يتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله – سبحانه – وإنشائه لهم واستخلافهم فى الأرض ، بما ينبغى أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع . . وهو ما يدعوهم إليه صالح بقوله (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). لقد كانت القضية هي ذاتها . . قضية الربوبية لا قضية الألوهية . قضية الدينونة والحاكمية قضية الاتباع والطاعة . . إنها القضية الدائمة التى تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية !

(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ{٦٩} فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ{٧٠} وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ{٧١} قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ{٧٢} قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ{٧٣} فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ{٧٤} إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ{٧٥} يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ{٧٦} وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ{٧٧} وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ{٧٨} قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ{٧٩} قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ{٨٠} قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ{٨١} فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ{٨٢} مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ){٨٣}

يلم السياق فى مروره التاريخي بالمستخلفين من عهد نوح ، وبالأمم التى بوركت والأمم التى كتب عليها العذاب . . يلم بطرف من قصة إبراهيم ، تتحق فيه البركات ، فى الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم . وفى قصتى إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح (قيل:يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وقد كانت البركات فى إبراهيم وعقبه من ولديه:إسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء المرسلين (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا فى موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم ! والرسل:الملائكة . وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل – مع المفسرين – فى تعريفهم وتحديد من هم بلا دليل (قالوا:سلاما . قال سلام) وكان إبراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه فى العراق ، وعبر الأردن ، وسكن فى أرض كنعان فى البادية – وعلى عادة البدو فى إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفا (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى سمين مشوى على حجارة الرضف المحماة . ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه) أى لا تمتد إليه (نكرهم وأوجس منهم خيفة) فالذى لا يأكل الطعام يريب ، ويشعر بأنه ينوى خيانة أو غدرا بحسب تقاليد أهل البدو . وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم (قالوا:لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ! ولكن حدث فى هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث (وامرأته قائمة فضحكت) وربما كان ضحكها ابتهاجا بهلاك القوم الملوثين (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) وكانت عقيما لم تلد وقد أصبحت عجوزا . ففاجأتها البشرى بإسحاق . وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب . والمرأة – وبخاصة العقيم – يهتز كيانها كله لمثل هذه البشرى ، والمفاجأة بها تهزها وتربكها (قالت:يا ويلتا ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب) وهو عجيب حقا . فالمرأة ينقطع طمثها عادة فى سن معينة فلا تحمل . ولكن لا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب (قالوا:أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد) ولا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجرى بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل . وعندما يشاء الله لحكمة يريدها – وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه – يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التى لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجرى به العادة فى أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث فى الوجود . وإلى هنا كان إبراهيم – عليه السلام – قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التى حملوها إليه . ولكن هذا لم ينسه لوطا وقومه – وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريبا منه – وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال . وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعا (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب) والحليم الذي يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور . والأواه الذى يتضرع فى الدعاء من التقوى . والمنيب الذى يعود سريعا إلى ربه . . وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة فى مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدال لأن النص القرآني لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضى وإنه لم يعد للجدال مجال(يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) ويسكت السياق . وقد سكت – ولا شك – إبراهيم . . ويسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط . وقوم لوط فى مدن الأردن عمورية وسدوم (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال:هذا يوم عصيب !) لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التى تهتدى إلى حكمة خلق الأحياء جميعا أزواجا ، كى تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله . والتى تجد اللذة الحقيقة فى تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة . والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة . وهي تشير إلى أن المرض النفسي يعدى كالمرض الجسدى . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسى كهذا نتيجة لاختلال المقاييس فى بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيء ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التى يحكمها الناموس الذى يحكم الحياة . الناموس الذى يقتضى أن تجد لذتها فيما يلبى حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها . والشذوذ الجنسى يصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب ببذور الحياة فى تربة خبيثة لم تعد لاستقبالها وإحيائها .بدلا من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفورا فطريا – لا أخلاقيا فحسب – من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله فى الحياة . الذى يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها . سيء لوط بأضيافه . وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التى ستناله فى أضيافه (وقال:هذا يوم عصيب)! وبدأ اليوم العصيب ! (وجاءه قومه يهرعون إليه) أى يسرعون فى حالة تشبه الحمى (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) وكان

هذا ما ساء الرجل بضيوفه ، وما ضيق بهم ذرعه ، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب ! ورأى لوط ما يشبه الحمى فى أجساد قومه المندفعين إلى داره ، يهددونه فى ضيفه وكرامته . فحاول أن يدلهم على الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال ، وعنده منه فى داره بناته ، فهن حاضرات ، حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة ! (قال:يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم . فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى . أليس منكم رجل رشيد ؟) (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) أطهر بكل معانى الطهر . النفسى والحسى . فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة . نظافة فطرية ونظافة اخلاقية ودينية . ثم هن أطهر حسيا . حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمنا كذلك طاهرا نظيفا (فاتقوا الله) قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسها من ناحية الفطرة . (ولا تخزون فى ضيفى) قالها كذلك يلمس نخوتهم وتقاليد البدو فى إكرام الضيف إطلاقا (أليس منكم رجل رشيد ؟) فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة . . ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة . وظلت الفورة المريضة الشاذة فى اندفاعها المحموم (قالوا:لقد علمت مالنا فى بناتك من حق . وإنك لتعلم ما نريد ! . .) لقد علمت لو أردنا بناتك لتزوجناهن . فهذا حقنا . . (وإنك لتعلم ما نريد). . وهى إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث . وأسقط فى يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له من قوة فى هذا اليوم العصيب ؛ وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة (قال:لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد !) قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية – الذين جاء الملائكة فى صورتهم – وهم صغار صباح الوجوه ؛ ولكنهم – فى نظره – ليسوا بأهل بأس ولا قوة . فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة . أو لو كان له ركن شديد يحتمى به من ذلك التهديد ! وغاب عن لوط فى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد . ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه . كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية:" رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد " ! وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده . . كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه (قالوا:يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك) وأنبأوه نبأهم ، لينجو مع أهل بيته الطاهرين ، إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسدين (فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟). . والسرى : يعنى سير الليل ، والقطع من الليل بعضه ، ولا يلتفت منكم أحد . أى لا يتخلف ولا يعوق . لأن الصبح موعدهم مع الهلاك . فكل من بقى فى المدينة فهو هالك مع الهالكين (أليس الصبح بقريب ؟). . سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ما ذاق . لتقريب الموعد وتأكيده . فهو قريب . مع مطلع الصباح . ثم يفعل الله بالقوم – بقوته – ما لم تكن قوة لوط التى تمناها فاعلة ! والمشهد الأخير . مشهد الدمار المروع ، اللائق بقوم لوط (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) فلما جاء موعد تنفيذ الأمر (جعلنا عاليها سافلها) وهى صورة للتدمير الكامل الذى يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها . وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان . بل أحط من الحيوان , فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) حجارة ملوثة بالطين . . وهى كذلك مناسبة وعلى قدر المقام (منضود) متراكم بعضه يلاحق بعضا هذه الحجارة . (مسومة عند ربك) كما تسوم الماشية أى تربى وتطلق بكثرة . فكأنما هذه الحجارة مرباة ! ومطلقة لتنمو وتتكاثر ! لوقت الحاجة . . وهو تصوير عجيب يلقى ظله فى الحس ، ولا يفصح عنه التفسير ، كما يفصح عنه هذا الظل الذى يلقيه (وما هى من الظالمين ببعيد) فهى قريبة وتحت الطلب ، وعند الحاجة تطلق فتصيب ! والصورة التى يرسمها السياق هنا لهذه النازلة التى أصابت قوم لوط هى أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التى تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل . . وعند ربك للظالمين كثير !!! وقوام القول فى هذه القضية وأمثالها أنه جائز أن يكون فى تقدير الله وقوع انفجار بركانى فى موعده فى هذا الموعد ليحقق قدر الله فى قوم لوط كما قدر فى علمه القديم . وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل ما يجرى فيه متناسقا مع قدره بكل شيء وبكل حى فيه . وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط .

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ{٨٤} وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{٨٥} بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ{٨٦} قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا

نشاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ{٨٧} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{٨٨} وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ{٨٩} وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ{٩٠} قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ{٩١} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{٩٢} وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ{٩٣} وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ{٩٤} كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ{٩٥} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{٩٦} إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ{٩٧} يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ{٩٨} وَأُتبِعُواْ فِي هَـذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ){٩٩}

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب فى قومه أهل مدين . . ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هى قضية الأمانة والعدالة فى التعامل بين الناس ، وهى وثيقة الصلة بالعقيدة فى الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله ! وتجرى القصة على نسق قصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وإن كانت أقرب فى نهايتها وأسلوب عرضها . والتعبير عن خاتمتها إلى قصة صالح ، حتى لتشترك معها فى نوع العذاب وفى العبارة عن هذا العذاب (وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .) إنها الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأولى . وقاعدة الحياة الأولى . وقاعدة الشريعة الأولى . وقاعدة المعاملات الأولى . . القاعدة التى لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة (ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ) والقضية هنا هى قضية الأمانة والعدالة – بعد قضية العقيدة والدينونة – أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة . . فقد كان أهل مدين – وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز إلى الشام – ينقصون المكيال والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم ، أى ينقصونهم قيمة أشيائهم فى المعاملات . وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف . كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها . ويتحكموا فى طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى هذه السورة .

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهى بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الأرض بين الناس . وهى الضمانة الوحيدة التى تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء . . إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة . . هذه هى نظرة الإسلام . وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم ! وهى حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ؛ كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها . فلا يكون المتحكم فى أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعى أو يعيشون على الصناعة . . إن هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها فى التصور الأخلاقى وفى قواعد المعاملات الأخلاقية ، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ؛ وحين تصبح قاعدة الأخلاق هى إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقى عقابه ، وكل ما يهرف به أصحاب المذاهب الوضيعة من تبعية الأخلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعى للأمة يصبح لغوا فى ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية ! (ولا تنقصوا المكيال والميزان . إنى أراكم بخير) فقد رزقكم الله رزقا حسنا ، فلستم فى حاجة إلى هذه الدناءة لتزيدوا غنى ، ولن يفقركم أو يضركم أن لا تنقصوا المكيال والميزان . . بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش فى المعاملة ، أو غصب فى الأخذ والعطاء (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) إما فى الآخرة عند الله . وإما فى هذه الأرض حين يؤتى هذا الغش والغصب ثمارهما المرة فى حالة المجتمع وفى حركة التجارة . وحين يذوق الناس بعضهم بأس

بعض ، فى كل حركة من الحركات اليومية وفي كل تعامل وفى كل احتكاك ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه فى صورة إيجابية بعد صورة النهى السلبية (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة وللعبارات ظل فى الحس . وظل الإيفاء غير ظل عدم النقص ، فهو أكثر سماحة ووفاء (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وهذه أعم من المكيلات والموزونات . فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع . تقويمها كيلا أو وزنا أو سعرا أو تقديرا . وتقويمها ماديا أو معنويا . وقد تدخل فى ذلك الأعمال والصفات . لأن كلمة "شىء " تطلق أحيانا ويراد بها غير المحسوسات . وبخس الناس أشياءهم – فوق أنه ظلم – يشيع فى نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد , أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير . . وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر ، ولا تبقى على شىء صالح فى الحياة (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) والعثو هو الإفساد ، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد ، قاصدين إلى تحقيقه . ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذى يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم فى التقدير (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) فما عند الله أبقى وأفضل . . وقد دعاهم فى أول حديثه إلى عبادة الله وحده – أى الدينونة له بلا شريك – فهو يذكرهم بها هنا ، مع ذكر الخير الباقى لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم , واتبعوا نصيحته فى المعاملات . وهى فرع عن ذلك الإيمان (بقية الله خير لكم . . إن كنتم مؤمنين) ثم يخلى بينهم وبين الله الذى دعاهم إليه ، ويبين لهم أنه هو لا يملك لهم شيئا ، كما أنه ليس موكلا بحفظهم من الشر والعذاب . وليس موكلا كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولا عنهم إن هم ضلوا ، إنما عليه البلاغ وقد أداه (وما أنا عليكم بحفيظ) ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر ، وبثقل التبعة ، ويقفهم وجها لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ . ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال (قالوا:يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ? إنك لأنت الحليم الرشيد !). . وهو رد واضح التهكم ، بين السخرية فى كل مقطع من مقاطعه . وإن كانت سخرية الجاهل المطموس , والمعاند بلا معرفة ولا فقه (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ?). . فهم لا يدركون – أو لا يريدون أن يدركوا – أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة . وقبل أن نمضى طويلا فى تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة . وارتباطهما معا بالمعاملات . . قبل أن نمضى طويلا فى تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون فى تصورهم ولا فى إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التى نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى ! وأن الشرك الذى كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذى تزاوله اليوم البشرية بجملتها – بما فيها أولئك الذين يقولون:إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون – فكلهم يفصل بين العقيدةوالشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله , ووفق أمر غيره . . وهذا هو الشرك فى حقيقته وأصله . . وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم – وذلك بغض النظر عما فى هذه العقيدة من انحراف وما فى هذه الشريعة من تحريف – فلقد قامت أزمة فى "الكنيست" مجلس تشريعهم فى إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها – من غير اليهود – أطعمة غير شرعية . وارغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعى وحده – مهما تعرضت للخسارة – فأين من يدعون أنفسهم "مسلمين ! " من هذا الاستمساك بالدين ؟!! إن بيننا اليوم – ممن يقولون:إنهم مسلمون ! – من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق , وبخاصة أخلاق المعاملات المادية . وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم . يتساءلون أولا فى استنكار:وما للإسلام وسلوكنا الشخصى ? ما للإسلام والعرى فى الشواطىء ? ما للإسلام وزى المرأة فى الطريق ? ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأى سبيل ? ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ? ما للإسلام وهذا الذى يفعله "المتحضرون" ?! . . فأى فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ?) وهم يتساءلون ثانيا . بل ينكرون بشدة وعنف . أن يتدخل الدين فى الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد . . فما للدين والمعاملات الربوية ? وما للدين والمهارة فى الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعى ? لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت فى الاقتصاد تفسده . وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية – النظرية الأخلاقية مثلا – ويعدونها تخليطا من أيام زمان ! فلا يذهبن بنا الترفع كثيرا على أهل مدين فى تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم فى جاهلية أشد جهالة ،

ولكنها تدعى العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة فى الله ، والسلوك الشخصى فى الحياة ، والمعاملات المادية فى السوق . . تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود !!! وما تستقيم عقيدة توحيد الله فى القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض. فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك فى قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذى نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقى عليها المشركون فى كل زمان وفى كل مكان ! ويسخر أهل مدين من شعيب – كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق –فيقولون (إنك لأنت الحليم الرشيد !) وهم يعنون عكس معناها . فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير , وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل فى السوق ! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين !!! ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذى معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم . . يتلطف فى إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده فى ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتى من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة فى المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ؛ فهو لا يبغى كسبا شخصيا من وراء دعوته لهم ؛ فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق ! إنما هى دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس . وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون (قال:يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله , عليه توكلت وإليه أنيب) ... (يا قوم . . .) فى تودد وتقرب ، وتذكير بالأواصر القريبة (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ؟) أجد حقيقته فى نفسى وأستيقن أنه هو يوحى إلى ويأمرنى بما أبلغكم إياه . وعن هذه البينة الواضحة فى نفسى ، أصدر واثقا مستيقنا (ورزقنى منه رزقا حسنا) ومنه الثروة التى أتعامل مع الناس مثلكم فيها . (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأحقق لنفسى نفعا به ! (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذى يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ; وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصى ، ويضيع بعض الفرص . فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ؛ ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا , ومجتمعا متضامنا متعاونا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام ! (وما توفيقى إلا بالله) فهو القادر على إنجاح مسعاى فى الإصلاح بما يعلم من نيتى ، وبما يجزى على جهدى (عليه توكلت) عليه وحده لا اعتمد على غيره (وإليه أنيب) إليه وحده أرجع فيما يحزبنى من الأمور ، وإليه وحده أتوجه بنيتى وعملى ومسعاى ثم يأخذ بهم فى واد آخر من التذكير ، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط: فقد يفعل هذا فى مثل تلك القلوب الجاسية ما لم يفعله التوجيه العقلى اللين الذى يحتاج إلى رشد وتفكير (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد) لا يجملنكم الخلاف معى والعناد فى مواجهتى على أن تلجوا فى التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم . وهؤلاء قوم لوط قريب منكم فى المكان . وقريب كذلك فى الزمان . فمدين كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم – وهم فى مواجهة العذاب والهلاك – باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم فى رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود) وهكذا يطوف بهم فى مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين . ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم فى الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب (قالوا:يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك , وما أنت علينا بعزيز) فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) وهم يقيسون القيم فى الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة (وإنا لنراك فينا ضعيفا) فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التى يحملها ويواجههم بها (ولولا رهطك لرجمناك) ففى حسابهم عصبية العشيرة ، لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لا صلة القلب . ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها فى الحساب (وما أنت علينا بعزيز) لا عزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر . ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة ! وحين تفرغ النفوس من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه . أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل فى تلك النفوس الفارغة الخاوية . وعندئذ تأخذ شعيبا الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ; ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة فى هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون . ويلقى كلمته

الفاصلة الأخيرة . ويفاصل قومه على أساس العقيدة ، ويخلى بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذى ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذى يختارون(قال:يا قوم:ارهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربى بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب) (ارهطى أعز عليكم من الله ؟) . . أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس ، وهم ضعاف ، وهم عباد من عباد الله . . أهؤلاء أعز عليكم من الله ؟ . . أهؤلاء أشد قوة ورهبة فى نفوسكم من الله ؟ (واتخذتموه وراءكم ظهريا) وهى صورة حسية للترك والإعراض ، تزيد فى شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه , وهم من خلقه ، وهو رازقهم وممتعهم بالخير الذى هم فيه . فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير (إن ربى بما تعملون محيط) والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشىء والقدرة عليه . إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله – سبحانه – ووقاره . الغضبة التى لا يقوم إلى جوارها شىء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه . . إن شعيبا لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذى يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه – الذين افترق طريقهم عن طريقه – وهذا هو الإيمان فى حقيقته . . أن المؤمن لا يعتز إلا بربه ؛ ولا يرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه , إنما هى لربه ودينه . وهذا هو مفرق الطريق فى الحقيقة بين التصور الإسلامى والتصور الجاهلى فى كل أزمانه وبيئاته ! ومن هذه الغضبة لله . والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدى الذى يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم – بعد أن كان واحدا منهم – ويفترق الطريقان فلا يلتقيان (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) وامضوا فى طريقكم وخطتكم ، فقد نفضت يدى منكم (إنى عامل) على طريقتى ومنهجى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أنا أم أنتم ؟ (وارتقبوا إنى معكم رقيب) للعاقبة التى تنتظرنى وتنتظركم . . وفى هذا التهديد ما يوحى بثقته بالمصير . كما يوحى بالمفاصلة وافتراق الطريق . ويسدل الستار هنا . على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة , ليرفع هناك على مصرع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين فى ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التى أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأن لم يعمروها حينا من الدهر . مضوا مثلهم مشيعين باللعنة ، طويت صفحتهم فى الوجود وصفحتهم فى القلوب (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها . ألا بعدا لمدين ، كما بعدت ثمود)وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد . وخاتمة ذلك القصص هذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه , ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره . وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة القصة التى لم تذكر هنا ، كما تضم مشهدا من مشاهد القيامة الحية المتحركة . وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسى من مبادىء الإسلام . مبدأ التبعة الفردية التى لا يسقطها اتباع الرؤساء والكبراء . . ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزودا بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذى السلطان وكبراء قومه (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه) ويجمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها , فإذا هم يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على ما فى أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط (فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد) ولما كانوا تبعا لفرعون فى هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأى ، مستهينين بأنفسهم ، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق . . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعا (يقدم قومه يوم القيامة) وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى ووعدا عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى (فأوردهم النار)!! أوردهم كما يورد الراعى قطيع الغنم . ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير ؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار ؟ فأوردهم النار . ويا بئساه من ورد لا يروى غلة ، ولا يشفى صدى ، إنما يشوى البطون والقلوب (وبئس الورد المورود !) وإذا ذلك كله . قيادة ففرعون لهم ، وإيرادهم موردهم . . إذا ذلك كله حكاية تروى , ويعلق عليها (وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة) ويسخر منها ويتهكم عليها (بئس الرفد المرفود) فهذه النار هى الرفد والعطاء والمنة التى رفد بها فرعون قومه !!! ألم يعد السحرة عطاء جزيلا ورفدا مرفودا . . فها هو ذا رفده لمن اتبعه . . النار . . وبئس الورد المورود . وبئس الرفد المرفود ! وذلك من بدائع التعبير والتصوير فى هذا الكتاب العجيب . .

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ{١٠٠} وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ{١٠١} وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ{١٠٢} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ{١٠٣} وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ{١٠٤} يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ{١٠٥} فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ{١٠٦} خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{١٠٧} وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ{١٠٨} فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ{١٠٩} وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ{١١٠} وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{١١١} فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{١١٢} وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ{١١٣} وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ{١١٤} وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{١١٥}

خاتمة السورة . تشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة ,مبنية على ما سبق في سياق السورة . من المقدمة ومن القصص . وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة ، متكاملة معه فى أداء أهدافها كذلك .

والتعقيب الأول فى هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء – لما جاء أمر ربك – وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إن أخذه أليم شديد)

والتعقيب الثانى يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحيا بالخوف من عذاب الآخرة الذى يعرض فى مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد . فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض – إلا ما شاء ربك – إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض – إلا ما شاء ربك – عطاء غير مجذوذ)

يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد ﷺ شأنهم شأن من قبلهم فى الحالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم فى الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا , وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ،إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ثم عودة إلى القرون الخالية التى لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد فى الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هى فيه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون: فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ! إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون .وكشف عن سنة الله فى كون الناس مختلفين فى مناهجهم واتجاهاتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدرا من الاختيار (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن

جهنم من الجنة والناس أجمعين) وفى النهاية يسجل السياق غرضا من أغراض هذا القصص هوتثبيت فؤاد النبى ﷺ ويؤمر الرسول أن يلقى للمشركين كلمته الأخيرة ، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله . وأن يعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع له أخذ الناس بما يعملون (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون:اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون)

...

(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك . منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ؛ فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إن أخذه أليم شديد) ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون فى لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار . وما حل بهم من قبل فى الدنيا يخايل للأنظار . . فى هذا الموضع وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد . . هنا يأتى هذا التعقيب (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحى ينبئك بهذا الغيب المطمور . وذلك بعض أغراض القصص فى القرآن (منها قائم) لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران ، كبقايا عاد فى الأحقاف وبقايا ثمود فى الحجر . ومنها (حصيد) كالزرع المحصود . اجتث من فوق الأرض وتعرى وجهها منه ، كما حل بقوم نوح أو قوم لوط . وما الأقوام ؟ وما العمران ؟ . . إن هى إلا حقول من الأناسى كحقول النبات . غرس منها يزكو وغرس منها خبيث ! غرس منها ينمو وغرس منها يموت ! (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) فهم قد عطلوا مداركهم ، وتولوا عن الهدى ، وكذبوا بالآيات ، واستهزأوا بالوعيد ، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب) وهذا غرض آخر من أغراض هذا القصص . فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه ؛ وتكرر الإنذار مع كل رسول ؛ وقيل لهم:إن هذه الأرباب المفتراة لا تعصمهم من الله . . فها هى ذى العاقبة تصدق النذر . فلا تغنى عنهم آلهتهم شيئا ، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك ، بل ما زادهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودمارا] . ولفظ تتبيب أقوى ببنائه اللفظى وجرسه المشدد] ذلك أنهم اعتمدوا عليهم ، فزادوا استهتارا وتكذيبا . فزادهم الله نكالا وتدميرا . فهذا معنى (ما زادوهم)فهم لا يملكون لهم ضرا كما أنهم لا يملكون لهم نفعا . ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) كذلك الذى قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهى ظالمة . . ظالمة:مشركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد فى الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح . وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون (إن أخذه أليم شديد) بعد الإمهال والمتاع والابتلاء ، وبعد الإعذار بالرسل والبينات ، وبعد أن يسود الظلم فى الأمة ويسيطر الظالمون . ويتبين أن دعاة الحق المصلحين قلة منعزلة لا تأثير لها فى حياة الجماعة الظالمة السادرة فى الضلال . . ثم . . بعد أن تفاصل العصبة المؤمنة قومها السادرين فى الضلال ؛ وتعتبر نفسها أمة وحدها لها دينها ولها ربها ولها قيادتها المؤمنة ولها ولاؤها الخاص فيما بينها . وتعلن الأمة المشركة من قومها بهذا كله ، وتدعها تلاقى مصيرها الذى يقدره الله لها . وفق سنته التى لا تتخلف على مدار الزمان . .. ذلك الأخذ الأليم الشديد فى الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أى الذين تفتحت بصائرهم ليدركوا أن الذى يأخذ القرى بظلمها فى هذه الحياة سيأخذها بذنوبها فى الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب . . وهنا يعبر السياق بالقلب البشرى من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن فى وصل الرحلتين بلا فاصل فى السياق:(إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد . فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - عطاء غير مجذوذ (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) ففى ذلك الأخذ الأليم الشديد مشابه من عذاب الآخرة ، تذكر بهذا اليوم وتخيف وإن كان لا يراها إلا الذين يخافون الآخرة فتتفتح بصائرهم بهذه التقوى التى تجلو البصائر والقلوب . . والذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ، ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ، ولا ترى إلا واقعها

القريب فى هذه الدنيا ، وحتى العبر التى تمر فى هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهما . ثم يأخذ فى وصف ذلك اليوم (ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) وهنا يرتسم مشهد التجميع يشمل الخلق جميعا ، على غير إرادة منهم ، إنما هو سوق الجميع سوقا إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) فالصمت الهائل يغشي الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه . والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء الله فيخرج من صمته بإذنه . . ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع (فمنهم شقى وسعيد) ومن خلال التعبير نشهد (الذين شقوا) نشهدهم فى النار مكروبى الأنفاس (لهم فيها زفير وشهيق) من الحر والكتمة والضيق . ونشهد (الذين سعدوا) نشهدهم فى الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع . هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم (ما دامت السماوات والأرض) وهو تعبير يلقي فى الذهن صفة الدوام والاستمرار . وللتعبير ظلال . وظل هذا التعبير هنا هو المقصود . وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله فى كلتا الحالتين . وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله فى النهاية . فمشيئة الله هى التى اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها . إنما هي طليقة تبدل هذه السنة حين يشاء الله (إن ربك فعال لما يريد) وزاد السياق فى حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتى على فرض تبديل إقامتهم فى الجنة . وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد . بعد هذا الاستطراد إلى المصير فى الآخرة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام فى الدنيا , والمشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو هنا ثم هناك . . يعود السياق بما يستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول ﷺ والقلة المؤمنة معه فى مكة – تسرية وتثبيتا ؛ وإلى المكذبين من قومه بيانا وتحذيرا. فليس هناك شك فى أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون – شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر – ونصيبهم الذى يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى – بعد اختلافهم فى دينهم – لأمر قد شاءه الله فى إنظارهم . ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفى الموعد المحدود . ولم يؤخر عنهم العذاب لأنهم على الحق . فهم على الباطل الذى كان عليه آباؤهم بكل تأكيد (فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء . ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل . وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) لا يتسرب إلى نفسك شك فى فساد عبادة هؤلاء . والخطاب للرسول [ص] والتحذير لقومه . وهذا الأسلوب أفعل فى النفس أحيانا ، لأنه يوحى بأنها قضية موضوعية يبينها الله لرسوله ، وليست جدالا مع أحد ، ولا خطابا للمتلبسين بها ، إهمالا لهم وقلة انشغال بهم ! وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها فى اهتمامهم أكثر مما لو خوطبوا بها خطابا مباشرا . . ومصيرهم إذن كمصيرهم . . العذاب . . ولكنه يلفه كذلك فى التعبير تمشيا مع الأسلوب (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) ومعروف نصيبهم هذا من نصيب القوم قبلهم . وقد رأينا منه نماذج ومشاهد ! وقد لا يصيبهم عذاب الاستئصال – فى الدنيا – كما لم يصب قوم موسى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم ، ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة: (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) ولحكمة ما سبقت هذه الكلمة ، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتابا ، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذى أنزل فيه . والأمر ليس كذلك فى الخوارق المادية التى لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها وإما أن لا يؤمن فيأخذه العذاب . . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجيء الكتاب الأخير ، مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل فيصبح هو الكتاب الأخير للناس جميعا يدعى إليه الناس جميعا ، ويحاسب على أساسه الناس جميعا ، بما فيهم أهل التوراة وأهل الإنجيل (وإنهم) . . أى قوم موسى . . (لفى شك منه مريب). . من كتب موسى , لأنه لم يكتب إلا بعد أجيال , وتفرقت فيه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه . وإذا كان العذاب قد أجل . . فإن الكل سيوفون أعمالهم خيرها وشرها . سيوفيهم بها العليم الخبير بها ولن تضيع (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم . إنه بما يعملون خبير) "وفى التعبير توكيدات منوعة حتى لا يشك أحد فى الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيل . وحتى لا يشك أحد فى أن ما عليه القوم هو الباطل الذى لا شك فى بطلانه ، وأنه الشرك الذى زاوله من قبل كل المشركين ولقد كان لهذه التوكيدات ما يقتضيها من واقع الحركة فى تلك الفترة . فقد وقف المشركون وقفتهم العنيدة منها ومن رسول الله ﷺ والقلة المؤمنة معه ، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب . بينما عذاب الله الموعود مؤجل لم يقع بعد . والأذى ينزل بالعصبة المؤمنة ويمضى أعداؤها ناجين ! . . إنها فترة تهتزفيها بعض القلوب . وحتى القلوب الثابتة تنالها الوحشة , وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت . وتثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله ، وأنهم على الباطل الذى لا شك فيه ! كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشيء كما يكون بجلاء حكمة الله فى إمهال الظالمين , وإرجاء الطغاة إلى

يوم معلوم ، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون ! وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهذه العقيدة فى النصوص القرآنية ، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة ، وكيف يكشف لها معالم الطريق ! ... ذلك البيان مع هذا التوكيد يلقى فى النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها فى خلقه وفى دينه وفى وعده وفى وعيده . وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم – كما أمروا – لا يغلون فى الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق . ثم يتزودون بزاد الطريق ، ويصبرون حتى تتحقق سنة الله عندما يريد (فاستقم كما أمرت – ومن تاب معك – ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين , واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) هذا الأمر للرسول ﷺ ومن تاب معه (فاستقم كما أمرت) أحس – عليه الصلاة والسلام – برهبته وقوته حتى روى عنه أنه قال مشيرا إليه " شيبتني هود . . . " . فالاستقامة:الاعتدال والمضى على النهج دون انحراف . وهو فى حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحرى الدائم لحدود الطريق , وضبط الانفعالات البشرية التى تميل الاتجاه قليلا أو كثيرا . . ومن ثم فهى شغل دائم فى كل حركة من حركات الحياة (إنه بما تعملون بصير) والبصر – من البصيرة – مناسب فى هذا الموضع ، الذى تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير .فاستقم – أيها الرسول – كما أمرت . ومن تاب معك (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ولا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا . إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القوة فى الأرض ، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبدونهم لغير الله من العبيد . . لا تركنوا إليهم فإن ركونهم إليهم يعنى إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذى يزاولونه ، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير (فتمسكم النار) جزاء هذا الانحراف (وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) والاستقامة على الطريق فى مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين والله – سبحانه – يرشد رسوله ﷺ ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذى يبقى حين يفنى كل زاد ، والذى يقيم البنية الروحية , ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب ، وينسم عليها نسمة الأنس فى وحشتها وعزلتها فى تلك الجاهلية النكدة الكنود ! والآية هنا تذكر طرفى النهار – وهما أوله وآخره ، وزلفا من الليل أى قريبا من الليل . وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دون تحديد عددها . والعدد محدد بالسنة ومواقيته كذلك . والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة – أى أدائها كاملة مستوفاة – بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل حسنة ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهى داخلة فيه بالأولوية . لا أن الصلاة هى الحسنة التى تذهب السيئة بهذا التحديد – كما ذهب بعض المفسرين (ذلك ذكرى للذاكرين) فالصلاة ذكر فى أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب والاستقامة فى حاجة إلى الصبر . كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله فى المكذبين يحتاج إلى الصبر . . ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة وعلى ما سبقه فى السياق هو:(واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) والاستقامة إحسان . وإقامة الصلاة فى أوقاتها إحسان . والصبر على كيد التكذيب إحسان . . .والله لا يضيع أجر المحسنين . . .

فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ{١١٦} وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ{١١٧} وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ{١١٨} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{١١٩} وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{١٢٠} وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ{١٢١} وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ{١٢٢} وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ){١٢٣}

ثم يعود السياق إلى تكملة التعليق والتعقيب على مصارع القرى والقرون . فيشير من طرف خفى إلى أنه لو كان فى هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد فى الأرض ، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الإستئصال الذى حل بهم ، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين ، أى إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد ، إنما كان فى هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة ، فأنجاهم الله . وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم والخانعين لهم ، فأهلك القرى بأهلها الظالمين (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ! إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله فى الأمم . فالأمة التى يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله ، فى صورة من صوره ، فيجد من ينهض لدفعه هى أمم ناجية ، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير . فأما الأمم التى يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر فى الواقع الفاسد ، فإن سنة الله تحق عليها ، إما بهلاك الاستئصال . وإما بهلاك الانحلال . . والاختلال ! والتعقيب الأخير عن اختلاف البشر إلى الهدى وإلى الضلال ، وسنة الله المستقيمة فى اتجاهات خلقه إلى هذا أو ذاك (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين - إلا من رحم ربك - ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك:لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد . . نسخا مكرورة لا تفاوت بينها ولا تنويع فيها . وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض . وليست طبيعة هذا المخلوق البشرى الذى استخلفه الله فى الأرض . ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته . وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه . وأن يختار هو طريقه ، ويحمل تبعة الاختيار . ويجازى على اختياره للهدى أوللضلال . شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة . فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين . وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون فى أصول العقيدة - إلا الذين أدركتهم رحمة الله - الذين اهتدوا إلى الحق - والحق لا يتعدد - فاتفقوا عليه . وهذا لا ينفى أنهم مختلفون مع أهل الضلال ومن المقابل الذى ذكره النص (وتمت كلمة ربك:لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يفهم أن الذين التقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هو الجنة تمتلىء بهم كما تمتلىء جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق ، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة ! والخاتمة الأخيرة . خطاب للرسول ﷺ عن حكمة سوق القصص إليه فى خاصة نفسه للمؤمنين . فأما الذين لا يؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ، وليخل بينهم وبين ما ينتظرهم فى غيب الله . ثم ليعبد الله وليتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون:اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون) ويا لله للرسول ﷺ لقد كان يجد من قومه ، ومن انحرافات النفوس ، ومن أعباء الدعوة ، ما يحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه - وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (وجاءك فى هذه الحق) أى فى هذه السورة . . الحق من أمر الدعوة ، ومن قصص الرسل ، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشرى والوعيد (وموعظة وذكرى للمؤمنين) تعظهم بما سلف فى القرون وتذكرهم بسنن الله وأوامره ونواهيه فأما الذين لا يؤمنون بعد ذلك فلا موعظة لهم ولا ذكرى . وإنما الكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الحاسمة (وقل للذين لا يؤمنون:اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون) كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم فى هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه . . وما ينتظرونه غيب من غيب الله (ولله غيب السماوات والأرض) والأمر كله إليه . أمرك وأمر المؤمنين ، وأمر الذين لا يؤمنون ، وأمر هذا الخلق كله ما كان فى غيبه وما سيكون (فاعبده) فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة (وتوكل عليه) فهو الولى وحده والنصير . وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد (وما ربك بغافل عما تعملون)

وهكذا تختم السورة التى بدئت بالتوحيد فى العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله فى النهاية . بمثل ما بدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده . والرجعة إليه فى نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف فى آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون . .

وهكذا يلتقى جمال التنسيق الفنى فى البدء والختام ، والتناسق بين القصص والسياق ، بكمال النظرة والفكرة والاتجاه فى هذا القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . .

وبعد . فإن المتتبع لسياق هذه السورة كلها - بل المتتبع للقرآن المكى كله - يجد أن هناك خطا أصيلا ثابتا عريضا عميقا ، هو الذى ترتكز عليه ؛ وهو المحور الذى تدور حوله ; وإليه ترجع سائر خطوطها ، وإليه تشد جميع خيوطها كذلك . . إنه خط العقيدة الذى يرتكز إليه هذا الدين كله . . وإنه محور العقيدة الذى يدور عليه هذا المنهج الربانى لحياة البشرية جملة وتفصيلا . .

وسنحتاج - فى التعقيب الإجمالى على هذه السورة - أن نقف وقفات إجمالية كذلك على ذلك الخط وعلى هذا المحور - كما يتجلى فى سياق السورة - وبعضها مما يكون قد سبق لنا الوقوف عنده شيئا ما . ولكننا فى هذا التعقيب الإجمالى سنحتاج إلى الإلمام به ، ربطا لأجزاء هذا التعقيب الأخير:

إن الحقيقة الأولى البارزة فى سياق السورة كله . . سواء فى مقدمتها التى تعرض مضمون الكتاب الذى أرسل به محمد ﷺ أو فى القصص الذى يعرض خط الحركة بالعقيدة الإسلامية على مدى االتاريخ البشرى . أو فى التعقيب الختامى الذى يوجه رسول الله ﷺ إلى مواجهة المشركين بالنتائج النهائية المستخلصة من هذا القصص ومن مضمون الكتاب الذى جاءهم به فى النهاية هى التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة غيره . . وتقرير أن هذا هو الدين كله . . وإقامة الوعد والوعيد , والحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ، على هذه القاعدة الواحدة الشاملة العريضة . . كما أسلفنا فى تقديم السورة وفى مواضع متعددة من تفسيرها فيبقى هنا أن نجلى أولا طريقة المنهج القرآنى فى تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة :إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد فى صيغتين هكذا (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . .) (ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير . . .) وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهى . . فهل مدلولهما واحد ؟ إن مدلول الصيغة الأولى:الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه . . ومدلول الصيغة الثانية:النهى عن عبادة غير الله والمدلول الثانى هو مقتضى المدلول الأول ومفهومه . . ولكن الأول "منطوق" والآخر" مفهوم" . . ولقد اقتضت حكمة الله - فى بيان هذه الحقيقة الكبيرة - عدم الاكتفاء بالمفهوم , فى النهى عن عبادة غير الله . وتقرير هذا النهى عن طريق منطوق مستقل . وإن كان مفهوما ومتضمنا فى الأمر الأول ! إن هذا يعطينا إيحاء عميقا بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها فى ميزان الله سبحانه , بحيث تستحق ألا توكل إلى المفهوم المتضمن فى الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وأن يرد النهى عن عبادة سواه فى منطوق مستقل يتضمن النهى بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن ! ولا بالمقتضى اللازم ! كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآنى فى تقرير تلك الحقيقة بشطريها . . عبادة الله . وعدم عبادة سواه . . أن النفس البشرية فى حاجة إلى النص القاطع على شطرى هذه الحقيقة سواء . وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ; وإضافة النهى الصريح عن عبادة سواه إلى المفهوم الضمنى الذى يتضمنه الأمر بعبادته وحده . . ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ، ولا يتركون عبادته ، ولكنهم مع هذا - يعبدون معه غيره ؛ فيقعون فى الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون ! ومن ثم جاء التعبير القرآنى عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهى معا ؛ بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذى لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك فى صورة من صوره الكثير . وقد تكرر مثل هذا التعبير القرآنى فى مواضع شتى ؛ هذه نماذج منها من هذه السورة (ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير:ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير . . [هود:١ - ٢] (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه:إنى لكم نذير مبين:ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) [هود:٢٥ - ٢٦] (وإلى عاد أخاهم هودا ، قال:يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترونه) هود: ٥٠]

وهو منهج مطرد فى التعبير القرآنى عن حقيقة التوحيد ، له دلالته من غير شك . سواء فى تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التى تستدعى ألا توكل فى أى جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة ، وإنما ينص نصا منطوقا على كل جانب فيها . أو فى دلالة هذه الطريقة على علم الله - سبحانه - بطبيعة الكائن الإنسانى , وحاجته فى تقرير هذه الحقيقة الكبيرة ، وصيانتها فى حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش ، إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو ، الذى يتجلى فيه القصد والعمد . . ولله الحكمة البالغة . . وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . ثم نقف أمام مدلول مصطلح "العبادة " الوارد فى السورة - وفى القرآن كله - لندرك ما وراء ذلك التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة غيره . وما وراء هذه العناية فى التعبير عن شطرى هذه الحقيقة فى نص منطوق ، وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنية المفهومة إن إطلاق مصطلح "العبادات" على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل ، فى مقابل إطلاق مصطلح":المعاملات" على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل . . إن هذا جاء متأخرا عن عصر نزول القرآن الكريم ؛ ولم يكن هذا التقسيم معروفا فى العهد الأول .

"وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية . . وما من أضحية يقدمها عابد الله لله ، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة ! من الأموال والأنفس والأعراض . .

وتقام أصنام من "الوطن" ومن "القوم" ومن "الجنس" ومن "الطبقة " ومن "الإنتاج" . . . ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب . .

وتدق عليها الطبول ؛ وتنصب لها الرايات ؛ ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد . . وإلا فالتردد هو الخيانة ، وهو العار . . وحتى حين يتعارض العرض . مع متطلبات هذه الأصنام ، فإن العرض هو الذى يضحى ؛ ويكون هذا هو الشرف الذى يراق على جوانبه الدم ! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام ، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام ! إن كل التضحيات التى يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده فى الأرض ؛ وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذى أراده الله للإنسان . . إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد فى سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله ! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذ هم جاهدوا فى سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله فى الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض . . إن تكاليف الجهاد فى سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ؛ وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار ! وأخيرا فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه , ذو قيمة كبيرة فى صيانة الجهد البشرى من أن ينفق فى تأليه الأرباب الزائفة . كى يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها ، وترقية الحياة فيها .

لقد هربت أوربا من الله – فى أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف – وثارت على الله – سبحانه – فى أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التى أهدرت كل القيم الإنسانية فى عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم – ومصالحهم كذلك – فى ظل الأنظمة الفردية [الديمقراطية] وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية ، والأوضاع النيابية البرلمانية ، والحريات الصحفية ، والضمانات القضائية والتشريعية , وحكم الأغلبية المنتخبة . . . إلى آخر هذه الهالات التى أحيطت بها تلك الأنظمة . . ثم ماذا كانت العاقبة ؟ كانت العاقبة هى طغيان "الرأسمالية " ذلك الطغيان الذى أحال كل تلك الضمانات ، وكل تلك التشكيلات ، إلى مجرد لافتات ، أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة فى عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التى تملك رأس المال , فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التى ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم ، فى معزل عن الله سبحانه !!!

"ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها "رأس المال" و" الطبقة " إلى الأنظمة الجماعية ! فماذا فعلوا ؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك"! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التى تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

"وفى كل حالة ، وفى كل وضع ، وفى كل نظام ، دان البشر فيه للبشر ، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة فى كل حال . إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده تكن لغير الله . . والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء . . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم . ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية فى النهاية .

"من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية فى رسالات الله – سبحانه – وفى كتبه . . وهذه السورة نموذج من تلك العناية . . فهى قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام والأوثان فى الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله , فى كل زمان وفى كل مكان ؛ وتتعلق بالجاهليات كلها . . جاهليات ما قبل التاريخ ، وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد" .

والخلاصة التى ينتهى إليها القول فى هذه القضية:أنه يتجلى بوضوح من التقريرات القرآنية بجملتها – وهذه السورة نموذج منها – أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية – التي يعبر عنها فى هذه السورة بالعبادة – هى قضية عقيدة وإيمان وإسلام ؛ وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام ! إنها قضية عقيدة تقوم أو لا تقوم . وقضية إيمان يوجد أو لا يوجد . وقضية إسلام يتحقق أو لا يتحقق . . ثم هى بعد – بعد ذلك لا قبله –

قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل فى شريعة ونظام وأحكام ؛ وفى أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام . وتنفذ فيها الأحكام .

وكذلك فإن قضية "العبادة " ليست قضية شعائر ؛ وإنما هى قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع فى واقع الحياة . . وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية فى المنهج الربانى المتمثل فى هذا الدين . . واستحقت كل هذه الرسل والرسالات . واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .

والآن نجىء إلى تتابع هذا القصص فى السورة ؛ ودلالته على الخط الحركى للعقيدة الإسلامية فى تاريخ البشرية:

لقد بينا من قبل فى التعقيب على قصة نوح أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدى آدم

عليه السلام أبى البشر الأول ، ثم على يدى نوح – عليه السلام – أبى البشر الثانى . . ثم بعد ذلك على يدى كل رسول . . وأن الإسلام يعنى توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر ، وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع:أى توحيد القوامة والحاكمية والتوجه والتشريع .

ثم بينا كذلك أن الجاهلية – سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر ! أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع – أو هما معا – كانت تطرؤ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدى الرسل – عليهم صلوات الله وسلامه – وكانت تفسد عقائدهم وتصوراتهم ، كما تفسد حياتهم وأوضاعهم ؛ بالدينونة لغير الله – سبحانه – سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب ، أو روح أو أرواح شتى ; أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر:كاهن أم ساحر أم حاكم . . فكلها سواء فى دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك ، والخروج من الإسلام إلى الجاهلية .

ومن هذا التتابع التاريخى – الذى يقصه الله سبحانه فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – يتبين خطأ المنهج الذى يتبعه علماء الدين المقارن ; وخطأ النتائج التى يصلون إليها عن طريقه . .

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التى عرفتها البشرية ، ويهمل خط التوحيد الذى جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم – وهم حتى فى تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التى يحوم عليها التاريخ – ذلك المولود الحدث الذى لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل ؛ ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح - ! وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذى جاءت به الرسالات رأسا فى إحدى الجاهليات التاريخية فى صورة توحيد مشوه كتوحيد أخناتون مثلا فى الديانة المصرية القديمة ؛ فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد – ولو على سبيل الاحتمال - وقد جاء أخناتون فى مصر بعد عهد يوسف – عليه السلام – وتبشيره بالتوحيد كما جاء فى القرآن الكريم – حكاية عن قوله لصاحبى السجن فى سورة يوسف –:

)إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون). . . [يوسف:٣٧ – ٤٠]

وهم إنما يفعلون ذلك ، لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج الدينى ، بسبب ما ثار بين الكنيسة الأوروبية والبحث العلمى فى كل صوره فى فترة من فترات التاريخ . فبدأ المنهج وفى عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها ، للوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها . ومن أجل هذا جاء منهجا منحرفا منذ البدء ، لأنه يتعمد الوصول سلفا إلى نتائج معينة ، قبل البدء فى البحث !

وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية الغاشمة فإن المنهج استمر فى طريقه . لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذى قام عليه ، والتقاليد التى تراكمت على هذا الأساس ، حتى صارت من أصول المنهج !

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه . هذا الخطأ الذى طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع . .

على أنه أيا كان المنهج وأيا كانت النتائج التى يصل إليها ؛ فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم . . وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه فى مسألة من المسائل ؛ فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه "مسلم" أن يأخذ بتلك النتائج . ذلك أن التقريرات القرآنية فى مسألة الإسلام والجاهلية ، وسبق الإسلام للجاهلية فى التاريخ البشرى , وسبق التوحيد للتعدد والتثنية . . قاطعة ، وغير قابلة للتأويل . فهى مما يقال عنه:إنه معلوم من الدين بالضرورة . وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة فى هذا الأمر ، أن يختار بين قول الله سبحانه وقول علماء الأديان . أو بتعبير آخر:أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام ! لأن قول الله فى هذه القضية منطوق وصريح ، وليس ضمنيا ولا مفهوما ! إن البشرية اليوم – بجملتها – تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التى أخرجها منها آخر رسول – محمد ﷺ وهى جاهلية تتمثل فى صور شتى:

بعضها يتمثل فى إلحاد بالله سبحانه ، وإنكار لوجوده . . فهى جاهلية اعتقاد وتصور , كجاهلية الشيوعيين .

وبعضها يتمثل فى اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه ، وانحراف فى الشعائر التعبدية وفى الدينونة والاتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم . . وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك .

وبعضها يتمثل فى اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه ، وأداء للشعائر التعبدية . مع انحراف خطير فى تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ومع شرك كامل فى الدينونة والاتباع والطاعة . وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم "مسلمين" ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه – بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية ; مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ؛ ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد !

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين . أو شرك بالله كالآخرين . .

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ؛ تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة ، وأنها تعانى رجعية نكدة إلى الجاهلية التى أنقذها منها الإسلام مرات متعددة ، كان آخرها الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسى لطلائع البعث الإسلامى ، والمهمة الأساسية التى عليها أن تقوم بها للبشرية ؛ ونقطة البدء الحاسمة فى هذه المهمة . إن على هذه الطلائع أن تبدأ فى دعوة البشرية من جديد إلى الدخول فى الإسلام كرة أخرى , والخروج من هذه الجاهلية النكدة التى ارتدت إليها . على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسى:وهو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع فى أمور الحياة كلها لله وحده . . وأنه بغير هذه المدلولات كلها لا يتم الدخول فى الإسلام ؛ ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ; ولا تكون لهم تلك الحقوق التى يرتبها الإسلام لهم فى أنفسهم وأموالهم كذلك . وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعا ، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية , ويصمهم بالكفر أو بالشرك قطعا . . إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التى تعقب الإسلام . فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذى يواجه الجاهلية ، ليرد الناس إلى الله مرة أخرى ، ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح فى نفوس العصبة المسلمة التى تعانى مواجهة الجاهلية الشاملة فى هذه الفترة النكدة من حياة البشرية . . فإنه بدون هذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامى عن أداء واجبها فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية ؛ وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلى – وهى تحسبه مجتمعا مسلما – وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية ، بفقدانها لتحديد نقطة البدء من حيث تقف البشرية فعلا ، لا من حيث تزعم ! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع . . بعيدة جدا .

سورة يوسف

مكية و آياتها ١١١

هذه السورة مكية ، نزلت بعد سورة هود ، فى تلك الفترة الحرجة التى تحدثنا عنها فى تقديم سورة يونس وفى تقديم سورة هود . . بين عام الحزن بموت أبى طالب وخديجة سندى رسول الله ﷺ وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التى جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجا ومخرجا بالهجرة إلى المدينة . . وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التى نزلت فى تلك الفترة الحرجة فى تاريخ الدعوة وفى حياة الرسول ﷺ والعصبة المسلمة معه فى مكة والسورة مكية بجملتها ، على خلاف ما ورد فى المصحف الأميرى من أن الآيات [١ ، ٢] 7 , 3 , منها مدنية . ذلك أن الآيات الثلاث الأولى هذا نصها (الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) وهذه الآيات هى مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء فى قصة يوسف عليه السلام . . ونص الآية التالية فى السياق هو (إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لى ساجدين) ثم تمضى القصة بعد ذلك فى طريقها إلى النهاية . فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) يبدو هو التقديم الطبيعى المصاحب لنزول القصة ، وكذلك هذه الأحرف المقطعة [الر] وتقرير أنها آيات الكتاب المبين . ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآنا عربيا . . هو كذلك من جو القرآن المكى ، ومواجهة المشركين فى مكة بعربية القرآن الذى كانوا يدعون أن أعجميا يعلمه لرسول الله !ﷺ وتقرير أنه وحى من الله كان النبى ﷺ من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته . ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة فى نهايتها ، وهو قول الله تعالى :ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . . فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ؛ ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب . أما الآية السابعة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلا ؛ ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت فى مكة وهى ليست من سياقها ثم أضيفت إليها فى المدينة ! ذلك أن فى الآية الثامنة ضميرا يعود على يوسف وإخوته فى هذه الآية السابعة ، بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن تكون معها الآية السابقة . وهذا نصها (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين) مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معا ، فى سياق السورة الموصول . والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وفى إيحاءاتها . بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة . . ففى الوقت الذى كان رسول الله ﷺ يعانى من الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش - منذ عام الحزن - وتعانى معه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله - سبحانه - يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات: محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته فى قصر العزيز . ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق فى يديه ، وهو يتحكم فى أقوات الناس وفى رقابهم ، وفى يديه لقمة الخبز التى تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه فى الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها . . هذه المحن والابتلاءات التى صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها ، وخرج منها كلها متجردا خالصا ؛ آخر توجهاته ,وآخر اهتماماته ، فى لحظة الانتصار على المحن جميعا ؛ وفى لحظة لقاء أبويه ولم شمله ؛ وفى لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها (إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لى ساجدين) آخر توجهاته وآخر اهتماماته فى هذه اللحظة هى التوجه المخلص المتجرد المنيب إلى ربه ، منخلعا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال:ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم . . رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى

من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض . أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين)

وهكذا كانت طلبته الأخيرة . . بعد ذلك كله وهو فى غمرة السلطان والرخاء ولمة الشمل . . أن يتوفاه ربه مسلما ، وأن يلحقه بالصالحين . . وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير . .فلا عجب أن تكون هذه السورة . بما احتوته من قصة ذلك النبى الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك ، مما يتنزل على رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة معه فى مكة ، فى هذه الفترة بالذات ، تسلية وتسرية ، وتطمينا كذلك وتثبيتا للمطاردين المغتربين المتوحشين ! لا بل أن الخاطر ليذهب بى اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكونفيها النصر والتمكين ؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراها تحت التهديد ! كما أخرج يوسف من حضن أبيه ، ليواجه هذه الابتلاءات كلها . ثم لينتهى بعد ذلك إلى النصر والتمكين: (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه فى مصر فى قصر العزيز . . حتى وهو ما يزال فتى يباع بين الرقيق . . ! وما يذهب بى الخاطر إليه اللحظة يجعلنى أتذوق مذاقا خاصا – أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! – ذلك التعقيب الذى أعقب القصة (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل – كما استيأس يوسف فى محنته الطويلة – والتلميح بالمخرج المكروه الذى يليه الفرج المرغوب ! . . الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة ، وهى فى مثل هذه الفترة تعيش ، وفى جوها تتنفس ، فتتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح . من بعيد . . والسورة ذات طابع منفرد فى احتوائها على قصة يوسف كاملة . فالقصص القرآنى – غير قصة يوسف – يرد حلقات ، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذى ورد كاملا فى سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصرا مجملا . أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها فى سورة واحدة . وهو طابع متفرد فى السور القرآنية جميعا . هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ؛ ويؤديها أداء كاملا . . ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف ، وتنتهى بتأويلها . بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات فى سورة وتكون بقيتها فى سورة أخرى وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل فى جميع الوجوه ؛ فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذى من أجله سيقت القصة ، والتعقيبات التى تلتها . وسنحتاج أن نقول كلمة مفصلة – بعض الشىء – عن هذا الأداء الكامل ، تكشف عن ذلك المنهج القرآنى الفريد .

. .وبالله التوفيق . .

إن قصة يوسف – كما جاءت فى هذه السورة – تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام فى الأداء الفنى للقصة ، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج فى الأداء النفسى والعقيدى والتربوى والحركى أيضا . . ومع أن المنهج القرآنى واحد فى موضوعه وفى أدائه ، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص فى عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء !

إن القصة تعرض شخصية يوسف – عليه السلام – وهى الشخصية الرئيسية فى القصة – عرضا كاملا فى كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية فى هذه الجوانب وفى تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التى تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية فى القصة ؛ وهى ابتلاءات متنوعة فى طبيعتها وفى اتجاهاتها . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات . . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا متجردا فى وقفته الأخيرة ، متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا فى نهاية الفقرة السابقة .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية فى القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفى مساحات متناسبة من رقعة العرض ، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفى أوضاع خاصة من الأضواء والظلال . . وتتعامل القصة مع النفس البشرية فى واقعيتها الكاملة . متمثلة فى نماذج متنوعة:نموذج

يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبى المطمئن الموصول . . ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة ، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة ، متميزا فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات فى كل مراحل القصة ومواقفها . . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية فى بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصى الخاص الواضح فى تصرفها وضوح انطباعات البيئة . . ونموذج النسوة من طبقة العلية فى مصر الجاهلية ! والأضواء التى تلقيها على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى فى كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، وفى إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له فى مواجهتهن جميعا . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها ، كما يتجلى فى سجن يوسف بصفة خاصة . . ونموذج "العزيز" وعليه ظلال طبقته وبيئته فى مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ! . . ونموذج "الملك" فى خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز فى منطقة الظلال بعيدا عن منطقة الأضواء فى مجال العرض المتناسق . . وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة فى هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد , وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح "الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها فى كل شخصية وفى كل موقف وفى كل خالجة . . فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام فى الأداء الفنى للقصة ، ذلك الأداء الصادق ، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة . . المنهج الذى لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة ، وفى الوقت ذاته لا ينشىء مستنقعا من الوحل يسميه "الواقعية " كالمستنقع الذى أنشأته "الواقعية " الغربية الجاهلية !

وقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشرى ؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسى ، ودون أن تزور - أى تزوير - فى تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة فى هذه المواقف ، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف ، فإنها لم تسف قط لتنشىء ذلك المستنقع المقزز للفطرة السليمة ، ذلك الذى يسمونه فى جاهلية القرن العشرين "الواقعية " أو يسمونه أخيرا "الطبيعة ! " .

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعى الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف:

إخوة يوسف . . والأحقاد الصغيرة فى قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها ! ثم تزين لهم "المحلل الشرعى ! " الذى يخرجون به من تلك الجريمة . . ملاحظا فى هذا واقعيتهم فى بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه - وانطباعات هذه البيئة فى تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم ، وحاجتهم النفسية - من ثم - إلى مبرر للجريمة ، وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا:ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - ونحن عصبة - إن أبانا لفى ضلال مبين ! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم , وتكونوا من بعده قوما صالحين ! قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة - إن كنتم فاعلين ! - قالوا:يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ! قال:إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب , وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون , قالوا:يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا , فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ونحن نجدهم - هم هم - فى كل مواقف القصة بعد ذلك - كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها - فما إن يذهبوا بأخى يوسف بعدما طلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذى قدموا من بلادهم - كنعان - ليشتروا منه القمح فى سنوات الجدب العجاف ، حيث يدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك فى رحله . . ما إن يروا هذا التدبير - وهم لا يعلمون ما وراءه - حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف (قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال:أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون)كذلك نجدهم - هم هم - بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية فى شيخوخته الحزينة ، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم ، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة (وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون

من الهالكين !) ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه فى النهاية – بعدما كشف لهم عن شخصيته – فلما رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف ، غاظهم هذا الاتصال الباطنى الدال على عمق ما بينه وبين يوسف ، فلم يملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه (ولما فصلت العير قال أبوهم:إنى لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون ! قالوا:تالله إنك لفى ضلالك القديم !) وامرأة العزيز . . فى صرع الشهوة التى تعمى عن كل شىء فى اندفاعها الهائج الكاسح , فلا تحفل حياء أنثويا ولا كبرياء ذاتيا ، كما لا تحفل مركزا اجتماعيا ولا فضيحة عائلية . . والتى تستخدم – مع ذلك – كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء فى تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التى ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تودى بحياته ! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزى الشهوى الذى تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها ! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها , الأنثى التى لا تحس فى إرواء هواتفها الأنثوية أمرا يعاب أصلا ! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشرى الخاص بكل واقعيته ، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعيتها ، فإن الأداء القرآنى – الذى ينبغى أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفنى الإسلامى – لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة – حتى وهو يصور لحظة التعرى النفسى والجسدى الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها – لينشىء ذلك المستنقع الكريه الذى يتمرغ فى وحله كتاب "القصة الواقعية " وكتاب "القصة الطبيعية " فى هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفنى فى الأداء ! (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته:أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت:هيت لك ! قال:معاذ الله ! إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب , وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت:ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ؟! قال:هى راودتنى عن نفسى ، وشهد شاهد من أهلها:إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال:إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم ! يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ! . . وقال نسوة فى المدينة:امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حبا ! إنا لنراها فى ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت:اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقلن:حاش لله ! ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم . قالت:فذلكن الذى لمتننى فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال:رب ، السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه , وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن , إنه هو السميع العليم)

"وكذلك حين نلتقى بها مرة أخرى بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة ؛ وبقى هناك حتى رأى الملك رؤياه ، وتذكر الفتى الذى كان سجينا معه أن يوسف هو وحده الذى يعرف تأويل الرؤيا ، فطلب الملك أن يأتوه به ، فأبى حتى يحقق قضيته ، ويبرىء ساحته , فاستدعاها الملك مع النسوة . وإذا بها ما تزال المرأة المحبة ، مع التغير الطبيعى الواقعى الذى يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف ؛ ومع تسرب الإيمان الذى تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعا (وقال الملك:ائتونى به . فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم . قال:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم) ويوسف . . العبد الصالح – الإنسان – لم يزور الأداء القرآنى فى شخصيته الإنسانية لمحة واحدة ؛ وهو يواجه الفتنة بكل بشريته – مع نشأته فى بيت النبوة وتربيته ودينه – وبشريته تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها . . لقد ضعف حين همت به حتى هم بها ؛ ولكن الخيط الآخر شده وأنقذه من السقوط فعلا . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضا ! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى . . ليست هنالك لمحة واحدة مزورة فى واقعية الشخصية وطبيعتها ; وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفنى ! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه . . والعزيز . . وشخصيته بطبيعتها الخاصة ، وبطبيعة سمت الإمارة ؛ ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعى وستر الظواهر وإنقاذها ! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته (فلما رأى قميصه قد من دبر ، قال:إنه من كيدكن ، إن كيدكن

عظيم . يوسف أعرض عن هذا , واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين !) والنسوة . . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه . . اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذى راودته عن نفسه ، بعدما شغفها حبا ! والاستنكار الذى تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . قم إقرارهن الأنثوى العميق بموقف المرأة التى كن يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها ؛ وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذى يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهى آمنة فى ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن (حاش لله ! ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم) نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام (قال:رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ؛ ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده ! والبيئة التى تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف فى أمر يوسف , على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ; ولا يهم أن يذهب برىء كيوسف ضحيتها (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) فإذا تابعنا شخصية يوسف – عليه السلام – فإننا لا نفتقد فى موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية ، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية ، المتمثلة فى كونه "العبد الصالح – الإنسان – بكل بشريته ، مع نشأته فى بيت النبوة وتربيته ودينه" فهو فى السجن وظلماته – مع الظلم وظلماته ! – لا يغفل عن الدعوة لدينه ، فى كياسة وتلطف – مع الحزم والفصل – وفى إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها . . كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذى يدعو إليه فى سجنه (ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما:إنى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر:إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى , إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبى السجن ، أما أحدكما فيسقى ربه خمرا , وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) وهو – مع هذا كله – بشر ، فيه ضعف البشر . فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التى جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله – سبحانه – شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده (وقال للذى ظن أنه ناج منهما:اذكرنى عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث فى السجن بضع سنين) ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين ، وقد رأى الملك رؤياه ، فحار فى تأويلها الكهنة والسدنة ؛ حتى تذكر صاحب السجن يوسف – بعدما تمت التربية الربانية للعبد الصالح ، فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره – حتى إذا ما طلب الملك – بعد تأويله لرؤياه – أن يأتوه به ، أجاب فى هدوء المطمئن الواثق ؛ وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته (وقال الملك:إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا:أضغاث أحلام , وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة:أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال:تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله ، إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن . إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . . وقال الملك:ائتونى به . . فلما جاءه الرسول قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللآتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم . قال:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنيين . وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى , إن ربى غفور رحيم . . وقال الملك:ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال:إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال:اجعلنى على خزائن الأرض , إنى حفيظ عليم) ومنذ هذه اللحظة التى تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية ، مطمئنة ساكنة واثقة , نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث ، وتتوارى تماما شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة . ويمهد السياق القرآنى لهذا التحول فى القصة وفى الواقع بقوله (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) ومنذ هذه

اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألوانا أخرى من الابتلاءات ، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى ؛ وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعى ، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة . نجد يوسف وهو يواجه – للمرة الأولى – إخوته بعدما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ؛ وهو في الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى . . ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في انفعالاته وتصرفاته: (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال:ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا:سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) ونجده وهو يدبر – بتدبير الله له – كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة ، الضابطة الصابرة (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه:قال:إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن:أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا – وأقبلوا عليهم – ماذا تفقدون ؟ قالوا:نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا:فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا:جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذى علم عليم . قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال:أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون . قالوا:يا أيها العزيز ، إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال:معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون). ثم نلتقى به وقد استوفت المحنة بيعقوب أجلها ، وقدر الله أن تنقضى الابتلاءات التى نزلت به وببيته ، وحن يوسف إلى أبويه وأهله ، ورق لأخوته والضر باد بهم ، فكشف لهم عن نفسه ، فى عتاب رقيق ، وفي عفو كريم ، يجيء في أوانه ، وكل الملابسات توحى به ، وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك (فلما دخلوا عليه قالوا:يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين . قال:هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا:أئنك لأنت يوسف ؟ قال:أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا:تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين . قال:لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصى هذه فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين) وفى النهاية يجيء ذلك الموقف الجليل الرائع . . موقف اللقاء الجامع ويوسف فى أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه . . وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحى جانبا ينفرد بربه ، ويناجيه خالصا له ، وذلك كله مطروح وراءه (رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض . أنت ولى في الدنيا والآخرة . توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) إنها شخصية موحدة متكاملة ، بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية فى نشأتها وبيئتها .

ويعقوب . . الوالد المحب الملهوف ، والنبى المطمئن الموصول ، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معا تلك الرؤيا الواعدة التى رآها يوسف ؛ وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق ، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله فى نفوس بنيه . فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة فى كل جوانبها (إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال:)يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية ، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة: (قالوا:يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون . قال:إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا:يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ؛ فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ثم نلتقى بهذه الشخصية – بكل واقعيتها تلك – وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له . . أخى يوسف . . وقد طلبه منهم عزيز مصر – يوسف – الذى لا يعرفونه ! فى مقابل أن يعطيهم كيلا يقتاتون به فى السنوات العجاف ! (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا:يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون:قال:هلى آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا:يا أبانا ما نبغى ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير . قال:لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله:لتأتننى به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال:الله على ما نقول وكيل . . وقال:يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء ، إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم نلتقى به فى فجيعته الثانية . . والدا ملهوفا ونبيا موصولا . . ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ آخاه . فيتخلف أحد أبناء يعقوب – صاحب الشخصية الخاصة فيهم ، متوافيا مع سماته التى صاحبت مواقفه كلها فى القصة ، مشفقا أن يقابل أباه بعد الموثق الذى آتاه إياه . إلا أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ، قال كبيرهم:ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا:يا أبانا إن ابنك سرق ! وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون . قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وفى آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلى نجد ذات الملامح وذات الواقعية . وهو يشم ريح يوسف فى قميصه ، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك فى صدق ظنه بربه (ولما فصلت العير قال أبوهم:إنى لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا:تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا:يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال:سوف استغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم) إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح ، الواقعية المشاعر والتصرفات ، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف ! والواقعية الصادقة الأمنية النظيفة السليمة فى الوقت نفسه ، لا تقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التى تحفل بها القصة فى هذا المجال الواسع ، على هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك فى واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعيتها فى مكانها وزمانها ، وفى بيئتها وملابساتها . . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجىء فى أوانها ; وتجىء فى الصورة المتوقعة لها ؛ وتجىء فى مكانها من مسرح العرض ؛ متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها . . الأمر الملحوظ فى الشخصيات أيضا كما قررنا من قبل هذا ، حتى لحظات الجنس فى القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة – فى حدود المنهج النظيف اللائق" بالإنسان" فى غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية فى شمولها وصدقها وتكاملها – ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هى كل واقعية الكائن البشرى ؛ وكما لو كانت هى محور حياته كلها ، وهى كل أهداف حياته التى تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق ! إن الجاهلية إنما تمسخ الكائن البشرى باسم الصدق الفنى ! وهى تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هى كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ؛ فتنشىء منها مستنقعا واسعا عميقا ، مزينا فى الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية ! وهى لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هى مخلصة فى تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن "بروتوكولات صهيون" تريد هذا ! تريد تجريد "الإنسان" إلا من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق البشرية كلها فى وحل المستنقع كى تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ؛ فهذه هى أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب "العلمية ! " المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم "الداروينية " وتارة باسم "الفرويدية " وتارة باسم "الماركسية " أو "الاشتراكية العلمية . " .وكلها سواء فى تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة ! والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التى تجرى فيها أحداث القصة ، وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة ، وتسجل سماتها العامة ، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية فى تلك الفترة التاريخية . . ونكتفى ببعض اللمحات والسهام التى ترسم تلك الأبعاد ، إن مصر فى هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ إنما كان يحكمها "الرعاة " الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريبا منهم ، فعرفوا شيئا عن دين الله منهم . نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب" الملك" فى حين يسمى الملك الذى جاء على عهد موسى – عليه السلام – من بعد بلقبه المعروف . "فرعون" . . ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف – عليه

السلام – فى مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ؛ وهى أسر "الرعاة" الذين سماهم المصريون "الهكسوس" ! كراهية لهم ؛ إذ يقال:إن معنى الكلمة فى اللغة المصرية القديمة:"الخنازير" أو "رعاة الخنازير" ! وهى فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن إن رسالة يوسف عليه السلام كانت فى هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو فى السجن ؛ وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ وقررها فى صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة ، فيما حكاه القرآن الكريم من قوله (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهى صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة وشاملة – كما جاء به رسل الله جميعا – من ناحية أصول العقيدة . تحتوى ، الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا ، ومعرفة الله سبحانه بصفاته . . الواحد ، القهار . . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ؛ ومن ثم نفى الأرباب التى تتحكم فى رقاب العباد ، وإعلان السلطان والحكم لله وحده ، ما دام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره . ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هى تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده . وتحديد معنى "العبادة" بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه بالعبادة – أى إفراده بالحكم – فهما مترادفان أو متلازمان (إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم) وهذه هى أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها . وواضح أن يوسف – عليه السلام – عندما سيطر على مقاليد الأمور فى مصر ، استمر فى دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولا بد أن الإسلام انتشر فى مصر على يديه – وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم – وانتشر كذلك فى البقاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره – وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة فى الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا ، مما يصور حالة الجدب التى حلت بالمنطقة كلها فى هذه الفترة . والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التى عرف الرعاة شيئا عنها فى أول القصة , كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها . والإشارة الأولى وردت فى حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف (فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن وقلن:حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم) ووردت فى قول العزيز لامرأته (يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك ؛ إنك كنت من الخاطئين) أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التى يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت فى النهاية ، فيما حكاه عنها السياق القرآنى (قالت امرأة العزيز:الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما ابرىء نفسى . إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم) وإذا اتضح أن ديانة التوحيد – على هذا المستوى – كانت قد عرفت قبل تولى يوسف مقاليد الحكم فى مصر ؛ فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع فى أثناء توليه الحكم ، ثم من بعد ذلك فى عهد أسر الرعاة . فلما استرد الفراعنة زمام الأمور فى الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة فى ذرية يعقوب التى تكاثرت فى مصر ، لإعادة الوثنية التى تقوم عليها الفرعونية ! وهذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبنى إسرائيل – أى يعقوب – إلى جانب السبب السياسى ، وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا فى عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بنى إسرائيل أيضا . . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغى أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع . ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التى يقوم عليها ملك الفراعين ! فهى العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت ، فقد كان الصراع الحقيقى بين عقيدة التوحيد التى تفرد الله سبحانه بالربوبية ، فتفرده بالعبادة – أى بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده – وبين الفرعونية التى تقوم على أساس العقيدة الوثنية ، ولا تقوم إلا بها . ولعل التوحيد الناقص المشوه الذى عرف به "أخناتون" لم يكن إلا أثرا من الآثار المضطربة التى بقيت من التوحيد الذى نشره يوسف عليه السلام فى مصر كما أسلفنا ؛ وبخاصة إذا صح ما يقال فى التاريخ من أن أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية ! وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التى وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها . فنجدها تتجاوز حدود الرقعة المصرية ، وتسجل طابع العصر كله . فواضح تماما انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التى لا تقتصر على أرض واحدة ، ولا على قوم بأعيانهم . . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة فى رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها فى النهاية . وفى رؤيا الفتيين صاحبى السجن . وفى

رؤيا الملك فى النهاية . . وكلها تتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشى بطابع العصر كله ! وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية . غنية كذلك بالعنصر الإنسانى , حافلة بالانفعال والحركة . وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازا قويا . فضلا على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة ، ذات الإيقاع الموسيقى المناسب لكل جو من الأجواء التى يصورها السياق . فى القصة يتجلى عنصر الحب الأبوى فى صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال:فى حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه . وفى استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها . وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوى . وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الإخوة ; فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف فى الجب تلتقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة . . وعنصر المكر والخداع فى صور شتى . من مكر إخوة يوسف به ، إلى مكر امرأة العزيز يوسف وبزوجها وبالنسوة . وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع او بالإحجام . وبالإعجاب والتمنى , والاعتصام والتأبى . وعنصر الندم فى بعض ألوانه ، والعفو فى أوانه . والفرح بتجمع المتفارقين . . وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلى فى طبقة العلية من الملأ:فى البيت والسجن والسوق والديوان – فى مصر يومذاك . والمجتمع العبرانى ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات . وتبدأ القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم , وينصحه بألا يقصها على إخوته كى لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هى تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا فى النهاية أنهى السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كتاب" العهد القديم" بعد هذا الختام الفنى الدقيق ، الوافى بالغرض الدينى كل الوفاء . وما يسمى بالعقدة الفنية فى القصة واضح فى قصة يوسف . فهى تبدأ بالرؤيا كما سبق , ويظل تأويلها مجهولا ، يتكشف قليلا قليلا ، حتى تجىء الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تعمل فيه ولا اصطناع ! والقصة مقسمة إلى حلقات . كل حلقة تحتوى جملة مشاهد . والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تخيل القارىء وتصوره ، ويكمل ما حذف من حركات وأقوال ، مع ما فى هذا من تشويق ومتاع . . وحسبنا هذا القدر من التحليل الفنى لقصة يوسف ، وتمثيلها للمنهج القرآنى الإسلامى فى الأداء . وفى هذا القدر ما يكشف عن مدى الإمكانيات التى يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية فى الأدب الإسلامى ،لتمكينه من الأداء الفنى الكامل والواقعية الصادقة السليمة ، دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلى عن النظافة اللائقة بفن يقدم ل "الإنسان" ! وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها فى مجال الحركة الإسلامية ؛ وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة فى بعض مراحلها . ومع حاجاتها الثابتة التى لا تتعلق بمرحلة خاصة منها . إلى جانب الحقائق الكبرى التى تتقرر من خلال سياق القصة ، ثم من خلال سياق السورة كلها بعد ذلك . وبخاصة تلك التعقيبات الأخيرة فى السورة . .

ونكتفى فى هذا التقديم للسورة بلمحات سريعة من هذا كله:

إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التى جاء بها الرسل جميعا ؛ واستيفاء مقوماتها الأساسية فى كل رسالة ؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه ، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده ، ودينونة البشر له وحده . . كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة . وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه "علم الأديان المقارن" من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيرا جدا ، بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة ؛ وأنها ترقت فى معرفة العقيدة كما ترقت فى معرفة العلوم والصناعات . . هذه المزاعم التى تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات .

كذلك هى تقرر طبيعة ديانة التوحيد التى جاء بها الرسل جميعا . . إنه ليس توحيد الألوهية فحسب . ولكنه كذلك توحيد الربوبية . . وتقرير أن الحكم لله وحده فى أمر الناس كله ؛ وأن هذا التقرير ناشىء من أمر الله سبحانه بألا يعبد إلا إياه . والتعبير القرآنى الدقيق فى هذه القضية يحدد مدلول "العبادة " تحديدا دقيقا . فهى الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر . . وهذا وحده هو "الدين القيم" فلا دين إذن لله ما لم تكن دينونة الناس لله وحده ، وما لم يكن الحكم لله وحده . ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله فيشأن واحد من شؤون الحياة . فتوحيد الألوهية يقتضى توحيد الربوبية . والربوبية تتمثل فى أن يكون الحكم لله . . أو أن تكون العبادة لله . . فهما مترادفان أو متلازمان . والعبادة التى يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هى الدينونة والخضوع والاتباع لحكم الله دون سواه . .

وهذا التقرير القرآنى بصورته هذه الجازمة ينتهى كل جدل فى اعتبار الناس فى أى زمان وفى أى مكان مسلمين أو غير مسلمين ، فى الدين القيم أم فى غير هذا الدين . . فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة . . من دان لغير الله وحكم فى أى أمر من أمور حياته غير الله ، فليس من المسلمين وليس فى هذا الدين . ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفى هذا الدين . . وكل ما وراء ذلك تمحل لا يحاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل فى بيئة من البيئات وفى قرن من القرون ! ودين الله واصح . وهذا النص وحده كاف فى جعل هذا الحكم من المعلوم من الدين بالضرورة . من جادل فيه فقد جادل فى هذا الدين !

ومن الإيحاءات الواردة فى ثنايا القصة صورة الإيمان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلى فى قلبى عبدين صالحين من عباد الله المختارين:يعقوب ويوسف:

فأما يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجردا من كل شىء ، نافضا عنه كل شىء ,متجها إلى ربه ، مبتهلا إليه فى انكسار وفى خشوع يناجيه (رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) ولكن هذا الموقف الأخير لم يكن هو كل شىء فى هذا الجانب ؛ فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف ، موصولا بربه ، يحسه – سبحانه – قريبا منه مستجيبا له (فى موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف (معاذ الله ، إنه ربى أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون) وفى الموقف الآخر وهو يخشى على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك (رب ، السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) وفى موقف تعريف نفسه لأخوته ، يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها (قالوا:أئنك لأنت يوسف ؟ قال:أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية فى مكة ، إلى حاجة الحركة الإسلامية فى كل فترة . وأما يعقوب ففى قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة فى كل موقف وفى كل مناسبة ؛ وكلما اشتد البلاء شفت تلك الحقيقة فى قلبه ورفت بمقدار ما تعمقت وبرزت . . فمنذ البدء ويوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) وفى مواجهة الصدمة الأولى فى يوسف يتجه إلى ربه مستعينا به (قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) وفى مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه ، وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، لا ينسى أن هذا التدبير لا يغنى عنهم من الله شيئا ، وأن الحكم النافذ هو حكم الله وحده ؛ وإنما هى حاجة فى النفس لا تغنى من الله وقدره (وقال:يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون) وفى مواجهة الصدمة الثانية فى كبرته وهرمه وضعفه وحزنه ، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه (قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ؛ إنه هو العليم الحكيم) ثم يبلغ تجلى الحقيقة فى قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء ، وبنوه يؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن ؛ فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه فى قلبه كما لا يجدونها ، ويعلم من شأن ربه ما لا يعلمون ؛ فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه ، ورجاؤه فى رحمته وروحه (وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال:إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ,ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) ولقد ذكرهم بما يعلمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته فى قلبه ، وهم يجادلونه فى ريح يوسف ، وقد صدق الله فيه ظنه (ولما فصلت العير قال أبوهم:إنى لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا:تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال:ألم أقل لكم:إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) إنها الصورة الباهرة لتجلى حقيقة الألوهية فى قلب من قلوب الصفوة المختارة . وهى تحمل الإيحاء المناسب لفترة الشدة فى حياة الجماعة المسلمة فى مكة ؛ كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة ، لكل قلب يعمل فى حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضا . وأخيرا نجىء إلى التعقيبات المتنوعة التى جاءت بعد القصة الطويلة إلى نهاية السورة .

إن التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحي إلي رسول الله ﷺ بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذى لم يكن رسول الله ﷺ حاضرا وقائعه (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثرا موحيا من المؤثرات الكثيرة فى سياق السورة ، لتقرير الحقيقة التي يعرضانها ، وتوكيدها فى مواجهة الاعتراض والتكذيب . ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله ﷺ وتهوين أمر المكذبين علي نفسه . وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات المبثوثة فى كتاب الكون ، وهى حسب الفطرة السليمة في التنبه إلى دلائل الإيمان ، والاستماع إلى الدعوة والبرهان . ثم تهديدهم بعذاب الله الذى قد يفاجئهم وهم غافلون (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟) وهى إيقاعات مؤثرة بقدر ما تحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لا يدينون بدين الله الصحيح . وبخاصة فى قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فهذا هو التصوير العميق لكثير من النفوس التى يختلط فيها الإيمان بالشرك ، لأنها لم تحسم فى قضية التوحيد . وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر الموحى ، بتوجيه الرسول ﷺ إلى تحديد طريقه وتميزها وإفرادها عن كل طريق ، والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد (قل:هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين) ثم تختم السورة بإيقاع اخر يحمل عبرة القصص القرآنى كله ، فى هذه السورة وفى سواها . يحملها للنبى ﷺ والقلة المؤمنة معه ، ومعها التثبيت والتسرية والبشرى ؛ ويحملها للمشركين المعاندين ، ومعها التذكير والعظة والنذير . كما أن فيها للجميع تقريرا لصدق الوحى وصدق الرسول ؛ وتقريرا لحقيقة الوحى وحقيقة الرسالة ، مع تخليص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ? حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ,ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

إنه الإيقاع الأخير . والإيقاع الكبير . .

وبعد فلعل من المناسب فى تقديم السورة التى حوت قصة يوسف ، نموذجا كاملا للأداء الفنى الصادق الجميل ، أن نلم بشيء من لطائف التناسق فى الأداء القرآنى فى السورة بكاملها وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تمثل سائرها:

فى هذه السورة – كما فى السور القرآنية الأخرى – تتكرر تعبيرات معينة ، تؤلف جزءا من جو السورة وشخصيتها الخاصة . وهنا يرد ذكر العلم كثيرا ، وما يقابله من الجهل وقلة العلم فى مواضع شتى:(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين) (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ؛ إنه هو السميع العليم) (قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمنى ربى) (إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا أياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (قال:اجعلنى على خزائن الأرض ؛ إنى حفيظ عليم) (وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) (قال:ألم أقل لكم:إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) وهى ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفة فى هذا الكتاب الكريم .

وفى السورة تعريف بخصائص الألوهية ، وفى مقدمتها "الحكم" وهو يرد مرة على لسان يوسف – عليه السلام – بمعنى الحاكمية فى العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية ,ويأتى مرة على لسان يعقوب – عليه السلام – بمعنى الحاكمية فى العباد من ناحية دينونتهم لله فى صورتها القهرية القدرية ، فيتكامل المعنيان فى تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذى لا يجيء عفوا ولا مصادفة أبدا (

يقول يوسف فى معرض تفنيد ربوبية الحكام فى مصر ومخالفتها لوحدانية الألوهية (يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم) ويقول يعقوب فى معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض (يا بنى:لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون) وهذا التكامل فى مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله فى الحكم ، كالدينونة القهرية له سبحانه فى القدر . فكلاهما من العقيدة ; وليست الدينونة فى القدر القاهر وحدها هى الداخلة فى نطاق الاعتقاد ، بل الدينونة الإرادية فى الشريعة هى كذلك فى نطاق الاعتقاد . ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف المدخل ، صفة الله المناسبة (اللطيف) فى الموقف الذى يتجلى فيه لطف الله فى التصريف (ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا . وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . . إن ربى لطيف لما يشاء . . إنه هو العليم الحكيم) ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق فى السورة بين تقديم القصص ، والتعقيب المباشر عليه ، والتعقيب الختامى الطويل . . وكل هذه التعقيبات تتجه إلى تقرير قضايا واحدة ، وتتلاقى عليها بين البدء والختام . .

وحسبنا فى التعريف بالسورة هذه اللمسات حتى نلتقى بها فى السياق .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{١} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{٢} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ{٣} إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ{٤} قَالَ يَا بُنَىَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{٥} وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{٦} لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ{٧} إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٨} اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ{٩} قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{١٠} قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ{١١} أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{١٢} قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ{١٣} قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ{١٤} فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{١٥} وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ{١٦} قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ{١٧} وَجَاؤُواْ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ{١٨} وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{١٩} وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ){٢٠}

الموضوع:يوسف من بيت أبيه إلى بيت عزيز مصر هذا الدرس هو المقدمة ، ثم الحلقة الأولى من القصة , وتتألف من ستة مشاهد ، وتبدأ من رؤيا يوسف إلى نهاية مؤامرة إخوته عليه ، ووصوله إلى مصر . . وسنواجه النصوص الواردة فيه مباشرة ، بعد ذلك التقديم السابق للسورة , وفيه غناء (ألر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) (ألف . لام . را . . تلك آيات الكتاب المبين) هذه الأحرف وما من جنسها وهى قريبة للناس متداولة بينهم . هى هى بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتابا عربيا مؤلفا من هذه الأحرف العربية المعروفة (لعلكم تعقلون) وتدركون أن الذى يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشرا , فلا بد عقلا أن يكون القرآن وحيا . والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة . ولما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب ، على وجه التخصيص (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص – وهو أحسن القصص – وهو جزء من القرآن الموحى به (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) فقد كنت أحد الأميين فى قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التى جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق . ثم يرفع الستار عن المشهد الأول فى الحلقة الأولى ، لنرى يوسف الصبى يقص رؤياه على أبيه (إذ

قال يوسف لأبيه:يا أبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لى ساجدين . قال:يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) كان يوسف صبيا أو غلاما ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان ; وأقرب ما يراه غلام – حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به – أن يرى هذه الكواكب والشمس والقمر فى حجره أو بين يديه يطولها . ولكن يوسف رآها ساجدة له , متمثلة فى صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيما . والسياق يروى عنه فى صيغة الإيضاح المؤكدة (إذ قال يوسف لأبيه:يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) ثم يعيد لفظ رأى (رأيتهم لى ساجدين) لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنا عظيما لهذا الغلام . لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك . ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها . أما تمامه فلا يظهر إلا فى نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب . ولهذا نصحه بألا يقص رؤياه على إخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير – غير الشقيق – فيجد الشيطان من هذا ثغرة فى نفوسهم ، فتمتلىء نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمرا يسوؤه (قال:يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) ثم علل هذا بقوله (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويزين لهم الخطيئة والشر . ويعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد أحس من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن ، يتجه خاطره إلى أن هذا الشأن فى الدين والصلاح والمعرفة ؛ بحكم جو النبوة الذى يعيش فيه , وما يعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون . فتوقع أن يكون يوسف هو الذى يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة فى بيت إبراهيم . فقال له (وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب , كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم) واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له ، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق [والجد يقال له أب] هذا طبيعى . ولكن الذى يستوقف النظر قوله (ويعلمك من تأويل الأحاديث) والتأويل هو معرفة المآل . فما الأحاديث ؟ . أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذى تنتهى إليه , منذ أوائلها . وهو إلهام من الله لذوى البصائر المدركة النافذة ؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل فى حياة يوسف فيما بعد ؟ كلاهما جائز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب . وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام وهى موضوع هذه القصة وهذه السورة . إننا ملزمون بالأعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد . ملزمون بهذا أولا من ناحية ما ورد فى هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه فى السجن ، ورؤيا الملك فى مصر . وثانيا من ناحية ما نراه فى حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية فى حالات متكررة بشكل يصعب نفى وجوده . . لأنه موجود بالفعل ! والسبب الأول يكفى ولكننا ذكرنا السبب الثانى لأنه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا بتعنت . . فما هى طبيعة الرؤيا ؟ تقول مدرسة التحليل النفسى:إنها صور من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام فى غياب الوعى . وهذا يمثل جانبا من الأحلام . ولكنه لا يمثلها كلها . [وفرويد] ذاته – على كل تحكمه غير العلمى وتمحله فى نظريته – يقرر أن هناك أحلاما تنبؤية . فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية ؟ وقبل كل شىء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها . إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشرى العجيب ، وبعض سنن الله فى هذا الوجود . ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤى على هذا النحو . . إن حواجز الزمان والمكان هى التى تحول بين هذا المخلوق البشرى وبين رؤية ما نسميه الماضى أو المستقبل ، أو الحاضر المحجوب . وأن ما نسميه ماضيا أو مستقبلا إنما يحجبه عنا عامل الزمان ، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان . وأن حاسة ما فى الإنسان لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوى فى بعض الأحيان ، فتتغلب على حاجز الزمان وترى ما وراءه فى صورة مبهمة ، ليست علما ولكنها استشفاف ، كالذى يقع فى اليقظة لبعض الناس ، وفى الرؤى لبعضهم ، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان ، أو هما معا فى بعض الأحيان . وإن كنا فى نفس الوقت لا نعلم شيئا عن حقيقة الزمان . كما أن حقيقة المكان ذاتها – وهى ما يسمى بالمادة – ليست معلومة لنا على وجه التحقيق (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)! ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر:مشهد إخوة يوسف يتآمرون ، مع حركة تنبيه لأهمية ما سيكون (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا:ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) لقد كان فى قصة يوسف وإخوته آيات

وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقب عن الآيات ويسأل ويهتم . وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام . لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات . فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون . ترى حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب "العهد القديم" ؟ إن السياق هنا يفيد أن لا . فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم . أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه . فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له . ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة فى سلسلة الرواية الكبرى المرسومة , لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة ، والتى تمهد لها ظروف حياته ، وواقع أسرته , ومجيئه لأبيه على كبرة . وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء ، وبخاصة حين يكون الوالد فى سن الكبر . كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، وإخوته من أمهات (إذ قالوا:ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة) أى ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفع (إن أبانا لفى ضلال مبين) إذ يؤثر غلاما وصبيا صغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين ! ثم يغلى الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتتضخم فى حسهم أشياء صغيرة , وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة فى إزهاق روح . روح غلام برىء لا يملك دفعا عن نفسه ، وهو لهم أخ . وهم أبناء نبى – وإن لم يكونوا هم أنبياء – يهون هذا . وتضخم فى أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب . حتى توازى القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله (اقتلوا يوسف . أو اطرحوه أرضا) وهما قريب من قريب . فطرحه فى أرض نائية مقطوعة مفض فى الغلب إلى الموت . . ولماذا ؟ (يخل لكم وجه أبيكم) فلا يحجبه يوسف . وهم يريدون قلبه . كأنه حين لا يراه فى وجهه يصبح قلبه خاليا من حبه ، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين ! والجريمة ؟ الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها (وتكونوا من بعده قوما صالحين) ! هكذا ينزغ الشيطان ، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا فى صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم:اقتلوا . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التى يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاكر ؟ حتى إذا تذكر ندم , وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التى تعد سلفا قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة ، إنما هى تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان ! ولكن ضميرا واحدا فيهم ، يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه . فيقترح حلا يريحهم من يوسف ، ويخلى لهم وجه أبيهم ، ولكنه لا يقتل يوسف ، ولا يلقيه فى أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك . إنما يلقيه فى الجب على طريق القوافل ، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيدا (قال قائل منهم:لا تقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة . إن كنتم فاعلين) ونحس من قوله:(إن كنتم فاعلين) روح التشكيك والتثبيط . كأنه يشككهم فى أنهم مصرون على إيقاع الأذى بيوسف . وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل ، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ . ولكن هذا كان أقل ما يشفى حقدهم ؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فما اعتزموه . . نفهم هذا من المشهد التالى فى السياق . . فها هم أولاء عند أبيهم ، يراودونه فى اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة . وها هم أولاء يخادعون أباهم ، ويمكرون به وبيوسف . فلنشهد ولنستمع لما يدور (قالوا:يا أبانا ، مالك لا تأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ! قال:إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون) والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل ما بذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب ، الذى يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم (يا أبانا) بهذا اللفظ الموحى المذكر بما بينه وبينهم من أصرة (مالك لا تأمنا على يوسف ؟) سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفى ، وفيه استجاشة لنفى مدلوله من أبيهم ، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف . فهو كان يستبقى يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعى والجهات الخلوية التى يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذى يحتملونه وهم كبار ، لا لأنه لا يأمنهم عليه . فمبادرتهم له بأنه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم ، مقصود بها استجاشته لنفى هذا الخاطر ؛ ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف . فهى مبادرة ماكرة منهم خبيثة ! (مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون) قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء – وكاد المريب أن يقول خذونى – فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشى بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) زيادة فى التوكيد ، وتصويرا لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة والرياضة ، مما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون . وردا على العتاب الاستنكارى الأول جعل يعقوب ينفى – بطريق غير مباشر – أنه لا يأمنهم عليه ، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب (قال:إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) إننى لا أطيق فراقه . .ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها . أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم ، وهو

ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) ولا بد أنهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه ، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة ، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب ! واختاروا أسلوبا من الأساليب المؤثرة لنفى هذا الخاطر عنه (قالوا:لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون) لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا لخاسرون كل شيء ، فلا نصلح لشيء أبدا ! وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج . . ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته ! ... والآن لقد ذهبوا به ، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء . والله سبحانه يلقى فى روع الغلام أنها محنة وتنتهى ، وأنه سيعيش وسيذكر إخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) فقد استقر أمرهم جميعا على أن يجعلوه فى غيابة الجب ، حيث يغيب فيه عنهم . وفى لحظة الضيق والشدة التى كان يواجه فيها هذا الفزع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له ولا مغيث وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء . فى هذه اللحظة البائسة يلقى الله فى روعه أنه ناج ، وانه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع ، وهم لا يشعرون بأن الذى يواجههم هو يوسف الذى تركوه فى غيابة الجب وهو صغير . وندع يوسف فى محنته فى غيابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله فى روعه ويطمئنه , حتى يأذن الله بالفرج . ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع (وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا:يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب , قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الأولى التى يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون , يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلا على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا فى الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذى حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به فى غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب . . فعلوا هذا (وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا:يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المريب أن يقول خذونى ، فيقولون (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول . وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما . وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، ويصفون له حالا لم تكن ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرا منكرا وذللته ويسرت لهم ارتكابه ؛ وأنه سيصبر متحملا متجملا لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب (قال:بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) ثم لنعد سريعا إلى يوسف فى الجب ، لنرى المشهد الأخير فى هذه الحلقة الأولى من حلقات القصة (وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه قال:يا بشرى . هذا غلام . وأسروه بضاعة , والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين) لقد كان الجب على طريق القوافل ، التى تبحث عن الماء فى مظانه ، فى الآبار وفى مثل هذا الجب الذى ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون فى بعض الأحيان جافا كذلك (وجاءت سيارة) أى قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة (فأرسلوا واردهم) أى من يرد لهم الماء ويكون خبيرا بمواقعه (فأدلى دلوه) لينظر الماء أو ليملأ الدلو – ويحذف السياق حركة يوسف فى التعلق بالدلو احتفاظا بالمفاجأة القصصية للقارىء والسامع (قال:يا بشرى ! هذا غلام !) ومرة أخرى يحذف السياق كل ما حدث بعد هذا وما قيل ، وحال يوسف ، وكيف ابتهج للنجاة , ليتحدث عن مصيره مع القافلة (وأسروه بضاعة) أى اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقا . ولما لم يكن رقيقا فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار . ثم باعوه بثمن قليل (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) وكانوا يتعاملون فى القليل من الدراهم بالعد ، وفى الكثير منها بالوزن (وكانوا فيه من الزاهدين) لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه . وكانت هذه نهاية المحنة الأولى فى حياة النبى الكريم .

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٢١} وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{٢٢} وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{٢٣} وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ{٢٤}

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٢٥} قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{٢٦} وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٢٧} فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ{٢٨} يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ{٢٩} وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٣٠} فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ{٣١} قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ{٣٢} قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ{٣٣} فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) {٣٤} ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ{٣٥}

الحلقة الثانية من حلقات القصة ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع بيع الرقيق , ولكن الذى اشتراه توسم فيه الخير – والخير يتوسم فى الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح – فإذا هو يوصى به امرأته خيرا ، وهنا يبدأ أول خيط فى تحقيق الرؤيا . ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتى حكما وعلما يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التى لا يقف لها إلا من رحم الله . إنها محنة التعرض للغواية فى جو القصور ، وفى جو ما يسمونه "الطبقة الراقية" وما يغشاها من استهتار وفجور . . ويخرج يوسف منها سليما معافى فى خلقه وفى دينه ، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها (وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته:أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل من الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

إن السياق لا يكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه ، وسنعلم بعد شوط فى القصة أنه عزيز مصر] قيل:إنه كبير وزرائها] ولكن نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن ، وان المحنة قد انتهت بسلام ، وأنه مقبل بعد هذا على خير (أكرمى مثواه) والمثوى هو مكان الثوى والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته . . وهى مبالغة فى الإكرام . فى مقابل مثواه فى الجب وما حوله من مخاوف وآلام ! ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه فى الغلام من خير ، وما يتطلع إليه فيه من أمل (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات . ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذاه ولدا إذا صدقت فراسته ، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته . وهنا يقف السياق لينبه إى أن هذا التدبير من الله ، وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين فى الأرض – وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف فى قلب الرجل وبيته – ويشير إلى أنه ماض فى الطريق ليعلمه الله من تأويل الأحاديث – على الوجهين اللذين ذكرناهما من قبل – ويعقب السياق على هذا الابتداء فى تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة الله غالبة , لا تقف فى طريقها قوة ، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره) وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أمرا ، وأراد له الله أمرا ، ولما كان الله غالبا على أمره ومسيطرا فقد نفذ أمره ، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذى يكون . ويمضى السياق ليقرر أن ما شاء الله ليوسف وقال عنه (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) قد تحقق حين بلغ أشده (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين) فقد أوتى صحة الحكم على الأمور ، وأوتى علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا ، أو بما هو أعم ، من العلم بالحياة وأحوالها ، فاللفظ عام ويشمل الكثير . وكان ذلك جزاء إحسانه . إحسانه فى الاعتقاد وإحسانه فى السلوك (وكذلك نجزى المحسنين) وعندئذ تجيئه المحنة الثانية فى حياته ، وهى أشد وأعمق من المحنة الأولى . تجيئه وقد أوتى صحة الحكم وأوتى العلم – رحمة من الله – ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذى سجله الله له فى قرآنه ... والآن نشهد ذللك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت:هيت لك ! قال:معاذ الله . إنه ربى أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون – ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين – واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب . قالت:ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ? إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال:هى راودتنى عن نفسى . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر

قال:إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين) إن السياق لم يذكر كم كانت سنها وكم كانت سنه ؛ فلننظر فى هذا الأمر من باب التقدير . لقد كان يوسف غلاما عندما التقطته السيارة وباعته فى مصر . أى إنه كان حوالى الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد . فهذه هى السن التى يطلق فيها لفظ الغلام ، وبعدها يسمى فتى فشابا فرجلا . . . وهى السن التى يجوز فيها أن يقول يعقوب (وأخاف أن يأكله الذئب) وفى هذا الوقت كانت هى زوجة ، وكانت وزوجها لم يرزقا أولادا كما يبدو من قوله (أو نتخذه ولدا) فهذا الخاطر . . خاطر التبنى . . لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد ؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد . فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة ، يعلمان فيها أن لا ولد لهما . وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنه عن أربعين سنة ، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالى الثلاثين . ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف فى الخامسة والعشرين أو حواليها . وهى السن التى نرجح أن الحادثة وقعت فيها . . نرجحه لأن تصرف المرأة فى الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة ، مالكة لكيدها , متهالكة كذلك على فتاها . ونرجحه من كلمة النسوة فيما بعد . . (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى عبد ، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف . وهو ما ترجحه شواهد الحال . نبحث هذا البحث ، لنصل منه إلى نتيجة معينة . لنقول:إن التجربة التى مر بها يوسف - أو المحنة - لم تكن فقط فى مواجهة المراودة فى هذا المشهد الذى يصوره السياق . إنما كانت فى حياة يوسف فترة مراهقته كلها فى جو هذا القصر ، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، مع جو القصور ، وجو البيئة التى يصورها قول الزوج أمام الحالة التى وجد فيها امرأته مع يوسف (يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) وكفى! والتى يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز ، فيكون جوابها عليهن ، مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها ، فيفتتن به ، ويصرحن ، فتصرح المرأة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين) فهذه البيئة التى تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة . هى بيئة الطبقة المترفة دائما . ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها فى سن الفتنة . . فهذه هى المحنة الطويلة التى مر بها يوسف ، وصمد لها ، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة . ولسنه وسن المرأة التى يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة فى تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل . أما هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل ، لما كان عسيرا أن يصمد لها يوسف , وبخاصة أنه هو مطلوب فيها لا طالب . وتهالك المرأة قد يصد من نفس الرجل . وهى كانت متهالكة . والآن مع النصوص (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت:هيت لك !) وإذن فقد كانت المراودة فى هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير . . وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا فى اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التى تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير (وقالت:هيت لك !) هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هى الدعوة الأخيرة . وقد لا تكون أبدا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارا . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هى كذلك تكمل وتنضج ، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة (قال:معاذ الله . إنه ربى أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون) (معاذ الله) أعيذ نفسى بالله أن أفعل (إنه ربى أحسن مثواى) وأكرمنى بأن نجانى من الجب وجعل فى هذه الدار مثوى الطيب الآمن (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعيننى اللحظة إليه . والنص هنا صريح وقاطع فى أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبى , المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود . فلم تكن هناك استجابة فى أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهزة بعد تغليق الأبواب , وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذى يتجمل القرآن فى حكايته وروايته (وقالت:هيت لك) (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)! لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم فى تلك الواقعة الأخيرة . فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعا شبقا ، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب فى سقف المخدع عاضا على أصبعه بفمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أى نعم من القرآن ! - تنهى عن مثل هذا المنكر ، وهو لا يرعوى ! حتى أرسل الله جبريل يقول له:أدرك عبدى ، فجاء فضربه فى صدره . . إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى سار وراءها بعض الرواة وهى واضحة التلفيق والاختراع ! وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك . أما الذى خطر لى وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التى عاش فيها يوسف ، فى داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعدما أوتيهما الذى خطر لى أن قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) هو نهاية موقف طويل من

الإغراء ، بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم . . وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ؛ ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة . . ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة ؛ لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا . هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ، ونتصور الظروف . وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية . وما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات . فلما أن رأى برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين) (واستبقا الباب) فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق . . وهى عدت خلفه لتمسك به ، وهى ما تزال فى هياجها الحيوانى (وقدت قميصه من دبر) نتيجة جذبها له لترده عن الباب وتقع المفاجأة (وألفيا سيدها لدى الباب) وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضرا على السؤال الذى يهتف به المنظر المريب . إنها تتهم الفتى (قالت:ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ؟) ولكنها امرأة تعشق ، فهى تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون (إلا أن يسجن أو عذاب أليم)! ويجهر يوسف بالحقيقة فى وجه الاتهام الباطل (قال:هى راودتنى عن نفسى)! وهنا يذكر السياق أن أحدا أهلها حسم بشهادته فى هذا النزاع (وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؛ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه ؟ هل كان مع زوجها [سيدها بتعبير أهل مصر] وشهد الواقعة ؟ أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر ، كما يقع فى مثل هذه الأحوال ان يستدعى الرجل كبيرا من أسرة المرأة ويطلعه على ما رأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم ! هذا وذلك جائز . وهو لا يغير من الأمر شيئا . وقد سمى قوله هذا شهادة ، لأنه لما سئل رأيه فى الموقف والنزاع المعروض من الجانبين – ولكل منها ومن يوسف قول – سميت فتواه هذه شهادة ، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه . . فإن كان قميصه قد من قبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهى صادقة وهو كاذب . وإن كان قميصه قد من دبر فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هيله حتى الباب ، وهى كاذبة وهو صادق . . وقدم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضى صدقها وكذبه ، فهى السيدة وهذا فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول ! والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة (فلما رأى قميصه قد من دبر) تبين له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنها هى التى راودت ، وهى التى دبرت الاتهام . . وهنا تبدو لنا صورة من "الطبقة الراقية" فى الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هى هى اليوم شاخصة . رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله (قال:إنه من كيدكن . إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين)! هكذا . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . فهى اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق . والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء . فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها:إن كيدكن عظيم ! فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم ! والتفاتة إلى يوسف البرىء: (يوسف أعرض عن هذا) فأهمله ولا تعره اهتماما ولا تتحدث به وهذا هو المهم محافظة على الظواهر ! وعظة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه (واستغفرى لذنبك . إنك كنت من الخاطئين) إنها الطبقة الأرستقراطية ، من رجال الحاشية ، فى كل جاهلية . قريب من قريب ! ويسدل الستار على المشهد وما فيه ، وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشىء منها معرضا للنزوة الحيوانية الجاهرة ، ولا مستنقعا للوحل الجنسى المقبوح ! ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها . ومضت الأمور فى طريقها . فهكذا تمضى الأمور فى القصور ! ولكن للقصور جدرانا ، وفيها خدم وحشم . وما يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستورا . وبخاصة فى الوسط الأرستقراطى ، الذى ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن . وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن فى المجالس والسهرات والزيارات (وقال نسوة فى المدينة:امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حبا . إنا لنراها فى ضلال مبين) وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة فى كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون . ولأول مرة نعرف أن المرأة هى امرأة العزيز ، وأن الرجل الذى اشتراه من مصر هو عزيز مصر – أى كبير وزرائها – ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر فى المدينة (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) ثم بيان لحالها معه (قد شغفها حبا) فهى مفتونة به ، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه ، وشغاف القلب هو غشاؤه الرقيق (إنا لنراها فى ضلال مبين) وهى السيدة الكبيرة وزوجة الكبير ، تفتتن بفتاها العبرانى المشترى . أم لعلهن يتحدثن عن اشتهارها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها ، وهو وحده المنتقد فى عرف هذه الأوساط لا الفعلة فى ذاتها لو ظلت وراء

الأستار ؟! وهنا كذلك يقع ما لا يمكن وقوعه إلا فى مثل هذه الأوساط . ويكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة ، التى تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن(فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت:اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن:حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم . قالت:فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) لقد أقامت لهن مأدبة فى قصرها . وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتى يدعين إلى المآدب فى القصور . وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق فى ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكأ . وآتت كل واحدة منهن سكينا تستعملها فى الطعام - ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية فى مصر كانت قد بلغت شأوا بعيدا ، وأن الترف فى القصور كان عظيما . فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية . وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة , فاجأتهن بيوسف (وقالت:اخرج عليهن) (فلما رأينه أكبرنه) بهتن لطلعته ، ودهشن (وقطعن أيديهن) وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة (وقلن حاش لله !) وهى كلمة تنزيه تقال فى هذا الموضع تعبيرا عن الدهشة بصنع الله (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) وهذه التعبيرات دليل - كما قلنا فى تقديم السورة - على تسرب شيء من ديانات التوحيد فى ذلك الزمان . ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول . فقالت قولة المرأة المنتصرة ، التى لا تستحى أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ؛ والتى تفخر عليهن بأن هذا فى متناول يدها ؛ وإن كان قد استعصى قياده مرة فهى تملك هذا القياد مرة أخرى (قالت:فذلكن الذى لمتننى فيه) فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب ! (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) ولقد بهرنى مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام - تريد أن تقول:إنه عانى فى الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ! - ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهن فى تبجح المرأة من ذلك الوسط ، لا ترى بأسا من الجهر بنزواتها الأنثوية جاهرة مكشوفة فى معرض النساء (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين !) فهو الإصرار والتبجح والتهديد والإغراء الجديد فى ظل التهديد . ويسمع يوسف هذا القول فى مجتمع النساء المبهورات ، المبديات لمفاتنهن فى مثل هذه المناسبات . ونفهم من السياق أنهن كن نساء مفتونات فاتنات فى مواجهته وفى التعليق على هذا القول من ربة الدار ؛ فإذا هو يناجى ربه قال (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) ولم يقل:ما تدعونى إليه . فهن جميعا كن مشتركات فى الدعوة . سواء بالقول أو بالحركات واللفتات . . وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه فى حبائلهن , خيفة أن يضعف فى لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه منه (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) وهى دعوة الإنسان العارف ببشريته . الذى لا يغتر بعصمته ؛ فيريد مزيدا من عناية الله وحياطته ، يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس فى نفوسهن من استجابته لهن ، بعد هذه التجربة ، أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس فى نفسه أثرا منه . أو بهما جميعا (إنه هو السميع العليم) الذى يسمع ويعلم ، يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء . وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية ، بلطف الله ورعايته . وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثانية من قصته المثيرة .

...

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{٣٦} قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{٣٧} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{٣٨} يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{٣٩} مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٤٠} يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ{٤١} وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ){٤٢}

وهذه هي الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف ; فكل ما بعدها رخاء ، وابتلاء لصبره على الرخاء ، بعد ابتلاء صبره على الشدة . والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة . والسجن للبريء المظلوم أقسى , وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى . وفي فترة المحنة هذه تتجلى نعمة الله على يوسف ، بما وهبه من علم لدنى بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب الذي تبدو أوائله فيعرف تأويله . ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيرا بإعلان براءته الكاملة إعلانا رسميا بحضرة الملك ، وظهور مواهبه التى تؤهله لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة ، وسلطان عظيم (ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) وهكذا جو القصور ، وجو الحكم المطلق ، وجو الأوساط الأرستقراطية ، وجو الجاهلية ! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف . وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها الذى شغفها حبا ، ثم تعلن لهم أنها به مفتونة حقا . ويفتتن هن به ويغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه ، والمرأة تعلن في مجتمع النساء – دون حياء – أنه إما أن يفعل ما يؤمر به ، وإما أن يلقى السجن والصغار ، فيختار السجن على ما يؤمر به ! بعد هذا كله ، بدا لهم أن يسجنوه إلى حين ! ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد ؛ ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشارا في طبقات الشعب الأخرى . . وهنا لابد أن تحفظ سمعة "البيوتات" ! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن ، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من "الوسط الراقي ! " قد فتنت به ، وشهرت بحبه ، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية !(ودخل معه السجن فتيان) سنعرف من بعد أنهما من خدم الملك الخواص . . ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف في السجن ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه ، فوجه إليه الأنظار ، وجعله موضع ثقة المساجين ، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل في القصر أو الحاشية ، فغضب عليهم في نزوة عارضة ، فألقى بهم في السجن . . يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف في السجن وإلى جواره فتيان أنسا إليه ، فهما يقصان عليه رؤيا رأياها . ويطلبان إليه تعبيرها ، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك (قال أحدهما:إني أراني أعصر خمرا ؛ وقال الآخر:إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين) وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ؛ فكونه سجينا لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين , وجعلهم بالخضوع لهم أربابا يزاولون خصائص الربوبية ، ويصبحون فراعين ! ويبدأ يوسف مع صاحبي السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه علما لدنيا خاصا ، جزاء على تجرده لعبادته وحده , وتخلصه من عبادة الشركاء . هو وآباؤه من قبله . . وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما ، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه (قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ويبدو في طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس ، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف . . وهي سمة هذه الشخصية البارزة في القصة بطولها (قال:لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى) بهذا التوكيد الموحي بالثقة بأن الرجل على علم لدني ، يرى به مقبل الرزق وينبيء بما يرى . وهذا – فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف – وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى – وقوله: (ذلكما مما علمنى ربى)تجيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه ؛ وليعلل بها هذا العلم اللدنى الذى سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون) مشيرا بهذا إلى القوم الذين ربى فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملأ من القوم والشعب الذى يتبعهم . والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجههما بشخصيتهما , إنما يواجه القوم عامة كي لا يحرجهما ولا ينفرهما – وهي كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل . ثم يمضى يوسف بعد بيان معالم ملة الكفر ليبين معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه(واتبعت ملة آبائى:إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) فهي ملة التوحيد الخالص الذى لا يشرك بالله شيئا قط . والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل في متناول الناس جميعا لو اتجهوا إليه وأرادوه . ففي فطرتهم أصوله وهواتفه ، وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره . ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) مدخل لطيف . . وخطوة خطوة في حذر ولين . . ثم يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحا كاملا ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما ، وفساد ذلك الواقع النكد الذى يعيشون فيه . . بعد ذلك التمهيد الطويل يا

صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لقد رسم يوسف – عليه السلام – بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة ، كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة . كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزا شديدا عنيفا (يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحبب إليهما هذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة . وهو لا يدعوهما إليها دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضية موضوعية (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) وهو سؤال يهجم على الفطرة فى أعماقها ويهزها هزا شديدا . إن الفطرة تعرف لها إلها واحد ففيم إذن تعدد الأرباب ؟ . . إن الذى يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار . ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر فى الوجود فيجب تبعا لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر فى حياة الناس . وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا . . إن الرب لا بد أن يكون إلها يملك أمر هذا الكون ويسيره . ولا ينبغى أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه ,وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره ! والله الواحد القهار فى غنى عن العالمين ؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة ، ثم يخطو يوسف – عليه السلام – خطوة أخرى فى تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) إن هذه الأرباب – سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله – ليست من الربوبية فى شىء ، وليس لها من حقيقة الربوبية شىء . فالربوبية لا تكون إلا لله الواحد القهار ؛ الذى يخلق ويقهر كل العباد . . ولكن البشر فى الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء ، ويخلعون عليها صفات ، ويعطونها خصائص ؛ وفى أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان . . والله لم يجعل لها سلطانا ولم ينزل بها من سلطان . وهنا يضرب يوسف – عليه السلام – ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين:لمن ينبغى أن يكون السلطان ! لمن ينبغى أن يكون الحكم ! لمن ينبغى أن تكون الطاعة . . أو بمعنى اخر لمن ينبغى أن تكون "العبادة " ! (إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون) إن الحكم لا يكون إلا لله . فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ؛ إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ؛ سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب . أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعا فى صورة منظمة عالمية . ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده ! إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة . فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان . . ويوسف – عليه السلام – يعلل القول بأن الحكم لله وحده . فيقول (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربى إلا حين ندرك معنى "العبادة " التى يخص بها الله وحده . إن معنى عبد فى اللغة:دان ، وخضع ، وذل . . ولم يكن معناه فى الاصطلاح الإسلامى فى أول الأمر أداء الشعائر . . إنما كان هو معناه اللغوى نفسه . . فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شىء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنما كان المقصود هو معناه اللغوى الذى صار هو معناه الاصطلاحى . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده . سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقى ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده فى هذا كله هى مدلول العبادة التى خص الله – سبحانه – بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه . . وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف – عليه السلام – اختصاص الله بالعبادة تعليلا لاختصاصه بالحكم . فالعبادة – أى الدينونة – لا تقوم إذا كان الحكم لغيره . . وسواء فى هذا حكمه القدرى القهرى فى حياة الناس وفى نظام الوجود , وحكمه الشرعى الإرادى فى حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحق به الدينونة . ويقرر يوسف – عليه السلام – أن اختصاص الله – سبحانه – بالحكم – تحقيقا لاختصاصه بالعبادة – هو وحده الدين القيم (ذلك الدين القيم) وهو تعبير يفيد القصر . فلا دين قيما سوى هذا الدين ، الذى يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وكونهم (لا يعلمون) لا يجعلهم على دين الله القيم . فالذى لا يعلم شيئا لا يملك الإعتقاد فيه ولا تحقيقه . . فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين ! ولم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداء . فاعتقاد شىء فرغ عن العلم به . . وهذا منطق العقل والواقع . . بل منطق البداهة الواضح . لقد رسم يوسف – عليه

السلام – بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة ؛ كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزا شديدا . . إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعيا أخص خصائص الألوهية ، وهو الربوبية . أي حق تعبيد الناس لأمره وشرعه ، ودينونتهم لفكره وقانونه . وهو إذ يزاول هذا في عالم الواقع يدعيه – ولو لم يقله بلسانه – فالعمل دليل أقوى من القول . وإن الطاغوت لا يقوم إلا في غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس . فما يمكن أن يقوم وقد استقر في اعتقاد الناس فعلا أن الحكم لله وحده ، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده . والخضوع للحكم عبادة . بل هي أصلا مدلول العبادة. وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذي ألقاه ، مرتبطا في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن . ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا في نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة في قوله كله وتعلقا به (يا صاحبي السجن ، أما أحدكما فيسقي ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) ولم يعين من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيء تلطفا وتحرجا من المواجهة بالشر والسوء . ولكنه أكد لهما الأمر واثقا من العلم الذي وهبه الله له قضى الأمر الذي فيه تستفتيان) وانتهى فهو كائن كما قضاه الله . وأحب يوسف السجين البريء ، الذي أمر الملك بسجنه دون تحر ودون بحث ، إلا ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية لعلهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويرا مقلوبا ، كما يقع عادة في مثل هذه الأوساط . . أحب يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر (وقال للذي ظن أنه ناج منهما:اذكرني عند ربك). اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه ، فهو بهذا ربك . فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع . . وفي هذا توكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الإسلامي . ومما يلاحظ أن ملوك الرعاة لم يكونوا يدعون الربوبية قولا كالفراعنة ، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة . ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهي نص في معنى الربوبية ، وهنا يسقط السياق أن التأويل قد تحقق ، وأن الأمر قد قضي على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة ، نعرف منها أن هذا كله قد كان . ولكن الذي ظن يوسف أنه ناج فنجا فعلا لم ينفذ الوصية ، ذلك أنه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف ، ونسي ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها ، فنسي يوسف وأمره كله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) (فلبث في السجن بضع سنين) والضمير الأخير في لبث عائد على يوسف . وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد . وكان هذا من اصطفائه وإكرامه . ن عباد الله المخلصين يتبغى أن يخلصوا له سبحانه ، وأن يدعوا له وحده قيادهم ، ويدعوا له سبحانه تنقيل خطاهم . وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك ، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحبا وشوقا . . فيتم عليهم فضله بهذا كله . .

...

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ{٤٣} قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ{٤٤} وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ{٤٥} وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ{٤٣} قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ{٤٤} وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ{٤٥} يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ{٤٦} قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ{٤٧} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ{٤٨} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ{٤٩} وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ{٥٠} قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ{٥١} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ{٥٢} وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٥٣}

والآن نحن في مجلس الملك ، وقد رأى رؤيا أهمته ، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات (وقال الملك:إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) (يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا:أضغاث أحلام , وما نحن

بتأويل الأحلام بعالمين) طلب الملك تأويل رؤياه . فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل ما يسر الحكام وإخفاء ما يزعجهم . وصرف الحديث عنه ! فقالوا:إنها (أضغاث أحلام) أى أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) إذا كانت أضغاثا مختلطة لا تشير إلى شيء ! والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث: رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبى السجن ، ورؤيا الملك . وطلب تأويلها فى كل مرة ، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر وخارج مصر – كما أسلفنا – وأن الهبة اللدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد فى معجزات الأنبياء ، هنا تذكر أحد صاحبيه فى السجن ، الذى نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر يوسف فى دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب . هنا تذكر الرجل الذى أول له رؤياه ورؤيا صاحبه ، فتحقق التأويل (وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة :أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون !) (يوسف – أيها الصديق – أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) والساقي يلقب يوسف بالصديق ، أى الصادق الكثير الصدق . وهذا ما جربه فى شأنه من قبل (أفتنا فى سبع بقرات سمان . . .) ونقل ألفاظ الملك التى قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقا فى نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولا ، وليجيء تأويلها ملاصقا فى السياق لذكرها . ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد ، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه . وهذا أكمل (قال:تزرعون سبع سنين دأبا) أى متوالية متتابعة . وهى السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان (فما حصدتم فذروه فى سنبله) أى فاتركوه فى سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية (إلا قليلا مما تأكلون) فجردوه من سنابله ، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد) لا زرع فيهن (يأكلن ما قدمتم لهن) وكأن هذه السنوات هى التى تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها ! (إلا قليلا مما تحصنون) أى إلا قليلا مما تحفظونه وتصونونه من التهامها ! (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى ثم تنقضى هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة ، التى تأتى على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب . تنقضى ويعقبها عام رخاء ، يغاث الناس فيه بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمرا ، وسمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتا . وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك ؛ فهو إذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف . فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس ، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد . وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالى . تاركا فجوة بين المشهدين يكمل التصور ما تم فيها من حركة . ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك . ويحذف السياق ما نقله الساقي من تأويل الرؤيا ، وما تحدث به عن يوسف الذى أولها . وعن سجنه وأسبابه والحال التى هو فيها . . كل أولئك يحذفه السياق من المشهد ، لنسمع نتيجته من رغبة الملك فى رؤية يوسف ، وأمره أن يأتوه به (وقال الملك:ائتونى به) ومرة ثالثة فى المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية فى تنفيذ الأمر . ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذى لا نعرف:إن كان هو الساقى الذى جاءه أول مرة . أو رسولا تنفيذيا مكلفا بمثل هذا الشأن . نجد يوسف السجين الذى طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحا فى موقفه ، وتعلن براءته – على الأشهاد – من الوشايات والدسائس والغمز فى الظلام . . لقد رباه ربه وأدبه . ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب فى قلبه السكينة والثقة والطمأنينة . فلم يعد معجلا ولا عجولا ! إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح فى الفارق بين الموقفين:الموقف الذى يقول يوسف فيه للفتى:اذكرنى عند ربك ، والموقف الذى يقول له فيه:ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، والفارق بين الموقفين بعيد (قال:ارجع إلى ربك فاسأله:ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم) لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره ، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتى قطعن أيديهن . . بهذا القيد . . تذكيرا بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها . . وحتى يكون هذا التحقق فى غيبته لتظهر الحقيقة خالصة , دون أن يتدخل هو فى مناقشتها . . كل أولئك لأنه واثق من نفسه ، واثق من براءته , مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلا ، ولا يخذل طويلا . ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة (رب) بمدلولها الكامل ، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه . فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذى يدين لسلطانه . والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذى يدين لسلطانه ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهن – والسياق يحذف هذا لنعلمه مما يليه (قال:ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟) والخطب هو :الأمر الجلل والمصاب . فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن , وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه . فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل أو شأن لهن خطير(ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟) ومن هذا نعلم

شيئا مما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير ؛ ما قالته النسوة ليوسف وما لمحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى يبلغ درجة المراودة . ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموغل فى التاريخ . فالجاهلية دائما هى الجاهلية . إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التخلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ثياب الأرستقراطية ! وفى مثل هذه المواجهة بالاتهام فى حضرة الملك ، يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار (قلن:حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء !) وهى الحقيقة التى يصعب إنكارها . ولو من مثل هؤلاء النسوة . فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال . وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التى يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به . . تتقدم لتقول كل شىء فى صراحة (قالت امراة العزيز:الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه . وإنه لمن الصادقين) الآن حصحص الحق وظهر ظهورا واضحا لا يحتمل الخفاء (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هذا الأمد ؛ وما يشى كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمنت (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) وهذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية ، تشى بما وراءها من انفعالات ومشاعر . كما يشى الستار الرقيق بما وراءه فى ترفع وتجمل فى التعبير (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه . لا تبالى المرأة ما وراءها مما يلم بها هى ويلحق بأردانها . . فهل هو الحق وحده الذى يدفعها لهذا الإقرار الصريح فى حضرة الملك والملأ ؟ يشى السياق بحافز آخر ، هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية . أن يحترمها تقديرا لإيمانها ولصدقها وأمانتها فى حقه عند غيبته (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) ثم تمضى فى هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التى يحبها يوسف ويقدرها (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) وتمضى خطوة أخرى فى هذه المشاعر الطيبة (وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم . .)إنها امراة أحبت . امرأة تكبر الرجل الذى تعلقت به فى جاهليتها وإسلامها ، فهى لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه ، أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه ! وهكذا يتجلى العنصر الإنسانى فى القصة ، التى لم تسق لمجرد الفن ، إنما سيقت للعبرة والعظة . وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة . ويرسم التعبير الفنى فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسما رشيقا رفيقا شفيفا . فى واقعة كاملة تتناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعيات فى مثل هذه النفوس ، فى ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك . وإلى هنا تنتهى محنة السجن ومحنة الاتهام ، وتسير الحياة بيوسف رخاء ، الاختبار فيه بالنعمة لا بالشدة . وإلى هنا نقف فى هذا الجزء من الظلال ، وتتابع القصة سيرها فى الجزء التالى إن شاء الله .

هذا الدرس يبدأ بآخر فقرة فى المشهد السابق . مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتى قطعن أيديهن – كما رغب إليه يوسف أن يفعل – تمحيصا لتلك المكايد التى أدخلته السجن , وإعلانا لبراءته على الملأ ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته ؛ وهو يبدؤها واثقا مطمئنا ، فى نفسه سكينة وفى قلبه طمأنينة وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور فى حياة الدولة ، وفى حياة الدعوة كذلك . فيحسن أن يبدأها وكل ما حوله واضح ، ولا شىء من غبار الماضى يلاحقه وهو برىء . ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئا ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص , إنما رغب إلى الملك أن يفحص أمر عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة (الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى ؛ إن النفس لأمارة بالسوء , إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم) وفى هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة ، تبرىء نفسها من خيانة يوسف فى غيبته ؛ ولكنها تتحفظ فلا تدعى البراءة المطلقة ، لأن النفس أمارة بالسوء – إلا ما رحم ربى – ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله – ولعل ذلك كان اتباعا ليوسف (إن ربى غفور رحيم) وبذلك يسدل الستار على ماضى الآلام فى حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمكين .

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ{٥٤} قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ{٥٥} وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{٥٦} وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{٥٧} وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ{٥٨} وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ{٥٩} فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ{٦٠} قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ{٦١} وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{٦٢} فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٦٣} قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{٦٤} وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ{٦٥} قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ{٦٦} وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ{٦٧} وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٦٨}

(وقال الملك:ائتونى به أستخلصه لنفسى . . فلما كلمه قال:إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال:اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم . . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه فى تفسير الرؤيا ، وحكمته فى طلب تمحيص أمر النسوة كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن , ولا يتهافت على لقاء الملك . وأى ملك ؟ ملك مصر ! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم فى سمعته ، المسجون ظلما ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذى يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك . . كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال (ائتونى به أستخلصه لنفسى) فهو لا يأتى به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذى يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة "الرضاء الملكى السامى ! " فيطير بها فرحا . . كلا ! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجى والصديق . . فيا ليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام – وهم أبرياء مطلقو السراح – فيضعوا النير فى أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء . . يا ليت رجالا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح – حتى المادى – أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء ! (وقال الملك:ائتونى به استخلصه لنفسى) ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك (فلما كلمه قال:إنك اليوم لدينا مكين أمين) فلما كلمه تحقق له صدق ما توسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفى أمان . فليس هو الفتى العبرانى الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المهدد بالسجن . إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفى حماه . فماذا قال يوسف ؟ إنه لم يسجد شكرا كما يسجد رجال الحاشية المتملقون للطواغيت . ولم يقل له:عشت يا مولاى وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كما يقول المتملقون للطواغيت ! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء فى الأزمة القادمة التى أول بها رؤيا الملك ، خيرا مما ينهض بها أحد فى البلاد ؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلادا من الخراب ، ومجتمعا من الفتنة – فتنة الجوع – فكان قويا فى إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته ، قوته فى الاحتفاظ بكرامته وإبائه (قال:اجعلنى على خزائن الأرض . إنى حفيظ عليم) والأزمة القادمة وسنين الرخاء التى تسبقها فى حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها . وفى حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة فى سنوات الخصب وفى سنى الجدب على السواء . ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التى يرى أنه أقدر عليها ، وأن وراءها خيرا كبيرا لشعب مصر وللشعوب المجاورة (إنى حفيظ عليم) ولم يكن يوسف يطلب لشخصه وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض . . إنما كان حصيفا فى اختيار اللحظة التى يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذى التبعة الضخمة فى أشد أوقات الأزمة ؛ وليكون مسؤولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه . فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة . إنما هى تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم فى لحظات الكفر والجنون . و هنا تعرض شبهة و هى طلب المسؤولية (اجعلنى على خزائن الأرض , إنى حفيظ عليم) أمران محظوران فى النظام الإسلامى:

أولهما:طلب التولية ، وهو محظور بنص قول الرسول ﷺ " إنا والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله [أو حرص عليه] " . . [متفق عليه] .

وثانيهما:تزكية النفس ، وهى محظورة بقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم)

ولا نريد أن نجيب بأن هذه القواعد إنما تقررت في النظام الإسلامى الذى تقرر على عهد محمد رسول الله ﷺ وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف – عليه السلام – والمسائل التنظيمية فى هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة ، الثابتة فى كل رسالة وعلى يد كل رسول . . لا نريد أن نجيب بهذا ، وإن كان له وجه ، لأننا نرى أن الأمر فى هذه المسألة أبعد أعماقا ، وأوسع آفاقا من أن يرتكن إلى هذا الوجه ؛ و إنما يرتكن إلى اعتبارات أخرى لا بد من إدراكها ، لإدراك منهج الاستدلال من الأصول والنصوص ، ولإعطاء أصول الفقه وأحكامه تلك الطبيعة الحركية الأصيلة فى كيانها ، والتى خمدت وجمدت فى عقول الفقهاء وفى عقلية الفقه كلها فى قرون الخمود والركود ! إن الفقه الإسلامى لم ينشأ فى فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم فى فراغ ! . . لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم ، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع فى مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية . كذلك لم يكن الفقه الإسلامى هو الذى أنشأ المجتمع المسلم ؛ إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذى أنشأ الفقه الإسلامى . . وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة ؛ كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامى ؛ وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية . والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة ، دون إدراك لهاتين الحقيقتين ; ودون مراجعة للظروف والملابسات التى نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام ، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التى كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها ؛ وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها . . الذين يفعلون ذلك ؛ ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت فى فراغ ؛ وكأنها اليوم يمكن أن تعيش فى فراغ . . هؤلاء ليسوا "فقهاء" ! وليس لهم "فقه" بطبيعة الفقه ! وبطبيعة هذا الدين أصلا ! إن" فقه الحركة " يختلف إختلافا أساسيا عن "فقه الأوراق" مع استمداده أصلا وقيامه على النصوص التى يقوم عليها ويستمد منها "فقه الأوراق" ! إن فقه الحركة يأخذ فى اعتباره "الواقع" الذى نزلت فيه النصوص ، وصيغت فيه الأحكام . ويرى أن ذلك الواقع يؤلف مع النصوص والأحكام مركبا لا تنفصل عناصره . فإذا انفصلت عناصر هذا المركب فقد طبيعته ، واختل تركيبه ! ومن ثم فليس هنالك حكم فقهي واحد مستقل بذاته ، يعيش فى فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر الموقف والجو والبيئة والملابسات التى نشأ نشأته الأولى فيها . . إنه لم ينشأ فى فراغ ومن ثم لا يستطيع أن يعيش فى فراغ ! ونأخذ مثالا لهذا التقرير العام هذا الحكم الفقهى الإسلامى بعدم تزكية النفس وعدم ترشيحها للمناصب ،وهو المأخوذ من قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) ومن قول رسول الله ﷺ" إنا والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله " لقد نشأ هذا الحكم – كما نزلت تلك النصوص – فى مجتمع مسلم ؛ ليطبق فى هذا المجتمع ; وليعيش فى هذا الوسط ؛ وليلبى حاجة ذلك المجتمع . وفق نشأته التاريخية ، ووفق تركيبه العضوى ، ووفق واقعه الذاتي . فهو من ثم حكم إسلامي جاء ليطبق فى مجتمع إسلامى . . وقد نشأ فى وسط واقعى ولم ينشأ فى فراغ مثالي . وهو من ثم لا يطبق ولا يصلح ولا ينشىء آثاره الصحيحة إلا إذا طبق فى مجتمع إسلامى . . إسلامي فى نشأته ، وفى تركيبه العضوى ، وفى التزامه بشريعة الإسلام كاملة . . وكل مجتمع لا تتوافر فيه هذه المقومات كلها يعتبر "فراغا" بالقياس إلى ذلك الحكم ، لا يملك أن يعيش فيه ، ولا يصلح له ، ولا يصلحه كذلك ! ومثل هذا الحكم كل أحكام النظام الإسلامى . وإن كنا فى هذا المقام لا نفصل إلا هذا الحكم بمناسبة ذلك السياق القرآنى . . ونريد أن نفهم لماذا لا يزكى الناس أنفسهم فى المجتمع المسلم ، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف ، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما كى يختاروا لمجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة . .

إن الناس فى المجتمع المسلم لا يحتاجون لشىء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم . كما أن المناصب والوظائف فى هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغرى أحدا بالتزاحم عليه – اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله تعالى – ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة فى نفوسهم . وهؤلاء يجب أن يمنعوها ! ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم ، وإدراك طبيعة تكوينه العضوى أيضا . . إن الحركة هى العنصر المكون لذلك المجتمع . فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية . .

أولا:تجيء العقيدة من مصدرها الإلهى متمثلة فى تبليغ الرسول وعمله – على عهد النبوات - أو متمثلة فى دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله – على مدار الزمان بعد ذلك – فيستجيب للدعوة ناس ؛ يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة فى أرض الدعوة . فمنهم من يفتن ويرتد ، ومنهم من يصدق ما عاهد الله عليه فيقضى نحبه شهيدا ومنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق . .

هؤلاء يفتح الله عليهم ، ويجعل منهم ستارا لقدره ، ويمكن لهم في الأرض تحقيقا لوعده بنصر من ينصره ، والتمكين في الأرض له ، ليقيم مملكة الله فى الأرض – أى لينفذ حكم الله فى الأرض – ليس له من هذا النصر والتمكين شيء ؛ إنما هو نصر لدين الله ، وتمكين لربوبية الله فى العباد .

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة ؛ ولا عند حدود جنس معين ؛ ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة ! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا "الإنسان" . . كل الإنسان:في" الأرض" . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعوه عن العبودية للطواغيت أيا كانت هذه الطواغيت .

وفى أثناء الحركة بهذا الدين – وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض ، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم – تتميز أقدار الناس ، وتتحدد مقاماتهم فى المجتمع ، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، من البلاء فى الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة . . وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها . . ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

وفى المجتمع المسلم الذى نشأ هذه النشأة ، وقام تركيبه العضوى على أساس التميز فى أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية – كما حدث فى المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار ، وأهل بدر ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل – ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء فى الإسلام . . فى هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضا ، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين – مهما غلب الضعف البشرى أصحابه أحيانا فغلبتهم الأطماع – وعندئذ تنتفى الحاجة – من جانب آخر – إلى أن يزكى المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية . .

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية ! ولكنهم ينسون أن أى مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة . . لن يوجد اليوم أو غدا ، إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس فى هذا الدين من جديد ، وإخراجهم من الجاهلية التى صاروا إليها . . وهذه نقطة البدء . . ثم تعقبها الفتنة والابتلاء – كما حدث أول مرة – فأما ناس فيفتنون ويرتدون ! وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم ويموتون شهداء . وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام ، ويكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدهم أن يلقى فى النار ؛ حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق ، ويمكن لهم فى الأرض – كما مكن للمسلمين أول مرة – فيقوم فى أرض من أرض الله نظام إسلامى . . ويومئذ تكون الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامى قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية . . ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها ، لأن مجتمعهم الذى جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم !

ولقد يقال بعد هذا:ولكن هذا يكون فى المرحلة الأولى . فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ? وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين ! إن هذا الدين يتحرك دائما ولا يكف عن الحركة . . يتحرك لتحرير "الإنسان" . كل الإنسان . . فى "الأرض" . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله ؛ وليرفعه عن العبودية للطواغيت ؛ بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أى مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة !

وإذن فستظل الحركة – التى هى طبيعة هذا الدين الأصيلة – تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب ؛ ولا تقف أبدا ليركد هذا المجتمع ويأسن – إلا أن ينحرف عن الإسلام – وسيظل الحكم الفقهى – الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية – قائما وعاملا فى محيطه الملائم . . ذات المحيط الذى نشأ أول مرة وعمل فيه .

ثم يقال:ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضا ؛ ويصبح الأكفاء الموهوبون فى حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية !

وهذا القول كذلك وهم ناشىء من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة . . إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين – كما هى طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام فى المجتمع المسلم – ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ؛ موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ؛ فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية . . سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام – الذى اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – له . . يختار لها من بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دائبة كما قلنا فى المجتمع المسلم ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .

إن الذين يفكرون فى النظام الإسلامى اليوم وتشكيلاته – أو يكتبون – يدخلون فى متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية المدونة فى فراغ ! يحاولون تطبيقها فى هذا المجتمع الجاهلى القائم ، بتركيبه العضوى الحاضر ! وهذا المجتمع الجاهلى الحاضر يعتبر – بالقياس إلى طبيعة النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية – فراغا لا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام ولا أن تطبق فيه هذه الأحكام . . إن تركيبه العضوى مناقض تماما للتركيب العضوى للمجتمع المسلم . فالمجتمع المسلم – كما قلنا – يقوم تركيبه العضوى على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام فى عالم الواقع ، ولمجاهدة الجاهلية لإخراج الناس منها إلى الإسلام . مع تحمل ضغوط الجاهلية وما توجهه من فتنة وإيذاء وحرب على هذه الحركة ، والصبر على الابتلاء وحسن البلاء من نقطة البدء إلى نقطة الفصل فى نهاية المطاف . أما المجتمع الجاهلى الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية . . وهو – من ثم – يعد بالقياس إلى النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام !

هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل لتطبيق قواعد النظام وتشكيلاته وأحكامه الفقهية يحيرهم – أول ما يحيرهم – طريقة اختيار أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية ! كيف يمكن هذا فى مثل هذه المجتمعات التى نعيش فيها والناس لا يعرف بعضهم بعضا ولا يزنون كذلك بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة ! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام ؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد ؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد – متابعة لعدم تزكيتهم لأنفسهم أو ترشيحها – فكيف يعودون هم فيختارون الإمام ؟ ألا يؤثر هذا فى ميزانهم ؟ ثم إذا كانوا هم الذين سيعودون فيرشحون الإمام ؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم ؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصا يضمن ولاءهم له ، ويكون هذا هو العنصر الأول فى اعتباره ؟ . . .

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا فى هذه المتاهة !

أنا أعرف نقطة البدء فى هذه المتاهة . . إنها هى افتراض أن هذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيه مجتمع مسلم ؛ وأن قواعد النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية سيجاء بها لتطبق على هذا المجتمع الجاهلى بتركيبه العضوى الحاضر ، وبقيمه وأخلاقه الحاضرة ! هذه نقطة البدء فى المتاهة . . ومتى بدأ منها الباحث فإنه يبدأ فى فراغ ، ويوغل فى هذا الفراغ ، حتى يبعد فى التيه ، وحتى يأخذه الدوار! ! إن هذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم ، ومن ثم لن يطبق فيه النظام الإسلامى ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام . . لن تطبق لاستحالة هذا التطبيق الناشئة من أن قواعد النظام الإسلامى وأحكامه الفقهية لا يمكن أن تتحرك فى فراغ ؛ لأنها بطبيعتها لم تنشأ فى فراغ ، ولم تتحرك فى فراغ كذلك ! إن المجتمع الإسلامى ينشأ بتركيب عضوى آخر غير التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى . . ينشأ من أشخاص ومجموعات وفئات جاهدت – فى وجه الجاهلية – لإنشائه ؛ وتحددت أقدارها وتميزت مقاماتها فى ثنايا تلك الحركة . إنه مجتمع جديد . . ومجتمع وليد . . ومجتمع متحرك دائما فى طريقه لتحرير "الإنسان" ، . . كل الإنسان . . فى "الأرض" . . كل الأرض . . من العبودية لغير الله , ولرفع هذا الإنسان عن ذلة العبودية للطواغيت . . أيا كانت هذه الطواغيت . . ومثل قضية التزكية وطلب الإمارة ، واختيار الإمام ، واختيار أهل الشورى . . . وما إليها . . . قضايا كثيرة تثار ، ويطرقها الباحثون فى الإسلام . . فى الفراغ . . فى هذا المجتمع الجاهلى الذى نعيش فيه . . بتركيبه العضوى المختلف تماما عن التركيب العضوى للمجتمع المسلم . . وبقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته المختلفة تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته و أخلاقه ومشاعره وتصوراته . .

إن العمل فى الحقل "الفكرى" للفقه الإسلامى عمل مريح ! لأنه لاخطر فيه ! ولكنه ليس عملا للإسلام ؛ ولا هو من منهج هذا الدين ولا من طبيعته ! وخير للذين ينشدون الراحة والسلامة أن يشتغلوا بالأدب وبالفن أو بالتجارة ! أما الاشتغال بالفقه الآن على ذلك النحو بوصفه عملا للإسلام فى هذه الفترة فأحسب – والله أعلم – أنه مضيعة للعمر وللأجر أيضا !

إن دين الله يأبى أن يكون مجرد مطية ذلول ، ومجرد خادم مطيع ، لتلبية هذا المجتمع الجاهلى الآبق منه ، المتنكر له ، الشارد عنه . . الذى يسخر منه الحين بعد الحين باستفتائه فى مشكلاته وحاجاته ؛ وهو غير خاضع لشريعته وسلطانه . .

كلا ! إن الذى يحول دون تحول هذه المجتمعات الجاهلية إلى النظام الإسلامى هو وجود الطواغيت التى تأبى أن تكون الحاكمية لله ؛ فتأبى أن تكون الربوبية فى حياة البشر والألوهية فى الأرض لله وحده . وتخرج بذلك من الإسلام خروجا كاملا . يعد الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة . . ثم هو بعد ذلك وجود جماهير من البشر تعبد أولئك الطواغيت من دون الله – أى تدين لها وتخضع وتتبع – فتجعلها بذلك أربابا متفرقة معبودة مطاعة . وتخرج هذه الجماهير بهذه العبادة من التوحيد إلى الشرك . . فهذا هو أخص مدلولات الشرك فى نظر الإسلام . .

وبهذا وذلك تقوم الجاهلية نظاما فى الأرض ؛ وتعتمد على ركائز من ضلال التصور بقدر ما تعتمد على ركائز من القوة المادية .

وصياغة أحكام الفقه لا تواجه هذه الجاهلية – إذن – بوسائل مكافئة . إنما الذى يواجهها دعوة إلى الدخول فى الإسلام مرة أخرى ؛ وحركة تواجه الجاهلية بكل ركائزها ؛ ثم يكون ما يكون من شأن كل دعوة للإسلام فى وجه الجاهلية . ثم يحكم الله بين من يسلمون لله وبين قومهم بالحق . . وعندئذ فقط يجىء دور أحكام الفقه ، التى تنشأ نشأة طبيعية فى هذا الوسط الواقعى الحى ، وتواجه حاجات الحياة الواقعية المتجددةفى هذا المجتمع الوليد ، وفق حجم هذه الحاجات يومئذ وشكلها وملابساتها ، وهى أمور كلها فى ضمير الغيب – كما أسلفنا – ولا يمكن التكهن بها سلفا ، ولا يمكن الاشتغال بها من اليوم على سبيل الجد المناسب لطبيعة هذا الدين !

إن هذا لا يعنى – بحال – أن الأحكام الشرعية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ليست قائمة الآن فعلا من الوجهة الشرعية . ولكنه يعنى فقط أن المجتمع الذى شرعت هذه الأحكام له ، والذى لا تطبق هذه الأحكام إلا فيه – بل الذى لا تعيش هذه الأحكام إلا به – ليس قائما الآن فعلا . ومن ثم يصبح وجودها الفعلى معلقا بقيام ذلك المجتمع . . ويبقى الالتزام بها قائما فى عنق كل من يسلم من ذلك المجتمع الجاهلى ويتحرك فى وجه الجاهلية لإقامة النظام الإسلامى ؛ ويتعرض لما يتعرض له من يتحرك بهذا الدين فى وجه الجاهلية وطواغيتها المتألهة وجماهيرها الخاضعة للطواغيت الراضية بالشرك فى الربوبية . .

وهذا هو الطريق وحده ؛ وليس هنالك طريق آخر . .

وليت هنالك طريقا سهلا عن طريق تحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة فى الدعوة باللسان ، وببيان أحكام الإسلام ! ولكن هذه إنما هى "الأمانى" ! فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت ، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطىء الذى سارت فيه دعوة الإسلام فى كل مرة . .والذى يبدؤه فرد ، ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة فى وجه الجاهلية لتعانى ما تعانى حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها فى الأرض . . ثم . . يدخل الناس فى دين الله أفواجا . . ودين الله هو منهجه وشرعه ونظامه الذى لا يرضى من الناس دينا غيره: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه). .

ولعل هذا البيان أن يكشف لنا عن حقيقة الحكم فى موقف يوسف – عليه السلام .

إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادماً فى وضع جاهلى . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره فى مصر فى أيام حكمه . وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماما . .

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى صلب القصة وإلى صلب السياق . إن السياق لا يثبت أن الملك وافق . فكأنما يقول:إن الطلب تضمن الموافقة ! زيادة فى تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . فيكفى أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هو الجواب . . ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القارىء يفهم أنه أصبح فى المكان الذى طلبه .

ويؤيد هذا الذى نقوله تعقيب السياق (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب . . على هذا النحو مكنا ليوسف فى الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا . والأرض هى مصر . أو هى هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها (يتبوأ منها حيث يشاء) يتخذ منها المنزل الذى يريد ، والمكان الذى يريد ، والمكانة التى يريد . فى مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود (نصيب برحمتنا من نشاء) فنبدله من العسر يسرا ، ومن الضيق فرجا ، ومن الخوف أمنا ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا (ولا نضيع أجر المحسنين) الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا فى الدنيا (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) فلا ينقص منه المتاع فى الدنيا وإن كان خيرا من متاع الدنيا ، متى آمن الإنسان واتقى . فاطمأن بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه فى سره وجهره وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة ، تلك المكانة فى الأرض ، وهذه البشرى فى الآخرة جزاء وفاقا على الإيمان والصبر والإحسان .

ودارت عجلة الزمن . وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء . فلم يذكر كيف كان الخصب ، وكيف زرع الناس . وكيف أدار يوسف جهاز الدولة . وكيف نظم ودبر وادخر . كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله (إنى حفيظ عليم) وكذلك لم يذكر مقدم سنى الجدب ، وكيف تلقاها الناس ، وكيف ضاعت الأرزاق . . لأن هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها (ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحدا من رجاله بعد ذلك فى السورة كلها . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . الذى اضطلع بالعبء فى الأزمة الخانقة الرهيبة . وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء . وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداما فنيا كاملا فى الأداء ، أما فعل الجدب فقد أبرزه السياق فى مشهد إخوة يوسف ، يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام فى مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وقفت مصر – بتدبير يوسف – منها ، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام فى المنطقة كلها . وفي الوقت ذاته تمضى قصة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهى سمة فنية تحقق هدفا دينيا فى السياق (وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال:ائتونى بأخ لكم من أبيكم . ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا:سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض كنعان وما حولها . فاتجه إخوة يوسف – فيمن يتجهون – إلى مصر . وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان . وها نحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف ، وهم لا يعلمون . إنه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيرا . أما يوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذاك! وأين الغلام العبرانى الصغير الذى ألقوه فى الجب منذ عشرين عاما أو تزيد من عزيز مصر شبه المتوج فى سنه وزيه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه وهيلمانه وهيلمانه ؟ ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه . فلا بد من دروس يتلقونها (فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) ولكنا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلا طيبا ، ثم أخذ فى إعداد الدرس الأول (ولما جهزهم بجهازهم قال:ائتونى بأخ لكم من أبيكم) فنفهم من هذا أنه تركهم يأنسون إليه ، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل ، وأن لهم أخا صغيرا من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه . فلما جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم: إنه يريد أن يرى أخاهم هذا (قال:ائتونى بأخ لكم من أبيكم) وقد رأيتم أننى أوفى الكيل للمشترين . فسأوفيكم نصيبكم حين يجىء معكم ؛ ورأيتم أننى أكرم النزلاء فلا

خوف عليه بل سيلقى منى الإكرام المعهود (ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟) ولما كانوا يعلمون كيف يضن أبوهم بأخيهم الأصغر – وبخاصة بعد ذهاب يوسف – فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسورا ، وإنما فى طريقه عقبات من ممانعة أبيهم ، وأنهم سيحاولون إقناعه ، مع توكيد عزمهم – على الرغم من هذه العقبات – على إحضاره معهم حين يعودون (قالوا سنراود عنه آباه و إنا لفاعلون) ولفظ (نراود) يصور الجهد الذى يعلمون أنهم بادلوه . . أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف . وقد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوى , ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم فى التبادل فى الأسواق . . أمر غلمانه بدسها فى رحالهم – والرحل متاع المسافر – لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاءوا بها (وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون)

وندع يوسف فى مصر . لنشهد يعقوب وبنيه فى أرض كنعان . دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه ، ويبدو أنهم فى دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم ما لم يأتوا عزيز مصر بأخيهم الصغير معهم . فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ولهم . وهم يعدون بحفظه (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا:يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنا له لحافظون) ولا بد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب . فهو ذاته وعدهم له فى يوسف ! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه (قال:هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل !). . فخلونى من وعودكم وخلونى من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدى والرحمة بى (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين)! وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا ما فيها من غلال فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها ، ولم يجدوا فى رحالهم غلالا ! ن يوسف لم يعطهم قمحا ، إنما وضع لهم بضاعتهم فى رحالهم . فلما عادوا قالوا:يا أبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم , وكان هذا بعض الدرس الذى عليهم أن يأخذوه (قالوا:يا أبانا ما نبغى . هذه بضاعتنا ردت إلينا) ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية فى الحصول على الطعام (ونمير أهلنا) والميرة هى الزاد ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم (ونحفظ أخانا) ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم (ونزداد كيل بعير) وهو ميسور لهم حين يرافقهم (ذلك كيل يسير) ويبدو من قولهم: (ونزداد كيل بعير) أن يوسف – عليه السلام – كان يعطى كل واحد وسق بعير – وهو قدر معروف – ولم يكن يبيع كل مشتر ما يريد . وكان ذلك من الحكمة فى سنوات الجدب ، كى يظل هناك قوت للجميع: واستسلم الرجل على كره ؛ ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقى شرطا (قال:لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله:لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) أى لتقسمن لى بالله قسما يربطكم ، أن تردوا على ولدى ، إلا إذا غلبتم على أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدى مدافعتكم عنه (إلا أن يحاط بكم) وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم . فأقسموا (فلما آتوه موثقهم قال:الله على ما نقول وكيل) زيادة فى التوكيد والتذكير .وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له فى رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز(وقال:يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغنى عنكم من الله من شىء . إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون) ونقف هنا أمام قول يعقوب – عليه السلام (إن الحكم إلا لله) وواضح من سياق القول أنه يعنى هنا حكم الله القدرى القهرى الذى لا مفر منه ولا فكاك . وقضاءه الإلهى الذى يجرى به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئا . وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره . وحكم الله القدرى يمضى فى الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار . . وإلى جانبه حكم الله الذى ينفذه الناس عن رضى منهم واختيار . وهو الحكم الشرعى المتمثل فى الأوامر والنواهى . . وهذا كذلك لا يكون إلا الله . شأنه شأن حكمه القدرى ، باختلاف واحد:هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه . فيترتب على هذا أو ذاك نتائجه وعواقبه فى حياتهم فى الدنيا وفى جزائهم فى الآخرة . ولكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلا راضين . .

وسار الركب ، ونفذوا وصية أبيهم (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شىء – إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها – وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

فيم كانت هذه الوصية ؟ لم قال لهم أبوهم:لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ؟ تضرب الروايات والتفاسير فى هذا وتبدى وتعيد ، بلا ضرورة ، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآنى الحكيم . فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط – إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها – فينبغى أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظا بالجو الذى أراده . والجو يوحى بأنه كان يخشى شيئا عليهم ،

ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء مع تسليمه بأنه لا يغنى عنهم من الله من شيء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه . إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة فى نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فتعلم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم ليكن هذا الشيء الذى كان يخشاه هو العين الحاسدة ، أو هى غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم . أو هو تتبع قطاع الطريق لهم . أو كائنا ما كان فهو لا يزيد شيئا فى الموضوع . سوى أن يجد الرواة والمفسرون بابا للخروج عن الجو القرآنى المؤثر إلى قال وقيل ، مما يذهب بالجو القرآنى كله فى كثرة الأحايين !

فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق ، لنلتقى بإخوة يوسف فى المشهد التالى بعد الوصول:

(وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيۤ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٦٩} فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ{٧٠} قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ{٧١} قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ{٧٢} قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ{٧٣} قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ{٧٤} قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَآؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{٧٥} فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ{٧٦} قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ{٧٧} قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{٧٨} قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـا إِذاً لَّظَالِمُونَ{٧٩}

(ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال:إنى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون) ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه فى المأوى ، وإطلاعه على أنه أخوه ؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل ، وهى ذكرى لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما علمها من البيت الذى كان يعيش فيه . فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه فى وسطه فى أرض كنعان . يعجل السياق بهذا ، بينما الطبيعى والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف . ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه . ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ، وعند رؤيته لأخيه ، بعد الفراق الطويل . ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر . وهذه من دقائق التعبير فى هذا الكتاب العجيب ! ويطوى السياق كذلك فترة الضيافة ، وما دار فيها بين يوسف وإخوته ، ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورية للناس فى كل زمان ومكان (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن:أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟ قالوا:نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا:فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا: جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه - كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم - قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال:أنتم شر مكانا . والله أعلم بما تصفون . قالوا:يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال:معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون). . وهو مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت ، كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالا ، غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآنى هذا العرض الحى الأخاذ . فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك - وهى عادة من الذهب - وقيل:إنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى فى كيل القمح ، لندرته وعزته فى تلك المجاعة . يدسها فى الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذا لتدبير خاص ألهمه الله له وسنعلمه بعد قليل . ثم ينادى مناد بصوت مرتفع ، فى صيغة إعلان عام ، وهم منصرفون (أيتها العير إنكم لسارقون) ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذى يتهمهم بالسرقة - وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب (قالوا - وأقبلوا عليهم - ماذا تفقدون ؟) قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس ومنهم هذا الذى أذاع بالإعلان (قالوا:نفقد صواع الملك) وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعا . وهى مكافأة ثمينة فى هذه الظروف (ولمن جاء به حمل بعير) من القمح العزيز (وأنا به زعيم) أى كفيل . ولكن القوم مستيقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا ، وما جاءوا ليسرقوا وليجترحوا هذا الفساد الذى يخلخل الثقة والعلاقات فى المجتمعات ، فهم يقسمون واثقين (قالوا:تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض) فقدو علمتم من حالنا

ومظهرنا ونسبنا أننا لا نجترح هذا (وما كنا سارقين) أصلا فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع . قال الغلمان أو الحراس (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟) وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف . فقد كان المتبع فى دين يعقوب:أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا فى مقابل ما يسرق . ولما كان أخوة يوسف موقنين بالبراءة , فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه (قالوا:جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزى الظالمين) وهذه هى شريعتنا نحكمها فى السارق . والسارق من الظالمين . كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش . وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه . كى لا يثير شبهة فى نتيجة التفتيش (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه)! ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم ، الحالفين , المتحدين . . فلا يذكر شيئا عن هذا ، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التى تكمل رسم المشهد بانفعالاته . . بينما يأخذ فى التعقيب ببعض مرامى القصة ، ريثما يفيق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه (كذلك كدنا ليوسف) أى كذلك دبرنا له هذا التدبير الدقيق (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) فلو حكم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه ، إنما كان يعاقب السارق على سرقته ، دون أن يستولى على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم . وهذا هو تدبير الله الذى ألهم يوسف أسبابه . وهو كيد الله له . والكيد يطلق على التدبير فى الخفاء للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه . وهو سوء – ولو مؤقتا – لأبيه . فلهذا اختار تسميته كيدا على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره . وهو من دقائق التعبير (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) (إلا أن يشاء الله) فيدبر مثل هذا التدبير الذى رأيناه . ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة (نرفع درجات من نشاء) وإلى ما ناله من علم ، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى (وفوق كل ذى علم عليم) وهو احتراس لطيف دقيق , وهم فى حيرة من أمرهم ، وقد حرك الحرج الذى يلاقونه كوامن حقدهم على أخى يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة ,وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب (قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)! ن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . . وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا فى تعلات وحكايات وأساطير . كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم فى يوسف ؛ وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التى تحرجهم ، وتبرؤا من يوسف وأخيه إرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه ! لقد قذفوا بها يوسف وأخاه ! (فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم) أسر هذه الفعلة وحفظها فى نفسه ، ولم يبد تأثره منها . وهو يعلم براءته وبراءة أخيه . إنما قال لهم (أنتم شر مكانا) يعنى أنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف – وهى حقيقة لا شتمة (والله أعلم بما تصفون) وبحقيقة ما تقولون . وأراد بذلك قطع الجدل فى الاتهام الذى أطلقوه ، ولا دخل له بالموضوع ! وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه . عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم (لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى , الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ بداله واحد منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه ; ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين (قالوا:يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين) ولكن يوسف كان يريد أن يلقى عليهم درسا . وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التى يعدها لهم ولوالدة وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرا فى النفوس (قال:معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون) ولم يقل معاذ الله أن نأخذ بريئا بجريرة سارق . لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق . فعبر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) وهى الحقيقة الواقعة دون زيادة فى اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه إنا إذن لظالمون . . وما نريد أن نكون ظالمين . . وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف . وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {٨٠} ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ {٨١} وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {٨٢} قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {٨٣} وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ {٨٤} قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ {٨٥} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {٨٦} يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ {٨٧} فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا

أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ{٨٨} قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ{٨٩} قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{٩٠} قَالُوا تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ{٩١} قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{٩٢} اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ{٩٣} وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ{٩٤} قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ{٩٥} فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{٩٦} قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ{٩٧} قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٩٨} فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاءَ اللّهُ آمِنِينَ{٩٩} وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّن الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{١٠٠} رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ){١٠١}

يئس إخوة يوسف فى إقناع حاشية الملك بموقفهم ، فعقدوا مجلسا يتشاورون فيه . وهم هنا فى هذا المشهد يتناجون . والسياق لا يذكر أقوالهم جميعا . إنما يثبت آخرها الذى يكشف عما انتهوا إليه (فلما أستيأسوا منه خلصوا نجيا . قال كبيرهم:ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف ؟ فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى ، أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا:يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون) إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم فى يوسف من قبل . ويقرن هذه إلى تلك ، ثم يرتب عليهما قراره الجازم:ألا يبرح مصر ، وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضى الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع . أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق ، فأخذ بما سرق . ذلك ما علموه شهدوا به . أما إن كان بريئا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه ، فهم غير موكلين بالغيب . كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ما حدث ، فذلك كان غيبا بالنسبة إليهم ، وما هم بحافظين للغيب . وإن كان فى شك من قولهم فليسأل أهل القرية التى كانوا فيها – وهى عاصمة مصر – والقرية اسم للمدينة الكبيرة – وليسأل القافلة التى كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة فى السنين العجاف . . ويطوى السياق الطريق بهم ، حتى يقفهم فى مشهد أمام أبيهم المفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع . فلا نسمع إلا رده قصيرا سريعا ، شجيا وجيعا . ولكن وراءه أملا لم ينقطع فى الله أن يرد عليه ولديه ، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذى أقسم ألا يبرح حتى يحكم الله له . وإنه لأمل عجيب فى ذلك القلب الوجيع (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) كلمته ذاتها يوم فقد يوسف . ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك (إنه هو العليم الحكيم). الذى يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج . هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء فى الله ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بوجوده ورحمته . ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة ، فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار (وتولى عنهم وقال:يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) وهى صورة مؤثرة للوالد المفجوع . يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه ، فينفرد فى معزل ، يندب فجيعته فى ولده الحبيب . يوسف . الذى لم ينسه ، ولم تهون من مصيبته السنون ، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل (يا أسفا على يوسف !) ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكمدا (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) ويبلغ الحقد بقلوب بنيه ألا يرحموا ما به ، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم ، فلا يسرون عنه ، ولا يعزونه ، ولا يعللونه بالرجاء ، بل يريدون ليطمسوا فى قلبه الشعاع الأخير (قالوا:تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين !) وهى كلمة حانقة مستنكرة . تالله تظل تذكر يوسف ، ويهدك الحزن عليه ، حتى تذوب حزنا أو تهلك أسى بلا جدوى . فيوسف ميئوس منه قد ذهب ولن يعود !ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ، ويعلم من حقيقته ما لا يعلمون (قال:إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون) وفى هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية فى

هذا القلب الموصول ؛ كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر . إن هذا الواقع الظاهر الميئس من يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلا على عودته إلى أبيه ، واستنكار بنيه لهذا التطلع بعد هذا الأمد الطويل فى وجه هذا الواقع الثقيل . . إن هذا كله لا يؤثر شيئا فى شعور الرجل الصالح بربه . فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلم هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة بذلك الواقع الصغير المنظور ! وهذه قيمة الإيمان بالله ، ومعرفته سبحانه هذا اللون من المعرفة . معرفة التجلى والشهود وملابسة قدرته وقدره ، وملامسة رحمته ورعايته ، وإدراك شأن الألوهية مع العبيد الصالحين . إن هذه الكلمات (وأعلم من الله ما لا تعلمون) تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها . وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبد الصالح يعقوب . والقلب الذى ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه – مهما بلغت – إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق ! ولا نملك أن نزيد . ولكننا نحمد الله على فضله فى هذا ، وندع ما بيننا وبينه له يعلمه سبحانه ويراه . ثم يوجههم يعقوب إلى تلمس يوسف وأخيه ؛ وألا ييأسوا من رحمة الله ، فى العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائما منظور (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فيا للقلب الموصول !!! (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) تحسسوا بحواسكم ، فى لطف وبصر وصبر على البحث . ودون يأس من الله وفرجه ورحمته . وكلمة "روح" أدق دلالة وأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه ، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية ، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفى روح من ظلال إيمانه ، وفى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو فى مضايق الشدة ومخانق الكروب . . . ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفذت منهم النقود ، وجاءوا ببضاعة رديئة هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد . . يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يعهد فى أحاديثم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام (فلما دخلوا عليه قالوا:يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين) وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى فى نفس يوسف قدرة على المضى فى تمثيل دور العزيز ، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس ، وحان وقت المفاجأة الكبرى التى لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله (قال:هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟)!! ورن فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئا من نبراته . ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه فى سمت عزيز مصر وأبهته وشياته . والتمتع فى نفوسهم خاطر من بعيد (قالوا:أئنك لأنت يوسف ؟) أئنك لأنت ؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير (قال:أنا يوسف . وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) مفاجأة ! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم فى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه فى دفعة الجهالة . . ولا يزيد . . سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء . أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنا إليهم وقد أساءوا . حليما بهم وقد جهلوا . كريما معهم وقد وقفوا منه موقفا غير كريم (قالوا:تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين) اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان . يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل . شيمة الرجل الكريم . وينجح يوسف فى الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل فى الابتلاء بالشدة . إنه كان من المحسنين (قال:لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين) لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم . فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور . والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين . . ثم يحول الحديث إلى شأن آخر . شأن أبيه الذى ابيضت عيناه من الحزن . فهو معجل إلى تبشيره . معجل إلى لقائه . معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن ، وما ألم بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال (اذهبوا بقميصى هذا ، فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين) كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله . والمفاجأة تصنع فى كثير من الحالات فعل الخارقة . . وما لها لا تكون خارقة ويوسف نبى رسول ويعقوب نبى رسول ؟ ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة فى القصة بعد مفاجأة ، حتى تنتهى مشاهدها المثيرة بتأويل رؤيا الصبى الصغير . (ولما فصلت العير قال أبوهم:إنى لأجد ريح يوسف . لولا أن تفندون !) ريح يوسف ! كل شىء إلا هذا . فما يخطر على بال أحد أن يوسف بعد فى الأحياء بعد هذا الأمد الطويل . وأن له ريحا يشمها هذا الشيخ الكليل ! إنى لأجد ريح يوسف . لولا أن تقولوا شيخ خرف (لولا أن تفندون) لصدقتم معى ما

أجده من ريح الغائب البعيد . كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير . ومن أين فصلت ؟ يقول بعض المفسرين:إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة القميص من هذا المدى البعيد . ولكن هذا لا دلالة عليه . فربما كان المقصود لما فصلت العير عند مفارق الطرق فى أرض كنعان ,واتجهت إلى محلة يعقوب على مدى محدود . ونحن بهذا لا ننكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبى كيعقوب من ناحية نبى كيوسف . كل ما هنالك أننا نحب أن نقف عند حدود مدلول النص القرآنى أو رواية ذات سند صحيح . وفى هذا لم ترد رواية ذات سند صحيح . ودلالة النص لا تعطى هذا المدى الذى يريده المفسرون ! ولكن المحيطين بيعقوب لم يكن لهم ما له عند ربه ، فلم يجدوا ما وجد من رائحة يوسف (قالوا:تالله . إنك لفى ضلالك القديم) فى ضلالك بيوسف ، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذى لا يعود . ولكن المفاجأة البعيدة تقع ، وتتبعها مفاجأة أخرى (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا) مفاجأة القميص . وهو دليل على يوسف وقرب لقياه . ومفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه . . وهنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه . تلك التى حدثهم بها من قبل فلم يفهموه (قال:ألم أقل لكم:إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) قالوا:يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) ونلمح هنا أن فى قلب يعقوب شيء من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح (قال:سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم)وحكاية عبارته بكلمة (سوف)لا تخلو من إشارة إلى قلب إنسانى مكلوم . . ويمضى السياق فى مفاجآت القصة . فيطوى الزمان والمكان ، لنلتقى فى المشهد النهائى المؤثر المثير (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال:ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال:يا أبت ، هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى .إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم) ويا له من مشهد ! بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد واللهف الضامىء الشديد . يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع ! ويا له من مشهد ختامى موصول بمطلع القصة:ذلك فى ضمير الغيب وهذا فى واقع الحياة . ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال:ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه فى سجود إخوته له – وقد رفع أبويه على السرير الذى يجلس عليه – كما رأى الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين (ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) ثم يذكر نعمة الله عليه (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) ويذكر لطف الله فى تدبيره لتحقيق مشيئته (إن ربى لطيف لما يشاء) يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها (إنه هو العليم الحكيم) ذات التعبير الذى قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه فى مطلع القصة (إن ربك عليم حكيم) وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير ، نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان ، والرغد والأمان . . . ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر ! كل دعوته – وهو فى أبهة السلطان ، وفى فرحة تحقيق الأحلام – أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين: (رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت ولىي فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) (رب قد آتيتنى من الملك) آتيتنى منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله . فذلك من نعمة الدنيا (وعلمتنى من تأويل الأحاديث) بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم . نعمتك يا ربى أذكرها وأعددها (فاطر السماوات والأرض) بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى أهلها (أنت ولىي فى الدنيا والآخرة) فأنت الناصر والمعين . .

رب تلك نعمتك . وهذه قدرتك . رب إنى لا أسألك سلطانا ولا صحة ولا مالا . رب إنى أسألك ما هو أبقى وأغنى (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان . ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ,وأن يلحقه بالصالحين بين يديه . إنه النجاح المطلق فى الامتحان الأخير . .

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ{١٠٢} وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ{١٠٣} وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{١٠٤} وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ{١٠٥} وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ{١٠٦} أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{١٠٧} قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٠٨} وَمَا

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{١٠٩} حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ{١١٠} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ){٢١١}

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها . تلك التعقيبات التي أشرنا إليها في مقدمة الحديث عن السورة . وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة ، والجولات الموحية في صفحة الكون وفي أغوار النفس وفي آثار الغابرين ، وفي الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم . فنأخذ في استعراضها حسب ترتيبها في السياق . وهو ترتيب ذوهدف معلوم . تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم . وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة ، وقد غبرت بهم القرون . وقد سبق في مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) فها هو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ، ويعطف ختامها على مطلعها (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه ؛ ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إليك . وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم ، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه . وهم يمكرون بيوسف ، وهم يمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نجيا وهو من المكر بمعنى التدبير . وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن . . كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكي عنه إنما هو الوحي الذي سيقت السورة لتثبته من بين ما تثبت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين ، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة . ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي ، وإيحاء القصص ، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب ، أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، وهم يشهدون الرسول ﷺ ويعرفون أحواله ، ثم يسمعون منه ما يسمعون . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها ، ولا يدركون مدلولها ، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى ما يواجهه . فما الذي ينتظرونه ؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، ولقد كان الرسول ﷺ حريصا على إيمان قومه ، رغبة في إيصال الخير الذي جاء به إليهم ، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين من نكد الدنيا وعذاب الآخرة . ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ، ينهى إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ، لأنهم – كما قال في هذه الآيات – يمرون على الآيات الكثيرة معرضين . فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق . وإنك لغنى عن إيمانهم فما تطلب منهم أجرا على الهداية ؛ وإن شأنهم في الإعراض عنها لعجيب ، وهي تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل: (و ما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين) تذكرهم بآيات الله ، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم ، وهي مبذولة للعالمين ، لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة ، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد ، فيمتاز الأغنياء على الفقراء ، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين . إنما هي ذكرى للعالمين . ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد . . (وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) والآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر . في السماوات وفي الأرض . يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف النهار . وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخايل للقلوب والعقول . ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل في الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروي . لحظة تأمل في النبتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المتفتحة ، والحصيد الهشيم . لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسمك السابح في الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام . . لحظة تأمل في صبح أو مساء ، في هدأة الليل أو في زحمة النهار . . لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب . . إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب ، والتأثر المستجيب . ولكنهم (يمرون عليها وهم عنها معرضون) لذلك لا يؤمن الأكثرون ! وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك – في صورة من صوره – إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل

تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه . والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل فى قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى فى القلب دينونة إلا لله سبحانه ، ولا تبقى فى الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذى لا راد لما يريد (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) مشركون قيمة من قيم هذه الأرض فى تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سببا من الأسباب مع قدرة الله فى النفع أو الضر سواء . مشركون فى الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون فى رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق . مشركون فى تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون فى جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله . مشركون فى عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله . . لذلك يقول رسول الله ﷺ " الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل " . وفى الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفى: روى الترمذى – وحسنه – من رواية ابن عمر:" من حلف بغير الله فقد أشرك" . وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال:قال رسول الله ﷺ " إن الرقى والتمائم شرك " . وفى مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال:قال رسول الله [ص]:" من علق تميمة فقد أشرك " . وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن محمود بن لبيد أن رسول الله [ص] قال:" إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر " قالوا:وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال:" الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم:اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء " ؟ فهذا هو الشرك الخفى الذى يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان . وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله فى شأن من شؤون الحياة . الدينونة فى شرع يتحاكم إليه – وهو نص فى الشرك لا يجادل عليه – والدينونة فى تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة فى زى من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التى نصت شريعة الله أن تستر . . والأمر فى مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعا ودينونة لعرف اجتماعى سائد من صنع العبيد ، وتركا للأمر الواضح الصادر من رب العبيد . . إنه عندئذ لا يكون ذنبا ، ولكنه يكون شركا . لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله . . وهو من هذه الناحية أمر خطير . . ومن ثم يقول الله: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله فى الجزيرة ، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان وبعد فما الذى ينتظره أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة فى صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التى لا يسألون عليها أجرا ؟ ماذا ينتظرون ؟ (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ، وهى لمسة قوية لمشاعرهم ، لإيقاظهم من غفلتهم ، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة . فإن عذاب الله الذى لا يعلم موعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم ، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون . . إن الغيب موصد الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن ، ولا يدرى أحد ماذا سيكون اللحظة ، فكيف يأمن الغافلون ؟ و إذا كانت آيات هذا القرآن الذى يحمل دليل الرسالة ، وكانت الآيات التى يحفل بها الكون معروضة للأنظار . . إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ، ويشركون بالله شركا ظاهرا أو خفيا وهم الأكثرون . فالرسول ﷺ ماض فى طريقه ومن اهتدى بهديه ، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين (قل:هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ! وما أنا من المشركين) (قل:هذه سبيلى) واحدة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة (أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيدا ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة ، لا نخبط ولا نتحسس ، ولا نحدس . فهو اليقين البصير المستنير . ننزه الله – سبحانه – عما لا يليق بألوهيته ، وننفصل وننعزل ونتميز عن الذين يشركون به (وما أنا من المشركين) لا ظاهر الشرك ولا خافيه . هذه طريقى فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر فى طريقى المستقيم . وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التميز ، لا بد لهم ان يعلنوا أنهم أمة وحدهم ، يفترقون عمن لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ! ولا يكفى أن يدعو أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميعون فى المجتمع الجاهلى . فهذه الدعوة لا تؤدى شيئا ذا قيمة ! إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شىء آخر غير الجاهلية ؛ وأن يتميزوا بتجمع خاص آصرته العقيدة المتميزة ، وعنوانه القيادة الإسلامية . . لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلى ; وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلى أيضا ! إن اندغامهم وتميعهم فى المجتمع الجاهلى ، وبقاءهم فى ظل القيادة الجاهلية ، يذهب بكل السلطان الذى تحمله عقيدتهم ، وبكل الأثر الذى يمكن أن تنشئه دعوتهم ، وبكل الجاذبية التى يمكن أن تكون للدعوة الجديدة وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية فى أوساط المشركين . . إن مجالها هو مجال هذه الدعوة كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس . . وجاهلية القرن العشرين لا تختلف فى مقوماتها الأصيلة ، وفى ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ ! والذين

يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية , والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام . هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب ! . . إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم ! أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ وطريقهم الخاص ؟ وسبيلهم التي تفترق تماما عن سبيل الجاهلية .

ثم لفتة إلى سنة الله في رسالاته ، وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين . . إن محمدا ليس بدعا من الرسل ، ورسالته ليست بدعا من الرسالات . وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة في الأرض (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون) إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب . حتى قلوب المتجبرين . ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ؛ وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون , يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون . . ثم إذا هم ساكنون ، لا حس ولا حركة . آثارهم خاوية , طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة في الضمائر والمشاعر . . إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هزا مهما يكن جاسيا غافلا قاسيا . ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) لم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر . إنما كانوا بشرا مثلك من أهل الحاضرة ، لا من أهل البادية ، ليكونوا أرق حاشية وألين جانبا . . وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية , فرسالتك ماضية على سنة الله في إرسال رجال من البشر نوحي إليهم (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟)فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم ؛ وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم , وأن عاقبتهم في هذه الأرض إلى ذهاب (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) خير من هذه الدار التي ليس فيها قرار (أفلا تعقلون ؟) فتتدبروا سنن الله في الغابرين ؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير ? ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله ، وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد (حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل في قوته ، وكثرة أهله ، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة . إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . فتهجس في خواطرهم الهواجس . . تراهم كذبوا ؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا ؟ وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر ، في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة . . في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسما فاصلا (جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) تلك سنة الله في الدعوات . لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمرا ماحقا لا يقفون له ، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير . ذلك كي لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا . فلو كان النصر رخيصا لقام في كل يوم دعي بدعوة لا تكلفه شيئا . أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثا ولا لعبا . فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء . والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة ، لذلك يشفقون أن يدعوها ، فإذا ادعوها عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون ؛ الذين لا يتخلون عن دعوة الله ، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل ؛ إما أن تربح ربحا معينا محددا في هذه الأرض ، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحا وأيسر حصيلة ! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة ، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله ،

باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات . . ! ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف ، وأن الانضمام إليها فى وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضا . وأنه من ثم لا تنضم إليها – فى أول الأمر – الجماهير المستضعفة ، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة فى الجيل كله ، التى تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا . وأن عدد هذه الصفوة يكون دائما قليلا جدا . ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق ، بعد جهاد يطول أو يقصر . وعندئذ فقط تدخل الجماهير فى دين الله أفواجا . وفى قصة يوسف ألوان من الشدائد . فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن . وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس . . ثم كانت العاقبة خيرا للذين اتقوا – كما هو وعد الله الصادق الذى لا يخيب – وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين . فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

وهكذا يتوافق المطلع والختام فى السورة ، كما توافق المطلع والختام فى القصة . وتجىء التعقيبات فى أول القصة وآخرها ، وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة ، وطريقة أدائها ، وعباراتها كذلك . فتحقق الهدف الدينى كاملا ، وتحقق السمات الفنية كاملة ، مع صدق الرواية ، ومطابقة الواقع فى الموضوع . قد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة ، لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهى رؤيا تتحقق رويدا رويدا ، ويوما بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها – كما لا يتم التنسيق الفنى فيها – إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها فى موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات فى قصص الرسل الآخرين . كحلقة قصة سليمان مع بلقيس . أو حلقة قصة مولد مريم . أو حلقة قصة مولد عيسى . أو حلقة قصة نوح والطوفان . . . الخ فهذه الحلقات تفى بالغرض منها كاملا فى مواضعها . أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين)

سورة الرعـــد

مدنية و آياتها ٤٣

(المر تلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ{١} اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ{٢} وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{٣} وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٤} وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٥} وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ{٦} وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ{٧} اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ{٨} عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ{٩} سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ{١٠} لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ{١١} هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ{١٢} وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ{١٣} لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ{١٤} وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ{١٥} قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{١٦} أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ{١٧} لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ){١٨}

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة:قضية الوحى بهذا الكتاب ، والحق الذى اشتمل عليه . وتلك هى قاعدة بقية القضايا من توحيد الله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح فى الحياة . فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحى من عنده سبحانه إلى رسوله ﷺ (المر . تلك آيات الكتاب . والذى أنزل إليك من ربك الحق . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) ألف . لام . ميم . را . . (تلك آيات الكتاب). . آيات هذا القرآن . أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحى به من عند الله . إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحى الله ، لا من عمل مخلوق كائنا من كان (والذى أنزل إليك من ربك الحق) الحق وحده . الحق الخالص الذى لا يتلبس بالباطل . والذى لا يحتمل الشك والتردد . وتلك الأحرف آيات على أنه الحق . فهى آيات على أنه من عند الله . ولن يكون ما عند الله إلا حقا لا ريب فيه (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) لا يؤمنون بأنه موحى به ، ولا بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحى من توحيد لله ودينونة له وحده ومن بعث وعمل صالح فى الحياة . هذا هو الافتتاح الذى يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها . ومن ثم يبدأ فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحى لتبصير الناس ؛ وأن يكون هناك بعث لحساب الناس . وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم . وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم . وتبدأ الريشة المعجزة فى رسم المشاهد الكونية الضخمة . . لمسة فى السماوات ، ولمسة فى الأرضين . ولمسات فى مشاهد الأرض وكوامن الحياة .ثم التعجيب من قوم ينكرون البعث بعد هذه الآيات الضخام ، ويستعجلون عذاب الله ، ويطلبون آية غير هذه الآيات (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون) (وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها

زوجين اثنين , يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) (وإن تعجب فعجب قولهم:أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا:لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) والسماوات - أيا كان مدلولها وأيا كان ما يدركه الناس من لفظها فى شتى العصور - معروضة على الأنظار ، هائلة - ولا شك - حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة . وهى هكذا لا تستند إلى شىء . مرفوعة (بغير عمد) مكشوفة "ترونها" هذه هى اللمسة الأولى فى مجالى الكون الهائلة وهى بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنسانى , وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ؛ ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله ؛ وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه . ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنيان من عظمة ومن قدرة ومن إتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ؛ وعما وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة ، والإتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان ! من هذا المنظور الهائل الذى يراه الناس ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار: (ثم استوى على العرش . .) فإن كان علو فهذا أعلى . وإن كانت عظمة فهذا أعظم . وهو الاستعلاء المطلق ، يرسمه فى صورة على طريقة القرآن فى تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة . وهى لمسة أخرى هائلة من لمسات الريشة المعجزة . لمسة فى العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى فى العلو المنظور ، تتجاوران وتتسقان فى السياق . ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير . تسخير الشمس والقمر . تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخاذة ، أخذت بألبابهم فى اللمسة الأولى ، ثم إذا هى مسخرة بعد ذلك لله الكبير المتعال . ونقف لحظة أمام التقابلات المتداخلة فى المشهد قبل أن نمضى معه إلى غايته . فإذا نحن أمام ارتفاع فى الفضاء المنظور يقابله ارتفاع فى الغيب المجهول . وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير . وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان فى الجنس:نجم وكوكب , ويتقابلان فى الأوان ، بالليل والنهار . . ثم نمضى مع السياق . . فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير (كل يجرى لأجل مسمى) وإلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر . سواء فى جريانهما فى فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية . أو جريانهما فى مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه . أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور (يدبر الأمر) الأمر كله ، على هذا النحو من التدبير الذى يسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . . والذى يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فيجريها لأجل لا تتعداه , لا شك عظيم التدبير جليل التقدير . ومن تدبيره الأمر أنه (يفصل الآيات) وينظمها وينسقها ، ويعرض كلا منها فى حينه ، ولعلته , ولغايته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) حين ترون الآيات مفصلة منسقة ، ومن ورائها آيات الكون ، تلك التى أبدعتها يد الخالق أول مرة ، وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام . . ذلك كله يوحى بأن لا بد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا ، لتقدير أعمال البشر ، ومجازاتهم عليها . فذلك من كمال التقدير الذى توحى به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير وبعد ذلك يهبط الخط التصويرى الهائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحتها العريضة الأولى (وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والخطوط العريضة فى لوحة الأرض هى مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مداه . لا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته . إنما هى مع هذا ممدودة مبسوطة فسيحة . هذه هى اللمسة الأولى فى اللوحة . ثم يرسم خط الرواسى الثوابت من الجبال ، وخط الأنهار الجارية فى الأرض . فتتم الخطوط العريضة الأولى فى المشهد الأرضى ، متناسقة متقابلة . ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات ، وما يلابس الحياة فيها من كليات كذلك . وتتمثل الأولى فيما تنبت الأرض (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وتتمثل الثانية فى ظاهرتى الليل والنهار: يغشى الليل النهار .

والمشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريبا . هى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنونا أن ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة فى زهرة ، أو متفرقة فى العود . وهى حقيقة تتضامن مع المشهد فى إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملى ظواهره .

والمشهد الثاني مشهد الليل والنهار متعاقبين ، هذا يغشي ذاك ، في انتظام عجيب . هو ذاته مثار تأمل في مشاهد الطبيعة ، فقدوم ليل وإدبار نهار أو إشراق فجر وانقشاع ليل ,حادث تهون الألفة من وقعه في الحس ، ولكنه في ذاته عجب من العجب ، لمن ينفض عنه موات الألفة وخمودها ، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد ، الذي لم يجمده التكرار . . والنظام الدقيق الذي لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل في ناموس هذا الكون ,وتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره وترعاه: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . .(

ونقف كذلك هنا وقفة قصيرة أمام التقابلات الفنية في المشهد قبل أن نجاوزه إلى ما وراءه . . التقابلات بين الرواسي الثابتة والأنهار الجارية . وبين الزوج والزوج في كل الثمرات . وبين الليل والنهار . ثم بين مشهد الأرض كله ومشهد السماء السابق . وهما متكاملان في المشهد الكوني الكبير الذي يضمهما ويتألف منهما جميعا . ثم تمضي الريشة المبدعة في تخطيط وجه الأرض بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى (وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وهذه المشاهد الأرضية ، فينا الكثيرون يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها ! إلا أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذي هي قطعة منه ,انفصلت عنه لتتأمله ثم تندمج فيه (وفي الأرض قطع متجاورات) متعددة الشيات ، وإلا ما تبين أنها (قطع) فلو كانت مثماثلة لكانت قطعة . . منها الطيب الخصب ، ومنها السبخ النكد . ومنها المقفر الجدب . ومنها الصخر الصلد . وكل واحد من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات . ومنها العامر والغامر . ومنها المزروع الحي والمهمل الميت . ومنها الريان والعطشان . ومنها ومنها ومنها . . وهي كلها في الأرض متجاورات . هذه اللمسة العريضة الأولى في التخطيط التفصيلي . . ثم تتبعها تفصيلات (وجنات من أعناب) (وزرع),(ونخيل) تمثل ثلاثة أنواع من النبات ، الكرم المتسلق . والنخل السامق . والزرع من بقول وأزهار وما أشبه . مما يحقق تلوين المنظر ، وملء فراغ اللوحة الطبيعية ، والتمثيل لمختلف أشكال النبات . ذلك النخيل . صنوان وغير صنوان . منه ما هو عود واحد . ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد . . وكله (يسقى بماء واحد) والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) فمن غير الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذاك ؟!من منا لم يذق الطعوم مختلفات في نبت البقعة الواحدة . فكم منا التفت هذه اللفتة التي وجه القرآن إليها العقول والقلوب ؟ إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديدا أبدا ، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس ؛ وهي لا تنفد ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ومرة ثالثة نقف أمام التقابلات الفنية في اللوحة بين القطع المتجاورات المختلفات . والنخل صنوان وغير صنوان والطعوم مختلفات . والزرع والنخيل والأعناب تلك الجولة الهائلة في آفاق الكون الفسيحة ، يعود منها السياق ليعجب من قوم ، هذه الآيات كلها في الآفاق لا توقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر ، وقدرة الخالق ، كأن عقولهم مغلولة ، وكأن قلوبهم مقيدة ، فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات (وإن تعجب فعجب قولهم:أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ,وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وإنه لعجيب يستحق التعجيب ، أن يسأل قوم بعد هذا العرض الهائل: (أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟ والذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو ، قادر على إعادة الأناسي في بعث جديد . إنما هو الكفر بربهم الذي خلقهم ودبر أمرهم . وإنما هي أغلال العقل والقلب . فالجزاء هو الأغلال في الأعناق ، تنسيقا بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هو النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التي من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا في الدنيا فهم في الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التي عاشوها معطلي الفكر والشعور والإحساس . هؤلاء القوم الذين يعجبون من أن يبعثهم الله خلقا جديدا . وعجبهم هذا هو العجب ! هؤلاء يستعجلونك أن تأتيهم بعذاب الله ، بدلا من أن يطلبوا هدايته ويرجوا رحمته (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) وكما أنهم لا ينظرون في آفاق الكون ، وآيات الله المبثوثة في السماء والأرض ، فهم لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ؛ وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم (وقد خلت من قبلهم المثلات) فهم في غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بني البشر ، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) فهو بعباده رحيم حتى وإن ظلموا فترة ، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة . ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجون ، ولا يلجون من الباب المفتوح (وإن ربك لشديد العقاب) والسياق يقدم هنا مغفرة الله على عقابه ، في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية . ليبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذي يريده الله لهم ، والشر الذي يريدونه لأنفسهم . ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة ، وعمى القلب ، والانتكاس الذي يستحق درك النار ، ثم يمضي السياق في التعجيب من أمر القوم ، الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية ,فيطلبون

آية واحدة ينزلها الله على رسوله . آية واحدة والكون حولهم كله آيات :(ويقول الذين كفروا:لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد) إنهم يطلبون خارقة . والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه . إنما يبعث بها الله معه ، حين يرى بحكمته أنها لازمة . (إنما أنت منذر) محذر ومبصر . شأنك شأن كل رسول قبلك ، فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية (ولكل قوم هاد)فأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد . وبذلك تنتهى الجولة الأولى فى الآفاق ، والتعقيبات عليها . ليبدأ السياق جولة جديدة فى واد آخر:فى الأنفس والمشاعر والأحياء (الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه – يحفظونه – من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال) ويقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة فى التصوير ، وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة فى التعبير . يقف مشدوها وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه ؛ وهو يتبع الحمل المكنون فى الأرحام ، والسر المكنون فى الصدور ، والحركة الخفية فى جنح الليل ؛ وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر . وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف , يتتبعه شعاع من علم الله ، وتتعقبه حفظة تحصى خواطره ونواياه . . ألا إنها الرهبة الخاشعة التى لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن فى حماه . . وإن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله يشمل كل شيء . ولكن وقع هذه القضية الكلية فى الحس , لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها فى هذا التصوير العجيب . وأين أية قضية تجريدية ، وأية حقيقة كلية فى هذا المجال من قوله (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار)؟ حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى فى هذا الكون . . المترامى الأطراف . . كل أنثى . . كل أنثى فى الوبر والمدر ، فى البدو والحضر ، فى البيوت والكهوف والمسارب والغابات . ويتصور علم الله مطلا على كل حمل فى أرحام هذه الإناث ، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد فى تلك الأرحام ! وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية فى هذا المجال من قوله (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)؟ حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب فى هذا الكون الهائل . ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار ! إن اللمسات الأولى فى آفاق الكون الهائل ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة فى أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر . وإن هذه لكفء لتلك فى مجال التقابل والتناظر ونستعرض شيئا من بدائع التعبير والتصوير فى تلك الآيات (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار). . فلما أن صور العلم بالغيض والزيادة فى مكنونات الأرحام ، عقب بأن كل شيء عنده بمقدار . والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة . والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من ناحية الموضوع . كما أنها من ناحية الشكل والصورة ذات علاقة بما سيأتى بعدها من الماء الذى تسيل به الأودية "بقدرها" فى السيولة والتقدير . . كما أن فى الغيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة فى جو السورة على الإطلاق (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) ولفظة (الكبير) ولفظة (المتعال) كلتاهما تلقى ظلها فى الحس . ولكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى . إنه ما من خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره . وما يقال عن خلق من خلق الله كبير ، أو أمر من الأمور كبير ، أو عمل من الأعمال كبير ، حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله . . وكذلك(المتعال). . ترانى قلت شيئا ؟ لا . ولا أى مفسر آخر للقرآن وقف أمام (الكبير المتعال)! (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) والتقابل واضح فى العبارة . إنما تستوقفنا كلمة (سارب) وهى تكاد بظلها تعطى عكس معناها , فظلها ظل خفاء أو قريب من الخفاء . والسارب هو الذاهب . فالحركة فيها هى المقصودة فى مقابل الاستخفاء . هذه النعومة فى جرس اللفظ وظله مقصودة هنا كى لا تخدش الجو . جو العلم الخفى اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافى والمستخفى بالليل والمعقبات التى لا تراها الأنظار . فاختار اللفظ الذى يؤدى معنى التقابل مع المستخفى ولكن فى لين ولطف وشبه خفاء ! (له معقبات من بين يديه ومن خلفه – يحفظونه – من أمر الله) والحفظة التى تتعقب كل إنسان ، وتحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة ، والتى هى من أمر الله ، لا يتعرض لها السياق هنا بوصف ولا تعريف . أكثر من أنها . .) من أمر الله). . فلا نتعرض نحن لها:ما هى ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تتعقب ؟ وأين تكون ؟ ولا نذهب بجو الخفاء والرهبة والتعقب الذى يسبغه السياق . فذلك هو المقصود هنا ؛ وقد جاء التعبير بقدره ؛ ولم يجىء هكذا جزافا ؛ وكل من له ذوق بأجواء التعبير يشفق من أن يشوه هذا الجو الغامض بالكشف والتفصيل ! (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم . فإنه لا يغير نعمة أو

بؤسى ، ولا يغير عزا أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانة . . إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم , فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم . وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون . ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ، ويجيء لاحقا له في الزمان بالقياس إليهم . وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته ، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم . والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك – إلى جانب التبعة – دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله , أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه . وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله ما بقوم إلى السوء ؛ لأنهم – حسب المفهوم من الآية – غيروا ما بأنفسهم إلى أسوء فأراد لهم الله السوء (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه في معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم ، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم – إذا استحقوه بما في أنفسهم – ولا يعصمهم منه وال يناصرهم . . ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في واد آخر ، موصول بذلك الوادي الذي كنا فيه . واد تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، متداخلة متناسقة في الصورة والظل والإيقاع . وتخيم عليه الرهبة والضراعة والجهد والإشفاق . وتظل النفس فيه في ترقب وحذر , وفي تأثر وانفعال (هو الذي يريكم البرق . خوفا وطمعا . وينشيء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم ، بالغدو والآصال . قل:من رب السماوات والأرض ؟ قل:الله . قل:أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل:هل يستوي الأعمى والبصير . أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل:الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان . وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس – سواء عند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والذين لا يعرفون عن الله شيئا ! والسياق يحشدها هنا ؛ ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، والدعاء الحق والدعاء الذي لا يستجاب . ويضم إليها هيئة أخرى:هيئة ملهوف يتطلب الماء ، باسطا كفيه ليبلغه ، فاتحا فاه يتلقف منه قطرة . . هذه كلها لا تتجمع في النص اتفاقا أو جزافا . إنما تتجمع لتلقي كلها ظلالها على المشهد , وتلفه في جو من الرهبة والترقب ، والخوف والطمع ، والضراعة والارتجاف ، في سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، نفيا للشركاء المدعاة ، وإرهابا من عقبى الشرك بالله (هو الذي يريكم البرق . خوفا وطمعا) هو الله الذي يريكم هذه الظاهرة الكونية ، فهي ناشئة من طبيعة الكون التي خلقها هو على هذا النحو الخاص ، وجعل لها خصائصها وظواهرها . ومنها البرق الذي يريكم إياه وفق ناموسه ، فتخافونه لأنه بذاته يهز الأعصاب ، ولأنه قد يتحول إلى صاعقة ، ولأنه قد يكون نذيرا بسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم . وتطمعون في الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر المدرار المحيي للموات ، المجري للأنهار (وينشيء السحاب الثقال) وهو كذلك الذي ينشيء السحاب – والسحاب اسم جنس واحدته سحابة – الثقال بالماء . فوفق ناموسه في خلقه هذا الكون وتركيبه تتكون السحب ، وتهطل الأمطار . ولو لم يجعل خلفة الكون على هذا النحو ما تكونت سحب ولا هطلت أمطار . ومعرفة كيف تتكون السحب ، وكيفية هطول الأمطار لا تفقد هذه الظاهرة الكونية شيئا من روعتها ، ولا شيئا من دلالتها . فهي تتكون وفق تركيب كوني خاص لم يصنعه أحد إلا الله . ووفق ناموس معين يحكم هذا التركيب لم يشترك في سنه أحد من عبيد الله ! كما أن هذا الكون لم يخلق نفسه , ولا هو الذي ركب في ذاته ناموسه !

والرعد . . الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق والرعد . . هذا الصوت المقرقع المدوي . إنه أثر من آثار الناموس الكوني ، الذي صنعه الله – أيا كانت طبيعته وأسبابه – فهو رجع صنع الله في هذا الكون ، فهو حمد وتسبيح بالقدرة التي صاغت هذا النظام . كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان . . وقد يكون المدلول المباشر للفظ يسبح هو المقصود فعلا ، ويكون الرعد(يسبح) فعلا بحمد الله . فهذا الغيب الذي زواه الله عن البشر لا بد أن يتلقاه البشر بالتصديق والتسليم وهم لا يعلمون من أمر هذا الكون ولا من أمر أنفسهم إلا القليل !

وقد اختار التعبير أن ينص على تسبيح الرعد بالحمد اتباعا لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة

المشهد كله – كما فصلت هذا في كتاب التصوير الفنى فى القرآن – والمشهد هنا مشهد أحياء فى جو طبيعى . وفيه الملائكة تسبح من خيفته ، وفيه دعاء لله ، ودعاء للشركاء . وفيه باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . . ففى وسط هذا المشهد الداعى العابد المتحرك اشترك الرعد ككائن حي بصوته فى التسبيح والدعاء . . ثم يكمل جو الرهبة والابتهال والبرق والرعد والسحاب الثقال . . بالصواعق يرسلها فيصيب بها من يشاء . والصواعق ظاهرة طبيعية ناشئة من تركيب الكون على هذا المنوال ؛ والله يصيب بها أحيانا من غيروا ما بأنفسهم واقتضت حكمته ألا يمهلهم ، لعلمه أن لا خير فى إمهالهم ، فاستحقوا الهلاك . . والعجيب أنه في هول البرق والرعد والصواعق ، وفى زحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه . . فى هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل فى الله صاحب كل هذه القوى وباعث كل هذه الأصوات التي ترتفع على كل جدال وكل محال(وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال)! وهكذا تضيع أصواتهم الضعيفة فى غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهال والرعد والقرقعة والصواعق ، الناطقة كلها بوجود الله – الذى يجادلون فيه – وبوحدانيته واتجاه التسبيح والحمد إليه وحده من أضخم مجالى الكون الهائل ، ومن الملائكة الذين يسبحون من خيفته [وللخوف إيقاعه في هذا المجال] فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ؟! وهم يجادلون فى الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه . ودعوة الله هى وحدها الحق ; وما عداها باطل ذاهب ، لا ينال صاحبه منه إلا العناء (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف . . فدعوة واحدة هى الحق ، وهى التى تحق ، وهى التى تستجاب . إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونة ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء . . ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟ انظروا هذا واحد منهم . ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه . وفمه مفتوح يلهث بالدعاء . يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه . وما هو ببالغه . بعد الجهد واللهفة والعناء . وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء: (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) وفى أى جو لا يبلغ هذا الداعى اللاهف اللاهث قطرة من ماء ؟ في جو البرق والرعد والسحاب الثقال ، التى تجرى هناك بأمر الله الواحد القهار ! وفى الوقت الذى يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء , إذا كل من فى الكون يعنو لله . وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته ،مسيرون وفق ناموسه . المؤمن منهم يخضع طاعة وإيمانا ، وغير المؤمن يخضع أخذا وإرغاما , فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذى سنه للحياة (ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم ، بالغدو والآصال) ولأن الجو جو عبادة ودعاء ، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ، ثم يضم إلى شخوص من فى السماوات والأرض ، ظلالهم كذلك . ظلالهم بالغدو فى الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال . يضم هذه الظلال إلى الشخوص فى السجود والخضوع والامتثال . وهى في ذاتها حقيقة ، فالظلال تبع للشخوص . ثم تلقى هذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب . وإذا السجود مزدوج:شخوص وظلال ! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله . . وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله ! وفى جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية . فما يجدر بالمشرك بالله في مثل هذا الجو إلا التهكم ، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء (قل:من رب السماوات والأرض ؟ قل:الله . قل:أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل:هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل:الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار) سلهم – وكل من فى السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته – رضى أم كره (من رب السماوات والأرض ؟). . وهو سؤال لا ليجيبوا عنه ، فقد أجاب السياق من قبل . إنما ليسمعوا الجواب ملفوظا وقد رأوه مشهودا: قل:الله . . ثم سلهم: (أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟). . سلهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء . سلهم والقضية واضحة ، والفرق بين الحق والباطل واضح:وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور . وفى ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين ؛ فالعمى وحده هو الذى يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذى يحس بأثره كل من فى السماوات والأرض . وفى ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين , فالظلمات التى تحجب الرؤية هى التى تلفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين . أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله ، خلقوا مخلوقات كالتى خلقها الله . فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك ، فلم يدروا أيها من خلق الله وأيها من خلق الشركاء ؟ فهم معذورون إذن إن كان الأمر كذلك ، فى اتخاذ الشركاء ، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق , التى بها يستحق المعبود العبادة ؛ وبدونها لا تقوم شبهة فى عدم استحقاقه ! وهو التهكم المر على القوم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة

المدعاة لم تخلق شيئا ، وما هى بخالقة شيئا ، إنما هى مخلوقة . وبعد هذا كله يعبدونها ويدينون لها فى غير شبهة . وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير . . والتعقيب على هذا التهكم اللاذع ، حيث لا معارضة ولا جدال ، بعد هذا السؤال (قل:الله خالق كل شىء . وهو الواحد القهار) فهى الوحدانية فى الخلق ، وهى الوحدانية فى القهر – أقصى درجات السلطان – وهكذا تحاط قضية الشركاء فى مطلعها بسجود من فى السماوات والأرض وظلالهم طوعا وكرها لله ؛ وفى ختامها بالقهر الذى يخضع له كل شىء فى الأرض أو فى السماء . . وقد سبقته من قبل بروق ورعود وصواعق وتسبيح وتحميد عن خوف أو طمع . . فأين القلب الذى يصمد لهذا الهول , إلا أن يكون أعمى مطموسا يعيش فى الظلمات ، حتى يأخذه الهلاك ؟! وقبل أن نغادر هذا الوادى نشير إلى التقابلات الملحوظة فى طريقة الأداء . بين (خوفا وطمعا) وبين البرق الخاطف والسحاب الثقال و(الثقال)هنا بعد إشارتها إلى الماء , تشارك فى صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف – وبين تسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة من خيفته . وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع . وبين السماوات والأرض , وسجود من فيهن طوعا وكرها . وبين الشخوص والظلال . وبين الغدو والآصال . وبين الأعمى والبصير . وبين الظلمات والنور . وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئا ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . . . وهكذا يمضى السياق على نهجه فى دقة ملحوظة ولألاء باهر وتنسيق عجيب . ثم نمضى مع السياق . يضرب مثلا للحق والباطل . للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح . للخير الهادىء والشر المتنفج . والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار . ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء . وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمضي فى جوها السياق (أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا:ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب ا لله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال) وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال فى المشهد السابق ؛ ويؤلف جانبا من المشهد الكونى العام ، الذي تجرى فى وجوه قضايا السورة وموضوعاتها . وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار . . وأن تسيل هذه الأودية بقدرها ، كل بحسبه ، وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شىء . . وهى إحدى القضايا التي تعالجها السورة . . وليس هذا أو ذاك بعد إلا إطارا للمثل الذى يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذى يمرون عليه دون انتباه . إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلم فى طريقه غثاء ، فيطفو على وجهه فى صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء فى بعض الأحيان . هذا الزبد نافش راب منتفخ . . ولكنه بعد غثاء . والماء من تحته سارب ساكن هادىء . . ولكنه هو الماء الذى يحمل الخير والحياة . . كذلك يقع فى المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة ، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل . ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن فى نقاء . . ذلك مثل الحق والباطل فى هذه الحياة . فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا ولكنه بعد زبد أو خبث ، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة ولا تماسك فيه . والحق يظل هادئا ساكنا . وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات . ولكنه هو الباقى فى الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح ، ينفع الناس . (كذلك يضرب الله الأمثال) وكذلك يقرر مصائر الدعوات ، ومصائر الاعتقادات . ومصائر الأعمال والأقوال . وهو الله الواحد القهار ، المدبر للكون والحياة ، العليم بالظاهر والباطن والحق والباطل والباقى والزائل . فمن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملك ما فى الأرض ومثله معه أن يفتدى به . وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذى يسوء ، وإنما هى جهنم لهم مهاد . ويا لسوء المهاد ! (للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم . وبئس المهاد) ويتقابل الذين يستجيبون مع الذين لا يستجيبون . وتتقابل الحسنى مع سوء العذاب . . ومع جهنم وبئس المهاد . . على منهج السورة كلها وطريقتها المطردة فى الأداء . .

(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{١٩} الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ{٢٠} وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ{٢١} وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ{٢٢} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ{٢٣} سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ{٢٤} وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ{٢٥} اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ{٢٦} وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي

إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ{٢٧} الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{٢٨} الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ{٢٩} كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ{٣٠} وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ{٣١} وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ{٣٢} أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{٣٣} لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ{٣٤} مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ{٣٥} وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ{٣٦} وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ{٣٧} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ{٣٨} يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ{٣٩} وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ{٤٠} أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{٤١} وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ{٤٢} وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ{٤٣}

بعد المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفى أعماق الغيب , وفى أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول ، يأخذ الشطر الثانى فى لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة رفيقة ، حول قضية الوحى والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء , ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد . . وهى جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة . وتبدأ هذه الجولة بلمسة فى طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثانى عمى . وفى طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء . يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين . فلمسة فى بسط الرزق وتقديره وردهما إلى الله . فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله . فوصف لهذا القرآن الذى يكاد يسير الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتي . فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم أو تحل قريبا من دارهم . فجدل تهكمى حول الآلهة المدعاة . فلمسة من مصارع الغابرين ونقص أطراف الأرض منهم حينا بعد حين . يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول ﷺ بتركهم للمصير المعلوم ! من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية فى شطر السورة الأول ، تحضر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل فى شطرها الثاني ، وهى على استعداد وتفتح لتلقيها ; وأن شطرى السورة متكاملان ؛ وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة . والقضية الأولى هى قضية الوحى . وقد أثيرت فى صدر السورة . وهى تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟) إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق فى الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده هو الذي ينشى ء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تخفى إلا على أعمى . والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان:مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ! والعمي عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلال القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة فى الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع (إنما يتذكر أولو الألباب) الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر . وهذه صفات أولى الألباب هؤلاء (الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق) وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق . والعهد الأكبر الذى تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ؛ والميثاق الأكبر الذى تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان . وعهد الإيمان قديم وجديد . قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله ؛ المدركة إدراكا مباشرا لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة , وأنه وحده المعبود . وهو الميثاق المأخوذ على الذرية فى ظهور بنى آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير . . ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجددوه ويذكروا به ويفصلوه ، ويبينوا مقتضياته من الدينونة لله وحده والانخلاع من الدينونة لسواه ، مع العمل الصالح والسلوك القويم ، والتوجه به إلى الله

وحده صاحب الميثاق القديم . ثم تترتب على العهد الإلهي والميثاق الربانى كل العهود والمواثيق مع البشر . سواء مع الرسول أو مع الناس . ذوى قرابة أو أجانب . أفرادا أم جماعات . فالذى يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود ، لأن رعايتها فريضة ؛ والذى ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدى كل ما هو مطلوب منه للناس ، لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق . فهى القاعدة الضخمة الأولى التى يقوم عليها بنيان الحياة كله . يقررها فى كلمات (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب) هكذا فى إجمال . فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه . أى أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة ، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء . لهذا ترك الأمر مجملا ، ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل ، لأن هذا التفصيل يطول ,وهو غير مقصود ، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التى لا تلتوى ، والطاعة المطلقة التى لا تتفلت ، والصلة المطلقة التى لا تنقطع . . ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة (ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب) فهى خشية الله ومخافة العقاب الذى يسوء قى يوم لقائه الرهيب . وهم أولوا الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) والصبر ألوان . وللصبر مقتضيات . صبر على تكاليف الميثاق . من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد . . . الخ وصبر على النعماء والبأساء . وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر . وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهى تضيق الصدور . . وصبر وصبر و صبر . . كله ابتغاء وجه ربهم ، لا تحرجا من أن يقول الناس:جذعوا . ولا تجملا ليقول الناس:صبروا . ولا رجاء فى نفع من وراء الصبر . ولا دفعا لضر يأتى به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله ، والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع (وأقاموا الصلاة) وهى داخلة فى الوفاء بعهد الله وميثاقه ، ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء ,ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله ، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب ,الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) وهى داخلة فى وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وفى الوفاء بتكاليف الميثاق . ولكنه يبرزها لأنها الصلة بين عباد الله ، التى تجمعهم فى الله وهم فى نطاق الحياة . والتى تزكى نفس معطيها من البخل ، وتزكى نفس آخذها من الغل ؛ وتجعل الحياة فى المجتمع المسلم لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الكرام على الله . والإنفاق سرا وعلانية . السر حيث تصان الكرامة وتطلب المروءة ، وتتحرج النفس من الإعلان . والعلانية حيث تطلب الأسوة ، وتنفذ الشريعة ، ويطاع القانون . ولكل موضعه فى الحياة (ويدرأون بالحسنة السيئة) والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة فى التعاملات اليومية لا فى دين الله . ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شرة النفوس ,وتوجهها إلى الخير ؛ وتطفىء جذوة الشر ، وترد نزغ الشيطان ، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها فى النهاية . فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيبا فى مقابلة السيئة بالحسنة وطلبا لنتيجتها المرتقبة . . ثم هى إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون فى هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ! فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع , فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلى . ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين المتماثلين . فأما فى دين الله فلا . . إن المستعلى الغاشم لا يجدى معه إلا الدفع الصارم . والمفسدون فى الأرض لا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم . والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب (أولئك لهم عقبى الدار:جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار) أولئك فى مقامهم العالى لهم عقبى الدار:جنات عدن للإقامة والقرار . فى هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم . ولكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقى أحبابهم ، وهى لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان . وفى جو التجمع والتلاقى يشترك الملائكة فى التأهيل والتكريم ، فى حركة رائجة غادية (يدخلون عليهم من كل باب) ويدعنا السياق نرى المشهد حاضرا وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافا أطوافا (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام . وعلى الضفة الأخرى أولئك الذين لا ألباب لهم فيتذكروا . ولا بصيرة لهم فيبصروا . وهم على النقيض فى كل شىء مع أولى الألباب (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض . أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار) إنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة فى صورة الناموس الأزلى ؛ وينقضون من بعده كل عهد ، فمتى نقض العهد الأول فكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس . والذى لا يرعى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق . ويفسدون فى الأرض فى مقابل صبر أولئك وإقامتهم للصلاة وإنفاقهم سرا وعلانية ودرء السيئة بالحسنة . فالإفساد فى الأرض يقابل هذا كله ، وترك شىء من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد (أولئك). . المبعدون المطرودون (لهم اللعنة)

والطرد فى مقابل التكريم هناك (ولهم سوء الدا ر) ولا حاجة إلى ذكرها ، فقد عرفت بمقابلها هناك ! أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم . مع أن الله هو الذى يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق فالأمر كله إليه فى الأولى والآخرة على السواء . ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض ، وهو الذى أعطاهم إياه (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق ، ومن هو أعمى . فالآن يحكى السياق شيئا عن العمى الذين لا يرون آيات الله فى الكون ، والذين لا يكفيهم هذا القرآن ، فإذا هم يطلبون آية . وقد حكى السياق شيئا كهذا فى شطر السورة الأول ، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذرا والآيات عند الله . وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال . ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله ، لا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها . هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ,ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية . وينهى الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والخوارق بتيئيس المؤمنين منهم ، وبتوجيههم إلى المثلات من قبلهم , وإلى ما يحل بالمكذبين من حولهم بين الحين والحين (ويقول الذين كفروا:لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل:إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب:الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل:هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت ، وإليه متاب) (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعا . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزى ء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم . فكيف كان عقاب ؟) إن الرد على طلبهم آية خارقة ، أن الآيات ليست هى التى تقود الناس إلى الإيمان ، فللإيمان دواعيه الأصيلة فى النفوس ، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس: (قل:إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) فالله يهدى من ينيبون إليه . فالإنابة إلى الله هى التى جعلتهم أهلا لهداه . والمفهوم إذن أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضلال ، فيضلهم الله . فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه ، أما القلوب التى لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد ، ثم يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة . فى جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه وفى حماه . تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق . بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمته فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ذلك الاطمئنان بذكر الله فى قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله . يعرفونها ، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلا الآخرين الذين لم يعرفوها ، لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما تسرى فى القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام ، ويحس أنه فى هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس . فكل ما حوله صديق ، إذ كل ما حوله من صنع الله الذى هو فى حماه . وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس أشقى ممن ينطلق فى هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله فى الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التى تربطه بما حوله فى الله خالق الكون . ليس أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء ؟ ولم يذهب ? ولم يعانى ما يعانى فى الحياة ؟ ليس أشقى ممن يسير فى الأرض يوجس من كل شىء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شىء فى هذا الوجود . ليس أشقى فى الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا فى فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين . وإن هناك للحظات فى الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله ، مطمئنا إلى حماه ، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . . ففى الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) هؤلاء المنيبون إلى الله ، المطمئنون بذكر الله ، يحسن الله مآبهم عنده ، كما أحسنوا الإنابة إليه وكما أحسنوا العمل فى الحياة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) طوبى] على وزن كبرى من طاب يطيب] للتفخيم والتعظيم . وحسن مآب إلى الله الذى أنابوا إليه فى الحياة . . أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم فى قلق يطلبون الخوارق والمعجزات . ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ما جئت به حتى يكون الأمر عليهم غريبا , فقد خلت من قبلهم الأمم وخلت من قبلهم الرسل . فإذا كفروا هم فلتمض على نهجك ولتتوكل على الله (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ، لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل:هو ربى لا إله إلا ، هو عليه توكلت ، وإليه متاب) والعجيب أنهم يكفرون بالرحمن ، العظيم الرحمة ، الذى

تطمئن القلوب بذكره ، واستشعار رحمته الكبرى . وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك . فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سواه . وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن . هذا القرآن العجيب ، الذى لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ، لكان فى هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ، ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات . ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء . فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون ، وأن يدعوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعا . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد) ولقد صنع هذا القرآن فى النفوس التى تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى . لقد صنع فى هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارا فى أقدار الحياة ، بل أبعد أثرا فى شكل الأرض ذاته . فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض ، إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟! وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها . طبيعته فى دعوته وفى تعبيره . طبيعته فى موضوعه وفى أدائه . طبيعته فى حقيقته وفى تأثيره . . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة ، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به . والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ؛ وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ما هو أخمد من الموتى . وهو الشعوب التى قتل روحها الطغيان والأوهام . والتحول الذى تم فى نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه فى النفوس والحياة ، أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها ، وتحول الموتى عن الموات ! (بل لله الأمر جميعا) وهو الذى يختار نوع الحركة وأداتها فى كل حال . فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما أجدر المؤمنين الذى يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم ؛ وأن يدعوا الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، فلهدى الناس جميعا على نحو خلقة الملائكة لو كان يريد . أو لقهرهم على الهدى بأمر قدرى منه . . ولكن لم يرد هذا ولا ذاك . لأنه خلق هذا الإنسان لمهمة خاصة يعلم سبحانه أنها تقتضى خلقته على هذا النحو الذى كان . فليدعوهم إذن لأمر الله . وإذا كان الله قد قدر ألا يهلكهم هلاك استئصال فى جيل كبعض الأقوام قبلهم ، فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك (أو تحل قريبا من دارهم). فتروعهم وتدعهم فى قلق وانتظار لمثلها ؛ وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتحييها (حتى يأتى وعد الله) الذى أعطاهم إياه ، وأمهلهم إلى انتهاء أجله (إن الله لا يخلف الميعاد) فهو آت لا ريب فيه ، فملاقون فيه ما وعدوه . والأمثلة حاضرة ، وفى مصارع الغابرين عبرة ، بعد الإنظار والإمهال: ولقد استهزى ء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ؟ . وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب . فلقد كان عقابا تتحدث به الأجيال !!! والقضية الثانية هى قضية الشركاء . وقد أثيرت فى الشطر الأول من السورة كذلك . وهى تثار هنا فى سؤال تهكمى حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس ، المجازى لها بما كسبت فى الحياة . وتنتهى هذه الجولة بتصوير العذاب الذى ينتظر المفترين لهذه الفرية فى الدنيا والعذاب الأشق فى الآخرة . وفى مقابلة ما ينتظر المتقين من أمن وسلام ! (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء . قل:سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد . لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق) (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار) والله سبحانه رقيب على كل نفس ، مسيطر عليها فى كل حال ، عالم بما كسبت فى السر والجهر . ولكن التعبير القرآنى المصور يشخص الرقابة والسيطرة والعلم فى صورة حسية – على طريقة القرآن – صورة ترتعد لها الفرائص (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) فلتتصور كل نفس أن عليها حارسا قائما عليها مشرفا مراقبا يحاسبها بما كسبت . ومن ? إنه الله ! فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهى فى ذاتها حق ، إنما يجسمها التعبير للإدراك البشرى الذى يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريديات . أفذلك كذلك ؟ ثم يجعلون لله شركاء ؟! هنا يبدو تصرفهم مستنكرا مستغربا فى ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب (وجعلوا لله شركاء) الله القائم على كل نفس بما كسبت ، لا تفلت منه ولا تروغ (قل:سموهم)! فإنهم نكرات مجهولة . وقد تكون لهم أسماء . ولكن التعبير هنا ينزلهم منزلة النكرات التى لا تعرف أسماؤها (أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟). . يا للتهكم ! أم إنكم أنتم بشر تعلمون ما لا يعلمه الله ؟ فتعلمون أن هناك آلهة فى الأرض ، وغاب هذا عن علم الله ؟! إنها دعوى لا يجرؤون على تصورها . ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال ، حين يقول الله أن ليست هناك آلهة ، فيدعون وجودها وقد نفاه الله ! (أم بظاهر من القول ؟) تدعون وجودها بكلام سطحى

ليس وراءه مدلول . وهل قضية الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول ؟! وينتهى هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل (بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد) فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى , فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن وجميل ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم . ومن تقتضي سنة الله ضلاله لأنه سار في طريق الضلال فلن يهديه أحد ، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هي العذاب (لهم عذاب في الحياة الدنيا) إن أصابتهم قارعة فيها ، وإن حلت قريبا من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع . وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب ، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب . ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب (ولعذاب الآخرة أشق) ويتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود (وما لهم من الله من واق) يحميهم من أخذه ، ومن نكاله . فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله بهم من عذاب . وعلى الضفة الأخرى (المتقون). في مقابل (وما لهم من الله من واق). المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم في مأمن من العذاب . بل لهم فوق الأمن الجنة التي وعدوها: (مثل الجنة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها) فهو المتاع والاسترواح – ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح – في مقابل المشقة هناك ، ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء (تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار) ويمضى السياق مع قضية الوحى وقضية التوحيد معا يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول ﷺ ويبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله ، وهو المرجع الأخير ، أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذى جاء به الرسل كافة ؛ ومحا ما شاء محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته . فليقف عندما أنزل عليه ، لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب في كبيرة ولا صغيرة . أما الذين يطلبون منه آية ، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ (والذين آتيانهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل:إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو ، وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ، ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب) إن الفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه ، يجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد ؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقته وكتبها , ودرسها مع الإكبار والتقدير ، وتصور الآصرة الواحدة التي تربط المؤمنين بالله جميعا . فمن ثم يفرحون ويؤمنون . والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق ، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) الأحزاب من أهل الكتاب والمشركين . .ولم يذكر السياق هذا البعض الذى ينكرونه ،لأنه الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه (قل:إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو ، وإليه مآب) فله وحده العبادة ، وإليه وحده الدعوة ، وله وحده المآب . وقد أمر الرسول ﷺأن يعلن منهجه في مواجهة من ينكر بعض الكتاب ، وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذى أنزل إليه من ربه ، سواء فرح به أهل الكتاب كله ,أم أنكر فريق منهم بعضه . ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير ، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماما ، وإليه يرجع ما دام هو حكم الله الأخير في العقيدة (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق) فالذى جاءك هو العلم اليقين ، وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين . وهذا التهديد الموجه إلى الرسول ﷺ أبلغ في تقرير هذه الحقيقة ، التي لا تسامح في الانحراف عنها ، حتى ولو كان من الرسول ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام . وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشرا (وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية ، فذلك ليس من شأنه إنما هو شأن الله) (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) وفق ما تقتضيه حكمته وعندما يشاء . وإذا كان هناك خلاف جزئي بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب ، فإن لكل فترة كتابا ، وهذا هو الكتاب الأخير (لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فما انقضت حكمته يمحوه ، وما هو نافع يثبته . وعنده أصل الكتاب ، المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه . فعنه صدر الكتاب كله ، وهو المتصرف فيه ، حسبما تقتضى حكمته ، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض . وسواء أخذهم الله في حياة الرسول ﷺ بشيء مما أوعدهم ، أو توفاه إليه قبل ذلك , فإن هذا لا يغير من الأمر شيئا ، ولا يبدل من طبيعة الرسالة وطبيعة الألوهية وإما نرينك بعض الذى تعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب . . وفي هذا التوجيه الحاسم ما فيه من بيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة . . إن الدعاة إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا تكاليف الدعوة في كل مراحلها ؛ وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ما يشاؤه الله . كما أنه ليس لهم أن

يستعجلوا خطوات الحركة ، ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة ، إذا رأوا قدر الله يبطىء بهم عن الغلب الظاهر والتمكين فى الأرض ، إنهم دعاة وليسوا إلا دعاة . وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم ، فهى تأتى الأمم القوية الغنية – حين تبطر وتكفر وتفسد – فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها ؛ وتحصرها فى رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد ، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ، ولا بد له من النفاذ (أولم يروا أنا نأتى الأرض تنقصها من أطرافها ! والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب) (وليسوا هم بأشد مكرا ولا تدبيرا ولا كيدا ممن كان قبلهم . فأخذهم الله وهو أحكم تدبيرا و أعظم كيدا) (وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا . يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة . وقد بدأها بإثبات الرسالة . فيلتقى البدء والختام . ويشهد الله مكتفيا بشهادته . وهو الذى عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب (ويقول الذين كفروا:لست مرسلا . قل:كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب) وتنتهى السورة وقد طوفت بالقلب البشرى فى أرجاء الكون ، وأرجاء النفس ، ووقعت عليه إيقاعات مطردة مؤثرة عميقة . وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله التى جاء بها المطلع وجاء بها الختام ، والتى يحسم بها كل جدل ، وينتهى بعدها كل كلام . .

تعقيب على تفسير سورة الرعد

وبعد . . ففى السورة معالم للعقيدة الإسلامية ، وللمنهج القرآنى فى عرض هذه العقيدة . . وكان من حق هذه المعالم أن نقف عندها فى مواضعها ؛ لولا أننا آثرنا ألا نقطع تدفق السياق القرآنى فى هذه السورة بتلك الوقفات ؛ وأن نبقيها إلى النهاية لنقف أمامها متمهلين ! وقد أشرنا فى أثناء استعراض السورة فى سياقها إلى تلك المعالم إشارات سريعة ؛ فنرجو أن نقف عندها الآن وقفات أطول بقدر المستطاع . والله المستعان . .

إن افتتاح السورة ، وطبيعة الموضوعات التى تعالجها ، وكثيرا من التوجيهات فيها . . كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية – وليست مدنية كما جاء فى بعض الروايات والمصاحف – وأنها نزلت فى فترة اشتد فيها الإعراض والتكذيب والتحدى من المشركين ; كما كثر فيها طلب الخوارق من الرسول ﷺ واستعجال العذاب الذى ينذرهم به ; مما اقتضى حملة ضخمة تستهدف تثبيت الرسول ﷺ ومن معه على الحق الذى أنزل إليه من ربه ، فى وجه المعارضة والإعراض ، والتكذيب والتحدى ؛ والاستعلاء بهذا الحق ,والالتجاء إلى الله وحده ؛ وإعلان وحدانيته إلها وربا ؛ والثبات على هذه الحقيقة ; والاعتقاد بأنها هى وحدها الحق ، مهما كذب بها المشركون . كما تستهدف مواجهة المشركين بدلائل هذا الحق فى الكون كله ، وفى أنفسهم ، وفى التاريخ البشرى وأحداثه كذلك ; مع حشد جميع هذه المؤثرات ومخاطبة الكينونة البشرية بها خطابا مؤثرا موحيا عميق الإيقاع قوى الدلالة . وهذه نماذج من التوكيدات على أن هذا الكتاب هو وحده الحق ؛ وأن الإعراض عنه ، والتكذيب به ، والتحدى ، وبطء الاستجابة ، ووعورة الطريق . . كلها لا تغير شيئا من تلك الحقيقة الكبيرة (تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن . قل:هو ربى ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب) (وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (ويقول الذين كفروا:لست مرسلا . قل:كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وهكذا نلمس فى هذه الطائفة من الآيات التى أوردناها طبيعة المواجهة التى كان المشركون يتحدون بها رسول الله ﷺ ويتحدون بها هذا القرآن ؛ ثم دلالة هذا التحدى ودلالة التوجيه الربانى إزاءه على طبيعة الفترة التى نزلت فيها السورة من العهد المكى . ومن اللمحات البارزة فى التوجيه الربانى الربانى لرسول الله ﷺ أن يجهر – فى مواجهة الأعراض والتكذيب والتحدى وبطء الاستجابة ووعورة الطريق – بالحق الذى معه كاملا ; وهو أنه لا إله إلا الله ، ولا رب إلا الله ، ولا معبود إلا الله ، وأن الله هو الواحد القهار ، وأن الناس مردودون إليه فإما إلى جنة وإما إلى نار . . وهى مجموعة الحقائق التى كان ينكرها المشركون ويتحدونه فيها . . ولا يتبع أهواءهم فيصانعها ويترضاها بكتمان شىء من هذا الحق أو تأجيل إعلانه ! مع تهديده بما ينتظره من الله لو اتبع أهواءهم فى شىء من هذا من بعد ما جاءه من العلم ! إن هذا لهو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراده الله سبحانه ؛ ومنهج الدعوة إلى الله كما سار بها سيدنا محمد ﷺبتوجيه من ربه . . فليس لداع إلى الله أن

يتنكب هذا الطريق ؛ وليس له أن ينهج غير ذلك المنهج . . والله – بعد ذلك – متكفل بدينه ، وهو حسب الدعاة إلى هذا الدين وكافيهم شر الطواغيت ! وهذه السورة تحوى الكثير من النماذج الباهرة فى عرض صفحات الكتاب الكونى – عقب الكتاب القرآنى – فى مواجهة الكينونة البشرية بجملتها يحشد السياق هذه المشاهد الكونية ، ليحيل الكون كله شاهدا ناطقا بسلطان الله – سبحانه – فى الخلق والإنشاء ، والتقدير والتدبير . ثم يعجب من أمر قوم يرون هذه الشواهد كلها ، ثم يستكثرون قضية البعث والنشأة الأخرى ، ويكذبون بالوحى من أجل أنه يقرر هذه الحقيقة القريبة . . القريبة فى ظل تلك المشاهد العجيبة (وإن تعجب فعجب قولهم:أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم , وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشىء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) يعرض هذه الصفحة من الوجود الكونى ليعجب من أمر قوم يجادلون فى الله ويشركون به , وهم يشاهدون آثار ربوبيته وقدرته وسلطانه ، ودينونة الكون له ، وتصريفه وتدبيره لأمر العباد فيه ؛ وعجز كل من عداه – سبحانه – عن الخلق والتدبير والتقدير (وهم يجادلون فى الله ، وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه – وما هو ببالغه – وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم بالغدو والآصال . . قل:من رب السماوات والأرض ؟ قل:الله . قل:أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل:هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل:الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار) وهكذا يستحيل الكون معرضا باهرا لدلائل القدرة وموحيات الإيمان ، يخاطب الفطرة بالمنطق الشامل العميق ؛ ويخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل ما فيها من قوى الإدراك الباطنة والظاهرة ، فى تناسق عجيب . ثم يضيف إلى صفحات الكتاب الكونى ، صفحات التاريخ الإنسانى ؛ ويعرض آثار القدرة والسلطانوالهيمنة والقهر والتقدير والتدبير فى حياة الإنسان :(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات !) (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) (أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب) وهكذا يحشد المنهج القرانى هذه الشواهد والدلائل فى التاريخ البشرى ؛ ويحيلها إلى مؤثرات وموحيات ، تخاطب الكينونة البشرية بجملتها فى تناسق واتساق . هذا هو الطريق . . . وليس هنالك غيره من طريق ! ثم نقف من السورة أمام معلم آخر ، وهى تقرر كلمة الفصل فى العلاقة بين اتجاه" الإنسان" وحركته وبين تحديد ماله ومصيره ؛ وتقرير أن مشيئة الله به إنما تتحقق من خلال حركته بنفسه ؛ وذلك مع تقرير أن كل حدث إنما يقع ويتحقق بقدر من الله خاص . . ومجموعة النصوص الخاصة بهذا الموضوع فى السورة كافية بذاتها لجلاء النظرة الإسلامية فى هذه القضية الخطيرة . . وهذه نماذج منها كافية (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال) (قل:إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله , ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ؟!) ووأضح من هذه النصوص أن مشيئة الله فى تغيير حال قوم إنما تجرى وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم ، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييرا شعوريا وعمليا . فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاها وعملا غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم . . فإذا اقتضى حالهم أن يريد الله بهم السوء مضت إرادته ولم يقف لها أحد , ولم يعصمهم من الله شىء ، ولم يجدوا لهم من دونه وليا ولا نصيرا . فأما إذا هم استجابوا لربهم ، وغيروا ما بأنفسهم بهذه الاستجابة ، فإن الله يريد بهم الحسنى ، ويحقق لهم هذه الحسنى فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما جميعا ، فإذا لم يستجيبوا أراد بهم السوء ، وكان لهم سوء الحساب ، ولم تغن عنهم فدية إذا جاءوه – غير مستجيبين – يوم الحساب ! وواضح أن الاستجابة أو عدم الاستجابة راجعة إلى اتجاههم وحركتهم ; وأن مشيئة الله بهم إنما تتحقق من خلال هذه الحركة وذلك الاتجاه . وتبقى تكملة لا بد منها لجلاء هذا الموضوع الذى كثر فيه الجدل فى جميع الملل . . ذلك أن اتجاه الناس بأنفسهم لا يوقع بذاته مصائرهم . فهذه المصائر أحداث لا ينشئها إلا قدر الله ؛ وكل حادث فى هذا الكون إنما ينشأ ويقع ويتحقق بقدر من الله خاص ؛ تتحقق به إرادته وتتم به مشيئته:(إنا كل شىء خلقناه بقدر) . . وليست هنالك آلية فى نظام الكون كله ، ولا حتمية أسباب تنشىء بذاتها آثارا . فالسبب كالأثر كلاهما مخلوق بقدر . . وكل ما يصنعه اتجاه الناس بأنفسهم هو أن تجرى مشيئة الله بهم من خلال هذا الاتجاه ، أما جريان هذه المشيئة وآثاره الواقعية فإنما يتحقق بقدر من الله خاص بكل حادث: (وكل شىء عنده بمقدار). وهذا التصور – كما أسلفنا عند مواجهة النص فى سياق السورة – يزيد من ضخامة التبعة الملقاة على هذا الكائن الإنسانى ؛ بقدر ما يجلو من كرامته فى نظام الكون كله . فهو وحده المخلوق الذى تجرى مشيئة الله به من خلال اتجاهه وحركته . . وما أثقلها من تبعة ! وما أعظمها كذلك من كرامة ! وفى

السورة كلمة الفصل كذلك فى دلالة الكفر وعدم الاستجابة لهذا الحق الذى جاء به هذا الدين ، على فساد الكينونة البشرية ، وتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية فيها ، واختلال طبيعتها وخروجها عن سوائها . فما يمكن أن تكون هناك بنية إنسانية سوية ، غير مطموسة ولا معطلة ولا مشوهة ؛ ثم يعرض عليها هذا الحق ، ويبين لها بالصورة التى بينها المنهج القرآنى ؛ ثم لا تستجيب لهذا الحق بالإيمان والإسلام . والفطرة الإنسانية بطبيعتها مصطلحة على هذا الحق فى أعماقها ؛ فإذا صدت عنه فإنما يصدها صاحبها لآفة فيه تجعله يختار لنفسه غير هذا الهدى ؛ وتجعله بذلك مستحقا للضلال ، ومستحقا للعذاب ، كما قال الله سبحانه فى السورة الأخرى ؛(سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين). وفى هذه السورة ترد أمثال هذه الآيات الدالة على طبيعة الكفر فتقرر أنه عمى وانطماس بصيرة ، وأن الهدى دلالة على سلامة الكينونة البشرية من هذا العمى ، ودلالة على سلامة القوى المدركة فيها ؛ وأن فى صفحة هذا الكون من الدلائل ما يبين عن الحق لمن يتفكرون ولمن يعقلون (ويقول الذين كفروا:لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل:إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) (وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات , وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم – بشهادة الله سبحانه – عمى . وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون . وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب ، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وتتصل بما هى عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة ، فتسكن وتستريح . وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا فى كل من يلقاه من الناس معرضا عن هذا الحق الذى تضمنه دين الله ، والذى جاء به فى صورته الكاملة محمد رسول الله . . فإن هى إلا جبلات مؤوفة مطموسة . وإن هى إلا كينونات معطلة فى أهم جوانبها بحيث لا تتلقى إيقاعات هذا الوجود كله من حولها ، وهو يسبح بحمد ربه ؛ وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره . وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عميا – بشهادة الله سبحانه – فإنه لا ينبغى لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله ، ويؤمن بأن هذا القرآن وحى من عند الله . . لا ينبغى لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى فى شأن من شؤون الحياة عن أعمى ! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقا بالنظام الذى يحكم حياة الإنسان ؛ أو بالقيم والموازين التى تقوم عليها حياته ؛ أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التى تسود مجتمعه . . وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر – غير الإسلامى – بجملته – فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله ﷺ بقوله:" أنتم أعلم بشؤون دنياكم " . فإنه ما ينبغى قط لمسلم يعرف هدى الله ويعرف هذا الحق الذى جاء به رسول الله ، أن يقعد مقعد التلميذ الذى يتلقى من أى إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق . . فهو أعمى بشهادة الله سبحانه . . ولن يرد شهادة الله مسلم . ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم !!! إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد ؛ وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم . . وكل تميع فى مثل هذه القضية هو تميع فى العقيدة ذاتها ؛ إن لم يكن هو رد شهادة الله – سبحانه – وهو الكفر البواح فى هذه الصورة ! وأعجب العجب أن ناسا من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون ؛ ثم يأخذون فى منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه:إنهم عمى . ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون ! إن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل ، وجزم لا يحتمل التميع ، وحق فى كل نص فيه وفى كل كلمة . . فمن لم يجد فى نفسه هذا الجد وهذا الجزم وهذه الثقة فما أغنى هذا الدين عنه . والله غنى عن العالمين ! وما يجوز أن يثقل الواقع الجاهلى على حس مسلم ، حتى يتلقى من الجاهلية فى منهج حياته ؛ وهو يعلم أن ما جاءه به محمد ﷺ هو الحق ؛ وأن الذى لا يعلم أن هذا هو الحق (أعمى) ثم يتبع هذا الأعمى ، ويتلقى عنه ، بعد شهادة الله سبحانه وتعالى . . وأخيرا نقف أمام المعلم الأخير من المعالم التى تقيمها هذه السورة لهذا الدين . . إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذى يصيب حياة البشر فى هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذى جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير . فالذين لا يستجيبون لعهد الله على الفطرة ، ولا يستجيبون للحق الذى جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق . . هم الذين يفسدون فى الأرض ؛ كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون فى الأرض ، وتزكو بهم الحياة (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة , وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار) (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم

سوء الدار) إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد ﷺ هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة ، وبعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده ، فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره ، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه ؛ ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل خالجة وكل حركة ؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة ؛ ويقيمون الصلاة ؛ وينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية ؛ ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان . . إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة ؛ التي تسير على هدى الله وحده ؛ والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه . . إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء ، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده ؛ والتي تتبع – من ثم – مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده . . إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية ، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية . . ! إنها كلها من مناهج العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ هو وحده الحق ، الذي لا يجوز العدول عنه ، ولا التعديل فيه . . إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية ! فكلها سواء في كونها من مناهج العمى ، الذين يقيمون من أنفسهم أربابا من دون الله ، تضعهي مناهج الحكم ومناهج الحياة ، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله ؛ وتعبدهم لما تشرع ، فتجعل دينونتهم لغير الله . .

وآية هذا الذي نقوله – استمدادا من النص القرآني – هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين . وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها . . سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية ! . . وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية ! . . إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق . . لأنها كلها سواء من صنع العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه هو الحق وحده ؛ ولا تلتزم – من ثم – بعهد الله وشرعه ؛ ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه . إن المسلم يرفض – بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق – كل منهج للحياة غير منهج الله ؛ وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي ؛ وكل وضع كذلك سياسي ، غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد ، الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده . ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ، فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه . إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . . فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمى ! . . ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله ؛ وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمى ، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون . فلم تسعد قط ؛ ولم ترتفع "إنسانيتها" قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط ، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم .

هذه بعض المعالم البارزة في هذه السورة ، وقفنا عندها هذه الوقفات التي لا تبلغ مداها ، ولكنها تشير إليها .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . .

سورة إبراهيم
مكية و آياتها ٥٢

سورة إبراهيم مكية ، موضوعها الأساسى هو موضوع السور المكية الغالب:العقيدة فى أصولها الكبيرة ، الوحى والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء . ولكن السياق فى السورة يسلك نهجا خاصا بها فى عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة . نهجا مفردا يميزها - كالشأن فى كل سورة قرآنية - عن السور غيرها . يميزها بجوها وطريقة أدائها ، والأضواء والظلال الخاصة التى تعرض فيها حقائقها الكبرى . ولون هذه الحقائق التى قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها فى السور الأخرى ؛ ولكنها تعرض من زاوية خاصة ، فى أضواء خاصة فتوحى إيحاءات خاصة . كما تختلف مساحتها فى رقعة السورة وجوها , فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا ، فيحسها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد فى "اللقطات الفنية " . ونحن نستعمل هذا التعبير "اللقطات الفنية " لأنه يلاحظ فى صورته المعجزة فى طريقة الأداء القرآنية ! ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم . . أبو الأنبياء . . المبارك , الشاكر الأواه المنيب . وكل الظلال التى تخلعها هذه الصفات ملحوظة فى جو السورة , وفى الحقائق التى تبرزها ، وفى طريقة الأداء ، وفى التعبير والإيقاع . ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية فى العقيدة . ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها . وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظل إبراهيم فى جو السورة حقيقة وحدة الرسالة والرسل ، ووحدة دعوتهم ، ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان . وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر ؛ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران . . وبروز هاتين الحقيقتين ، أو هذين الظلين . لا ينفى أن هناك حقائق أخرى فى سياق السورة . ولكن هاتين الحقيقتين تظللان جو السورة . وهذا ما أردنا الإشارة إليه ، تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وما أوتيه من كتاب . . فهى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) وتختم بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التى تتضمنها الرسالة . حقيقة التوحيد (هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب) وفى أثنائها يذكر أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد ﷺ ولمثل ما أرسل به , حتى فى ألفاظ التعبير (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) ويذكر كذلك أن وظيفة الرسل عامة كانت هى البيان (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وتتضمن إلى جانب وظيفة الرسول بيان حقيقته البشرية ، وهى التى تحدد وظيفته . فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين . ولكنه لا يملك أن يأتى بخارقة إلا بإذن الله ، وحين يشاء الله , لا حين يشاء هو أو قومه ؛ ولا يملك كذلك أن يهدى قومه أو يضلهم ، فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التى اقتضتها مشيئته المطلقة . ولقد كانت بشرية الرسل هى موضع الاعتراض من جميع الأقوام فى جاهليتهم ، والسورة هنا تحكى قولهم مجتمعين (قالوا:إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين) وتحكى رد رسلهم كذلك مجتمعين (قالت لهم رسلهم:إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم (بإذن ربهم). وكل رسول يبين لقومه (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم) وبهذا وذلك تتحدد حقيقة الرسول ، فتتحدد وظيفته فى حدود هذه الحقيقة ، ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشىء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة . كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا . تحقق ذلك الوعد فى الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفى الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين . يصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة فى نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين فى الدنيا (وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد . . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . .) ويصورها فى مشاهد القيامة فى الآخرة (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) ويصورها فى الأمثال التى يضربها لهؤلاء وهؤلاء (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ؛ ويضرب الله

الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثتمن فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء) (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد) فأما الحقيقتان اللتان تظللان جو السورة ، وتتسقان مع ظل إبراهيم:أبى الأنبياء . الشكور الأواه المنيب ، وهما حقيقة وحدة الرسالة والرسل ، ووحدة دعوتهم ، ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الجاهلية المكذبة . وحقيقة نعمة الله على البشر كافة وعلى المختارين منهم بصفة خاصة . . فنفردهما هنا بالحديث .

فأما الحقيقة الأولى فيبرزها السياق فى معرض فريد فى طريقة الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية فى صورة توحيد الدعوة التى يجيء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضى ، ثم يجيء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ، ويصيب المكذبين ما يصيبهم فى الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل فى الأرض أو إلى أجل فى يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول فى مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى . وأقرب مثل لهذا النسق سورة الأعراف وسورة هود . فأما سورة إبراهيم – أبى الأنبياء – فتجمع الأنبياء كلهم فى صف وتجمع الجاهليين كلهم فى صف . وتجرى المعركة بينهم فى الأرض ، ثم لا تنتهى هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك فى يوم الحساب ! ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وأمة الجاهلية ، فى صعيد واحد ، على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أما الحقيقة الكبرى فى هذا الكون – حقيقة الإيمان والكفر – فهى أضخم وأبرز من عرضى الزمان والمكان (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا:إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم:أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ؟ قالوا:إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم:إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسلهم:لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل ؛ ويتلاشى الزمان والمكان ؛ وتبرز الحقيقة الكبرى:حقيقة الرسالة وهى واحدة . واعتراضات الجاهليين عليها وهى واحدة . وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهى واحدة . وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهى واحدة . وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهى واحدة . وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهى واحدة . . وذلك إلى التماثل بين قول الله لمحمد ﷺ (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) وحكاية قوله لموسى – عليه السلام (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) ولا تنتهى المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة . فتبرز معالمها فى مشاهد القيامة المتنوعة التى تتضمنها السورة . وهذه نماذج منها (وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا:إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا:لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر:إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم . . وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام) وهى كلها تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة ، وتكمل إحداهما الأخرى بلا انقطاع ولا انفصال .

وأما الحقيقة الثانية المتعلقة بالنعمة والشكر والبطر فتطبع جو السورة كله ، وتتناثر فى سياقها . يعدد الله نعمه على البشر كافة ، مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم . وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصى نعمة فى هذه الأرض ، كالمؤمن والبار والطائع:لعلهم يشكرون . ويعرض هذه النعمة فى أضخم مجالى الكون وأبرزها ، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة (الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ; وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين

، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار) وفى إرسال الرسل للناس نعمة تعدل تلك أو تربو عليها (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) والنور أجل نعم الله فى الوجود . والنور هنا هو النور الأكبر . النور الذى يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود فى قلبه وحسه . . وكذلك كانت وظيفة موسى فى قومه . ووظيفة الرسل كما بينتها السورة . وفى قول الرسل مجتمعين (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى منه قريب . . وفى جو الحديث عن النعمة يذكر موسى قومه بأنعم الله عليهم (وإذ قال موسى لقومه:اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) وفى هذا الجو يذكر وعد الله للرسل: (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) وهى نعمة من نعم الله الكثار الكبار .

ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) مع بيان أن الله غنى عن الشكر وعن الشاكرين (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) ويقرر السياق أن الإنسان فى عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتتفتح لها بصائرهم يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ويمثل الصبر والشكر فى شخص إبراهيم فى موقف خاشع ، وفى دعاء واجف ، عند بيت الله الحرام ، كله حمد وشكر وصبر ودعاء (وإذ قال إبراهيم:رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة تجىء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). . وفى رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجىء (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده)

وتنقسم السورة إلى مقطعين متماسكى الحلقات:

المقطع الأول يتضمن بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول . ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين فى الدنيا وفى الآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

والمقطع الثانى يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعمة وبطروا . والذين آمنوا بها وشكروا ونموذجهم الأول هو إبراهيم . ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله فى سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة . . ليختم السورة ختاما يتسق مع مطلعها:

فلنأخذ فى السير مع المقطع الأول فى السياق:

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{١} اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{٢} الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ{٣} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٤} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{٥} وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{٦} وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ{٧} وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ{٨} أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا

تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ{٩} قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{١٠} قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{١١} وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ{١٢} وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ{١٣} وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ{١٤} وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ{١٥} مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ{١٦} يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ{١٧} مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ{١٨} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ{١٩} وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ{٢٠} وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ{٢١} وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٢٢} وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ{٢٣} أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ{٢٤} تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{٢٥} وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ{٢٦} يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ){٢٧}

ألف لام . را . .(كتاب أنزلناه إليک) هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف كتاب أنزلناه إليک . لم تنشئه أنت . أنزلناه إليک لغاية (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) لتخرج هذه البشرية من الظلمات . ظلمات الوهم والخرافة . وظلمات الأوضاع والتقاليد . وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة ، وفى اضطراب التصورات والقيم والموازين . . لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور . النور الذى يكشف هذه الظلمات . يكشفها فى عالم الضمير وفى دنيا التفكير . ثم يكشفها فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد . والإيمان بالله نور يشرق فى القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشرى ، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله . فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة ، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة . طينة من لحم ودم كالبهيمة ، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها . لولا تلک الإشراقة التى تنتفض فيه من روح الله ,يرقرقها الإيمان ويجلوها ، ويطلقها تشف فى هذا الكيان المعتم ، ويشف بها هذا الكيان المعتم . وفى هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة , ما يملأ الحياة سعادة ونور وطمأنينة وراحة . كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصما من التقلبات والتخبطات التى تتعرض لها المجتمعات التى تخضع لربوبية العبيد ,وحاكمية العبيد ، ومناهج العبيد فى السياسة والحكم وفى الاقتصاد والاجتماع , وفى الخلق والسلوک ، وفى العادات والتقاليد . . وذلک فوق صيانة هذا المنهج للطاقة البشرية أن تبذل فى تأليه العبيد ، والطبل والزمر للطواغيت !!! وإن وراء هذا التعبير القصير (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . .) لآفاقا بعيدة لحقائق ضخمة عميقة فى عالم العقل والقلب . وفى عالم الحياة والواقع ، لا يبلغها التعبير البشرى ولكنه يشير ! (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . . بإذن ربهم) فليس فى قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان . أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، فإنما يتحقق بإذن الله ، وفق سنته التى ارتضتها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول ! (إلى صراط العزيز الحميد) فالصراط بدل من النور . وصراط الله:طريقه ، وسنته ، وناموسه الذى يحكم الوجود وشريعته التى تحكم الحياة . والنور يهدى إلى هذا الصراط ، أو النور هو الصراط . وهو أقوى فى المعنى . فالنور المشرق فى ذات النفس هو المشرق فى ذات الكون . هو السنة . هو الناموس . هو الشريعة . والنفس التى تعيش فى هذا النور لا تخطىء الإدراک ولا تخطىء التصور ولا تخطىء السلوک . فهى على صراط مستقيم . . (صراط العزيز الحميد). . مالک القوة القاهر المسيطر المحمود المشكور . والقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون ، والحمد يبرز لتذكير من يشكرون . . ثم يعقبها التعريف بالله سبحانه . إنه مالک ما فى السماوات وما فى الأرض ، الغنى عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه (الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض) فمن خرج واهتدى فذاک . ولا يذكر عنه شيئا هنا ، إنما يمضى السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد . جزاء كفرهم هذه النعمة . نعمة إرسال الرسول بالكتاب

ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وهى النعمة الكبرى التى لا يقوم لها شكر إنسان . فكيف بالكفران (وويل للكافرين من عذاب شديد) ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التى يحملها رسوله الكريم (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) (ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا , أولئك فى ضلال بعيد) فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان ؛ ويتعارض مع الاستقامة على الصراط . وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة ، لأنه عندئذ تصلح الدنيا , ويصبح المتاع بها معتدلا ، ويراعى فيه وجه الله . فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة . إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة ، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا – كما يقوم فى الأخيلة المنحرفة . فصلاح الآخرة فى الإسلام يقتضى صلاح هذه الدنيا . والإيمان بالله يقتضى حسن الخلافة فى الأرض . وحسن الخلافة فى الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها . إنه لا تعطيل للحياة فى الإسلام انتظارا للآخرة ، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله ، وتمهيدا للآخرة . . هذا هو الإسلام . فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض ، ومن الكسب الحرام ، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم . . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه فى نور الإيمان بالله ، وفى ظل الاستقامة على هداه . ومن ثم يصدون عن سبيل الله . يصدون أنفسهم ويصدون الناس ، ويبغونها عوجا لا استقامة فيها ولا عدالة . وحين يفلحون فى صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله ، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها ، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغروا الناس بالفساد ، فيتم لهم الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض ، والكسب الحرام ، والمتاع المرذول ، والكبرياء فى الأرض ، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وهذه نعمة شاملة للبشر فى كل رسالة . فلكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه , فتتم الغاية من الرسالة . وقد أرسل النبى ﷺ بلسان قومه – وإن كان رسولا إلى الناس كافة – لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر . وعمره ﷺ محدود . وقد أمر ليدعو قومه أولا حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام . ومن ثم تكون مهدا يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض . فلا تعارض بين رسالته للناس كافة ، ورسالته بلسان قومه ، فى تقدير الله ، وفى واقع الحياة (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) إذ تنتهى مهمة الرسول – كل رسول – عند البيان . أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال , فلا قدرة له عليه ، وليس خاضعا لرغبته ، إنما هو من شأن الله . وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة . فمن سار على درب الضلال ضل ، ومن سار على درب الهدى وصل . . هذا وذلك يتبع مشيئة الله ، التى شرعت سنته فى الحياة (وهو العزيز الحكيم) القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافا بلا توجيه ولا تدبير . وكذلك كانت رسالة موسى . بلسان قومه (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا:أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله ...) والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد – عليهما صلاة الله وسلامه – تمشيا مع نسق الأداء فى السورة – وقد تحدثنا عنه آنفا – فإذا الأمر هناك (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) والأمر هنا (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة ، ولكن الغاية واحدة (أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور). . (وذكرهم بأيام الله) وكل الأيام أيام الله . ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التى يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة ؛ كما سيجىء فى حكاية تذكير موسى لقومه . وقد ذكرهم بأيام لهم ، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . فهذه هى الأيام (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) وراح موسى يؤدى رسالته ، ويذكر قومه (وإذ قال موسى لقومه:اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب , ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم . نعمة النجاة من سوء العذاب الذى كانوا يلقونه من آل فرعون ، يسامونه سوما ، أى يوالون به ويتابعون ، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع . ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث ، منعا لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم . فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر . وتذكر لتشكر (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) بلاء بالعذاب أولا ، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له . فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى . ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية ، واستمرار العزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والطغيان . وإلا فما فهو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان . . وبلاء بالنجاة ثانيا لامتحان الشكر ، والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى فى مقابل النجاة . ويمضى موسى فى البيان لقومه . بعد ما ذكرهم بأيامه . ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة . وهى الصبر للعذاب والشكر للنجاة . . يمضى ليبين لهم ما رتبه الله جزاء على الشكر والكفران (وإذ تأذن ربكم:لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) إن شكر النعمة دليل على

استقامة المقاييس في النفس البشرية . فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة . .هذه واحدة . . والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته ، تراقبه في التصرف بهذه النعمة . بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد . والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي ! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد . . وكله كفر بنعمة الله (وقال موسى:إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم ، فلا تخشى نفاذ النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها . فالمنعم موجود ، والنعمة بشكره تزكو وتزيد . ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه . ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات . وذلك من بدائع الأداء في القرآن ، لإحياء المشاهد ، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع ، وتتحرك فيه الشخوص ، وتتجلى فيه السمات والانفعالات (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟) هذا التذكير من قول موسى . ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها . قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية , وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان . . وكأن موسى "راوية " يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى . ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون . . وهي طريقة من طرق العرض للقصة في القرآن ، تحول القصة المحكية إلى رواية حية كما أسلفنا . وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان ، يواجهون البشرية متجمعة في جاهليتها . حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها . وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان . كما هي في حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان ، فهم كثير إذن ، وهناك غير من جاء ذكرهم في القرآن . ما بين ثمود وقوم موسى . والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة في دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به (جاءتهم رسلهم بالبينات) الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم (فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا:إنا كفرنا بما أرسلتم به ؛ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويسمع . يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك ، وإفحاشهم في هذا الجهر ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعانا منهم في الجهر بالكفر . (قالت رسلهم:أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ؟) أفي الله شك والسماوات والأرض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما إبداعا وأنشأهما إنشاء ؟ قالت رسلهم هذا القول ، لأن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان ، فمجرد الإشارة إليهما يكفي ، ويرد الشارد إلى الرشد سريعا ، ولم يزيدوا على الإشارة شيئا لأنها وحدها تكفي ؛ ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر في دعوتهم إلى الإيمان ، وفي إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ويتقون العذاب (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) والدعوة أصلا دعوة إلى الإيمان ، المؤدي إلى المغفرة . ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة ، لتتجلى نعمة الله ومنته . وعندئذ يبدو عجيبا أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقيهم للدعوة ! (ويؤخركم إلى أجل مسمى) فهو - سبحانه - مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب . إنما يمن عليكم منة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى . إما في هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيه إلى نفوسكم ، وتتدبرون آيات الله وبيان رسلكم . وهي رحمة وسماحة تحسبان في باب النعم . . فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنان ؟ !هنا يرجع القوم في جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول: _ قالوا:إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) وبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين ؛ ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم . ولا يسألون أنفسهم:لماذا يرغب الرسل في تحويلهم ؟! وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم:ما قيمته ؟ ما حقيقته ؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير !؟ وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق (فأتونا بسلطان مبين) ويرد الرسل . . لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله في اختيار رسل من البشر ، وفي منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى (قالت لهم رسلهم:إن نحن إلا بشر مثلكم . ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) ويذكر السياق لفظ (يمن) تنسيقا للحوار مع جو السورة . جو الحديث عن نعم الله . ومنها هذه المنة على من يشاء من عباده . وهي منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم . ولكن كذلك على البشرية التي تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى . مهمة الاتصال والتلقي من الملأ الأعلى . وهي منة على البشرية بتذكير الفطرة التي ران عليها الركام لتخرج من

الظلمات إلى النور ؛ ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقى فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة . . ثم هى المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك ؛ واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد فى الدينونة للعبيد . . الذل الذى يحنى هامة إنسان لعبد مثله ! والتبدد الذى يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله ! فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين ، وقوة خارقة ، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله . ليفرقوا فى مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية ، وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذى لا يلتبس بمشابهة فى ذات ولا صفة ، وهى المتاهة التى تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات الكنسية فى المسيحية عندما تلبست بالوثنيات الإغريقية والرومانية والمصرية والهندية . وكانت نقطة البدء فى المتاهة هى نسبة الخوارق إلى عيسى – عليه السلام – بذاته واللبس بين ألوهية الله وعبودية عيسى عليه السلام ! (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) وما نعتمد على قوة غير قوته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يطلقها الرسل حقيقة دائمة . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يتلفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عونا إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه . ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ؛ ويسألون للتقرير والتوكيد (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه . المالئ يديه من وليه وناصره . المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لا بد أن ينصر وأن يعين . وماذا يهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟ والقلب الذى يحس أن يد الله – سبحانه – تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بوجوده – سبحانه (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا). (ولنصبرن على ما آذيتمونا) لنصبرن ، لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نهن ؛ ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وهنا يسفر الطغيان عن وجهه . لا يجادل ولا يناقش ولايفكر ولا يتعقل ، لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة ، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التى لا يملك غيرها المتجبرون :(وقال الذين كفروا لرسلهم:لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا)! هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية . . إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهى لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها . فالإسلام لا بد أن يبدو فى صورة تجمع حركى مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية . لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ؛ ولكن يطلبون منهم أن يعودوا فى ملتهم ، وأن يندمجوا فى تجمعهم الجاهلى ، وأن يذوبوا فى مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل . وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله ، وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغى لمسلم أن يندمج فى التجمع الجاهلى مرة أخرى . . وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ؛ ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية . إن التجمع الجاهلى – بطبيعة تركيبه العضوى – لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلى ، ولتوطيد جاهليته ! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب فى المجتمع الجاهلى ، والتميع فى تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع . هذه الطبيعة التى ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره . . لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا فى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . . وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التى لاتقف لها قوة البشر المهازيل ، وإن كانوا طغاة متجبرين (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائما بعد مفاصلة الرسل لقومهم . . بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . . وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامى الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجا وقيادة وتجمعا . . عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ، ولتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، ولتمكن للمؤمنين فى الأرض ، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين . . . ولا يكون هذا التدخل أبدا والمسلمون متميعون فى المجتمع الجاهلى ، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركى مستقل وقيادة إسلامية مستقلة (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) نون العظمة ونون التوكيد . . كلتاهما ذات ظل وإيقاع فى هذا الموقف الشديد . لنهلكن المتجبرين المهددين ، المشركين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهدى (ولنسكننكم الأرض من بعدهم) لا محاباة ولا جزافا ، إنما هى السنة الجارية العادلة:(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامى ، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر . وخاف وعيد ، فحسب حسابه ، واتقى أسبابه ، فلم يفسد فى الأرض ، ولم يظلم فى

الناس . فهو من ثم يستحق الاستخلاف ، ويناله باستحقاق . وهكذا تلتقى القوة الصغيرة الهزيلة – قوة الطغاة الظالمين – بالقوة الجبارة الطامة – قوة الجبار المهيمن المتكبر – فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التى تميز المؤمنين من المكذبين . ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة فى صف ، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله – سبحانه – فى صف . ودعا كلاهما بالنصر والفتح . . وكانت العاقبة كما يجب أن تكون (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة فى هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم . يسقاه بعنف فيتجرعه غصبا وكرها ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحها من خلال الكلمات ! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . . إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروع الفظيع . وتشترك كلمة(غليظ)فى تفظيع المشهد ، تنسيقا له مع القوة الغاشمة التى كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين . وفى ظل هذا المصير يجىء التعقيب مثلا مصورا فى مشهد يضرب الذين كفروا ، ولفتة إلى قدرة الله على أن يذهب المكذبين ويأتى بخلق جديد . . ذلك قبل أن يتابع مشاهد الرواية فى الساحة الأخرى ، وقد أسدل الستار على فصلها الأخير فى هذه الأرض ، مخايلا بالساحة الأخرى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . لا يقدرون مما كسبوا على شىء . ذلك هو الضلال البعيد) ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشىء منها ، ولا الانتفاع به أصلا . يجسمه فى هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ فى تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا . وهكذا يلتقى المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدى المعنى فى أسلوب مشوق موح مؤثر . ويلتقى معها التعقيب (ذلك هو الضلال البعيد) فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف . . إلى بعيد !! ثم يلتقى مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر فى الآية التالية ، التى يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين إلى المكذبين من قريش ، يهددهم بإذهابهم والإتيان بخلق جديد (ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) والانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السماوات والأرض . .هو انتقال طبيعى فى المنهج القرآنى كما أنه انتقال طبيعى فى مشاعر الفطرة البشرية يدل على ربانية هذا المنهج القرآنى . إن بين فطرة الكائن الإنسانى وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة ! . . إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر الكامن وراء هذا الكون بمجرد الاتجاه إليه والتقاط إيقاعاته ودلالاته ! والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإيحاءات هم أفراد معطلو الفطرة . فى كيانهم خلل تعطلت به أجهزة الاستقبال الفطرية . كما تصاب الحواس بالتعطل نتيجة لآفة تصيبها . . كما تصاب العين بالعمى ، والأذن بالصم ، واللسان بالبكم . . ! إنهم أجهزة تالفة لا تصلح للتلقى ؛ ومن باب أولى لا تصلح للقيادة والزعامة ! . . ومن هؤلاء كل أصحاب التفكير المادى – الذى يسمونه "المذاهب العلمية" كذبا وافتراء . . إن العلم لا يتفق مع تعطل أجهزة الاستقبال الفطرية وفساد أجهزة الاتصال الإنسانية بالكون كله ! إنهم الذين يسميهم القرآن بالعمى . . وما يمكن أن تقام الحياة الإنسانية على مذهب أو رأى أو نظام يراه أعمى !!! إن خلق السماوات والأرض بالحق يوحى بالقدرة كما يوحى بالثبات . فالحق ثابت مستقر حتى فى جرسه اللفظى . . ذلك فى مقابل الرماد المتطاير إلى بعيد . وفى مقابل الضلال البعيد . وفى ضوء مصير المعاندين الجبارين فى معركة الحق والباطل يجىء التهديد (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) والقادر على خلق السماوات والأرض ، قادر على استخلاف جنس غير هذا الجنس فى الأرض . واستخلاف قوم مكان قوم من أقوام هذا الجنس . وظل الذهاب بالقوم يتسق من بعيد مع ظل الرماد المتطاير الذاهب إلى الفناء (وما ذلك على الله بعزيز) وخلق السماوات والأرض شاهد . ومصارع المكذبين من قبل شاهدة . والرماد المتطاير شاهد من بعيد ! ألا إنه الإعجاز فى تنسيق المشاهد والصور والظلال فى هذا القرآن ! ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق الإعجاز فى التصوير والأداء والتنسيق . فلقد كنا منذ لحظة مع الجبارين المعاندين . ولقد خاب كل جبار عنيد . وكانت صورته فى جهنم تخايل له من ورائه وهو بعد فى الدنيا . فالآن نجدهم هناك ، حيث يتابع السياق خطواته بالرواية الكبرى – رواية البشرية ورسلها – فى المشهد الأخير . وهو مشهد من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين . وبين الشيطان والجميع (وبرزوا لله جميعا – فقال الضعفاء للذين استكبروا:إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا ؛ لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر:إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ؛ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن

دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم .) (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام) لقد انتقلت الرواية . . رواية الدعوة والدعاة ، والمكذبين والطغاة . . انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة (وبرزوا لله جميعا) الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين . ومعهم الشيطان . . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات . . برزوا(جميعا) مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائما . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار (فقال الضعفاء للذين استكبروا:إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟). . والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة . ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس عذرا ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه فى الحرية – التى هى ميزته ومناط تكريمه – أو أن ينزل كارها . والقوة المادية - كائنة ما كانت – لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . اما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال ! من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين فى العقيدة ، وفى التفكير ,وفى السلوك ؟ من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء . . إنما هم ضعفاء لأن الضعف فى أرواحهم وفى قلوبهم وفى نخوتهم وفى اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان ! إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فمن ذا الذى يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذى يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلى عن الكرامة التى وهبها الله لبنى الإنسان ! إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهى دائما قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالإرادة هى التى تنقص هذه القطعان ! إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل فى نفوس الأذلاء . . وهذه القابلية هى وحدها التى يعتمد عليها الطغاة !! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم (إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء)؟ وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟! أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة , وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكى قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال ! ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال (قالوا:لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص !) وهو رد يبدو فيه البرم والضيق (لو هدانا الله لهديناكم) فعلام تلومونا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد ونضللكم .ولو هدانا الله لقدناكمإلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابا لقدرة القاهر الجبار . وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذى كان الجزع فيه من العذاب يجدى فيرد الضالين إلى الهدى ؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص)! لقد قضى الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار . . وهنا نرى على المسرح عجبا ونرى الشيطان . . هاتف الغواية ، وحادى الغواة . . نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أو مسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب (وقال الشيطان – لما قضى الأمر – إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم . ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم) الله ! الله ! أما إن الشيطان حقا لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين فى هذا الحوار . إنه الشيطان الذى وسوس فى الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة . . هو هو الذى يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه – وقد قضى الأمر – هو الذى يقول الآن ، وبعد فوات الأوان (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم !) ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة

وتركوا دعوة الحق من الله) وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ! ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم)! ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم ؛ فأما الساعة فما هو بمليبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) وما بيننا من صلة ولا ولاء ! ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك (إني كفرت بما أشركتمون من قبل)! ثم ينهى خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه (إن الظالمين لهم عذاب أليم)! فيا للشيطان ! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ، ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه ! وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة ، الأمة الفائزة ، الأمة الناجية (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام) ويسدل الستار . . فيا له من مشهد ! ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة ! وفي ظل هذه القصة بفصولها جميعا . في الدنيا حيث وقفت أمة الرسل في مواجهة الجاهلية الظالمة (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) وفي الآخرة حيث شاهدنا ذلك المشهد الفريد:مشهد الذين استكبروا والضعفاء والشيطان ، مع ذلك الحوار العجيب . . في ظل تلك القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، لتصوير سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة ، فتكون خاتمة كتعليق الراوية على الرواية بعد إسدال الستار (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . .) إن مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . . والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . . هو مشهد مأخوذ من جو السياق ، ومن قصة النبيين والمكذبين ، ومصير هؤلاء وهؤلاء بوجه خاص . وشجرة النبوة هنا وظل إبراهيم أبي الأنبياء عليها واضح ، وهي تؤتي أكلها كل فترة ، أكلا جنيا طيبا . . نبيا من الأنبياء . . يثمر إيمانا وخيرا وحيوية .ولكن المثل – بعد تناسقه مع جو السورة وجو القصة – أبعد من هذا آفاقا ، وأعرض مساحة ، وأعمق حقيقة . إن الكلمة الطيبة – كلمة الحق – لكن الشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مثمرة . . ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ؛ ولا تقوى عليها معاول الطغيان – وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان – سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل – وإن خيل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها في الفضاء – مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن . وإن الكلمة الخبيثة – كلمة الباطل – لكالشجرة الخبيثة ؛ قد تهيج وتتعالى وتتشابك ; ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى . ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض . . وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء . ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع . إنما هو الواقع في الحياة ، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان . والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى . مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق . . والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به – فقلما يوجد الشر الخالص – وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية ، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال . إن الخير بخير ! وإن الشر بشر ! (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض ، ولكن الناس كثيرا ما ينسونه في زحمة الحياة . وفي ظل الشجرة الثابتة ، التي يشارك التعبير في تصوير معنى الثبات وجوه ، فيرسمها:أصلها ثابت مستقر في الأرض ، وفرعها سامق ذاهب في الفضاء على مد البصر ، قائم أمام العين يوحي بالقوة والثبات . في ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات: (ويضل الله الظالمين). . فتتناسق ظلال التعبير وظلال المعاني كلها في السياق ! يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر ، الثابتة في الفطر ، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة . ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ؛ وبوعده للحق بالنصر في الدنيا ، والفوز في الآخرة . . وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب . ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم [والظلم يكثر استعماله في السياق القرآني بمعنى الشرك] وبعدهم عن النور الهادي ، واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات واتباعهم مناهج وشرائع من الهوى لا من اختيار الله . . يضلهم وفق سنته التي تنتهي . بمن يظلم ويعمي عن النور ويخضع للهوى إلى الضلال والتيه والشرود .(ويفعل الله ما يشاء) بإرادته المطلقة ، التي تختار الناموس ، فلا تتقيد به ولكنها ترضاه . حتى تقتضي الحكمة تبديله فيتبدل في نطاق المشيئة التي لا تقف لها قوة ، ولا يقوم في طريقها

عائق ; والتي يتم كل أمر في الوجود وفق ما تشاء . وبهذه الخاتمة يتم التعقيب على القصة الكبرى للرسالات والدعوات . وقد استغرقت الشطر الأول والأكبر من السورة المسماة باسم إبراهيم أبى الأنبياء ، والشجرة الظليلة الوارفة المثمرة خير الثمرات ، والكلمة الطيبة المتجددة فى الأجيال المتعاقبة , تحتوى دائما على الحقيقة الكبرى . . حقيقة الرسالة الواحدة التى لا تتبدل , وحقيقة الدعوة الواحدة التى لا تتغير ، وحقيقة التوحيد لله الواحد القهار .

تعقيب على الوحدة الأولى

والآن نقف وقفات قصيرة أمام الحقائق البارزة التى تعرضها قصة الرسل مع الجاهلية . وهى الحقائق التى أشرنا إليها إشارات سريعة فى أثناء استعراض السياق القرآنى ، ونرى أنها تحتاج إلى وقفات أخرى أمامها مسقلة:

إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير . . إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنسانى موكب واحد موصول ، يقوده رسل الله الكرام ، داعين بحقيقة واحدة ، جاهرين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد . . كلهم يدعو إلى الوهية واحدة ، وربوبية واحدة ؛ وكلهم لا يدعون مع الله أحدا ، ولا يتوكل على أحد غيره , ولا يلجأ إلى ملجأ سواه , ولا يعرف له سندا إلا إياه . وأمر الاعتقاد فى الله الواحد – إذن – ليس كما يزعم "علماء الدين المقارن" أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ؛ ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد ؛ وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقى التجربة البشرية والعلم البشرى ، وبتطور وترقى الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد . . . إن الاعتقاد فى الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ؛ ولم تتغير هذه الحقيقة ولم تتبدل فى رسالة واحدة من الرسالات ؛ ولا فى دين واحد من الأديان السماوية . كما يقص علينا الحكيم الخبير . ولو قال أولئك "العلماء":إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التى جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول ؛ وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التى كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حينا بعد حين . حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولا لدى جماهير الناس مما كانت ، بفعل توالي رسالات التوحيد ؛ وبفعل العوامل الأخرى التى يفردونها بالتأثير . . . لو قال أولئك" العلماء" قولا كهذا لساغ . . ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج فى البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة فى أوربا – حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون ! – ومن الرغبة الخفية – الواعية أو غير الواعية – فى تحطيم المنهج الدينى فى التفكير ؛ وإثبات أن الدين لم يكن قط وحيا من عند الله ؛ إنما كان اجتهادا من البشر ، ينطبق عليه ما ينطبق على تطورهم فى التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء . . ومن ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ؛ ويسمى مع ذلك "علما" ينخدع به الكثيرون ! وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا "العلم" فإنه لا ينبغى لمسلم يؤمن بدينه ، ويحترم منهج هذا الدين فى تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة ؛ وأن يدلى بقول يصطدم اصطداما مباشرا مع مقررات دينه ، ومع منهجه الواضح فى هذا الشأن الخطير . . هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة – إذن – بدعوة واحدة ، وعقيدة واحدة . وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم ، وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة , مواجهة واحدة – كما يعرضها السياق القرآنى مغضيا عن الزمان والمكان ، مبرزا للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان – وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل , فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل ! إنها حقيقة تستوقف النظر حقا ! . . إن الجاهلية هى الجاهلية على مدار الزمان . . إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ ولكنها وضع اعتقاد وتصور وتجمع عضوى على أساس هذه المقومات . . والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ؛ ومن تأليه غير الله . أو من ربوبية غير الله – وكلاهما سواء فى إنشاء الجاهلية – فسواء كان الاعتقاد قائما على تعدد الآلهة ؛ أو كان قائما على توحيد الإله مع تعدد الأرباب – أى المتسلطين – فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى ! ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله – أى إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية ، أى الحاكمية والسلطان – ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا بالقاعدة التى تقوم عليها الجاهلية ؛ وتصبح بذاتها خطرا على وجود الجاهلية . وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام فى تجمع خاص ، يأخذ أفراده من التجمع الجاهلى ؛ وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية القيادة , ومن ناحية الولاء . . الأمر الذى لا بد منه للدعوة الإسلامية فى كل مكان وفى كل زمان . . وهكذا تتجلى العلاقة العميقة بين الحق فى هذه الدعوة ، والحق الكامن فى الوجود كله . ويبدو أنه حق واحد موصول بالله الحق ، ثابت وطيد عميق

الجذور: (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء). . وأن ما عداه هو الباطل الزائل (كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار). .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ {٢٨} جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ {٢٩} وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ {٣٠} قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ {٣١} اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ {٣٢} وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ {٣٣} وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ {٣٤} وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ {٣٥} رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٣٦} رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ {٣٧} رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء {٣٨} الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء {٣٩} رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء {٤٠} رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ {٤١} وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ {٤٢} مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء {٤٣} وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ {٤٤} وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ {٤٥} وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ {٤٦} فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ {٤٧} يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ {٤٨} وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ {٤٩} سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ {٥٠} لِيَجْزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ {٥١} هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) {٥٢}

يبدأ هذا الشوط الثانى من نهاية الشوط الأول ، قائما عليه ، متناسقا معه ، مستمدا منه . فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد ﷺ بعد ما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل - أولئك الذين أنعم الله عليهم - فيما أنعم - برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور , ويدعوهم ليغفر الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ، ويردونها ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان . . ومن ثم يبدأ الشوط الثانى بالتعجيب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفرا ، ويقودون قومهم إلى دار البوار ، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار . فى قصة الرسل والكفار .

ثم يستطرد إلى بيان نعم الله على البشر فى أضخم المشاهد الكونية البارزة . ويقدم نموذجا لشكر النعمة:إبراهيم الخليل - بعد أن يأمر الذين آمنوا بلون من ألوان الشكر هو الصلاة والبر بعباد الله - قبل أن يأتى يوم لا تربو فيه الأموال . يوم لا بيع فيه ولا خلال .

فأما الذين كفروا فليسوا بمتروكين عن غفلة ولا إهمال ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . . وأما وعد الله لرسله فهو واقع مهما يمكر الذين كفروا وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . .

وهكذا يتماسك الشوط الثانى مع الشوط الأول ويتناسق .

(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ،جهنم يصلونها ,وبئس القرار ؟!) (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله . قل:تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) ألم تر إلى هذا الحال العجيب . حال الذين وهبوا نعمة الله ، ممثلة فى رسول وفى دعوة إلى الإيمان ، وفى قيادة إلى المغفرة ، وإلى مصير فى الجنة . . فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله(كفرا)! أولئك هم السادة القادة من كبراء قومك - مثلهم مثل السادة القادة من كل قوم - وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم ، وأنزلوهم بها - كما شاهدنا منذ قليل فى الأقوام من قبل ! - وبئس ما أحلوهم من مستقر ، وبئس القرار فيها من قرار ! ألم تر إلى تصرف القوم العجيب ، بعد ما رأوا ما حل بمن قبلهم - وقد عرضه القرآن عليهم عرض رؤية فى مشاهد

تلك القصة التى مضى بها الشوط الأول من السورة . عرضه كأنه وقع فعلا . وإنه لواقع . وما يزيد النسق القرآنى على أن يعرض ما تقرر وقوعه فى صورة الواقع المشهود . لقد استبدلوا بنعمة الرسول ودعوته كفرا . وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله) جعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته ، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه , ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته سبحانه ! جعلوا لله هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذى لا يتعدد ولا تتفرق به السبل . والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمدا إلى تضليل قومهم عن سبيل الله ، باتخاذ هذه الأنداد من دون الله . فعقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم فى كل زمان . لا فى زمن الجاهلية الأولى ، ولكن فى زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق ، فى أية صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحى الله . . عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطرا على الكبراء يتقونه بكل وسيلة . ومنها كان اتخاذ الآلهة أندادا لله فى زمن الجاهلية الأولى . ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر ، تأمر بما لم يأمر الله به ، وتنهى عما لم ينه عنه الله . فإذا واضعوها فى مكان الند لله فى النفوس المضللة عن سبيل الله , وفى واقع الحياة ! فيا أيها الرسول(قل) للقوم (تمتعوا). . تمتعوا قليلا فى هذه الحياة إلى الأجل الذى قدره الله . والعاقبة معروفة: (فإن مصيركم إلى النار) ودعهم وانصرف عنهم إلى (عبادى الذين آمنوا) انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدى فيهم الموعظة . الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الكفر . انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والطاعة والبر بعباد الله (قل لعبادى الذين آمنوا:يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) قل لعبادى الذين آمنوا:يشكروا ربهم بإقامة الصلاة . فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله .وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق سرا وعلانية . سرا حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخرا وتظاهرا ومباهاة . وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع . وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال . قل لهم:ينفقوا ليربو رصيدهم المدخر من قبل أن يأتى يوم لا تنمو فيه الأموال بتجارة ,ولا تنفع كذلك فيه صداقة ؛ إنما ينفع المدخر من الأعمال (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التى لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر:السماوات والأرض . الشمس والقمر . الليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجرى فيه الفلك ، والأنهار تجرى بالأرزاق . . هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر فى جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون:إن الإنسان لظلوم كفار . يبدل نعمة الله كفرا ، ويجعل لله أندادا ، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان (الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار) إنها حملة . إنها سياط تلذع الوجدان . . حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار . . وسياط ذات إيقاع ,وذات رنين ، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار ! إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد . ويحول كل ومضة فى صفحة الكون أو فى ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء . . وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضا لآيات الله ، تبدع فيه يد القدرة , وتتجلى آثارها فى كل مشهد فيه ومنظر ، وفى كل صورة فيه وظل . . إنه لا يعرض قضية الألوهية والعبودية فى جدل ذهنى ولا فى لاهوت تجريدى ولا فى فلسفة "ميتافيزيقية " ذلك العرض الميت الجاف الذى لا يمس القلب البشرى ولا يؤثر فيه ولا يوحى إليه . . إنما هو يعرض هذه القضية فى مجال المؤثرات والموحيات الواقعية من مشاهد الكون ، ومجالى الخلق ، ولمسات الفطرة ، وبديهيات الإدراك . فى جمال وروعة واتساق . والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيادى الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى الإنسان:خط السماوات والأرض . يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمرات النابتة من الأرض بهذا الماء . فخط البحر تجرى فيه الفلك والأنهار تجرى بالأرزاق . . ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد . خط الشمس والقمر . فخط آخر فى لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر:خط الليل والنهار . . ثم الخط الشامل الأخير الذى يلون الصفحة كلها ويظللها (وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) إنه الإعجاز الذى تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل . فى مشهد الكون ومعرض الآلاء . أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السماوات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ، والثمرات تخرج من بينهما . والبحر تجرى فيه الفلك بأمر الله مسخرة . والأنهار تجرى بالحياة

والأرزاق فى مصلحة الإنسان . والشمس والقمر مسخران دائبان لا يفتران . والليل والنهار يتعاقبان أفكل أولئك للإنسان ؟ ثم لا يشكر ولا يذكر ؟ (إن الإنسان لظلوم كفار)! الله الذى خلق السماوات والأرض وبعد ذلك يجعلون لله أندادا ، فكيف يكون الظلم فى التقدير ، والظلم فى عبادة خلق من خلقه فى السماوات أو فى الأرض ؟ (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) والزرع مورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر . والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التى فطر الله عليها هذا الكون ، ويتبع الناموس الذى يسمح بنزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر ، وموافقة هذا كله للإنسان . وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون كله لتسخر أجرامه وظواهره فى إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء . . والناس يسمعون كلمة "الرزق" فلا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب للمال . ولكن مدلول "الرزق" أوسع من ذلك كثيرا ، وأعمق من ذلك كثيرا . . إن أقل "رزق" يرزقه الكائن الإنسانى فى هذا الكون يقتضى تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التى لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ؛ ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد . ويكفى ما ذكر فى هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره) بما أودع فى العناصر من خصائص تجرى الفلك على سطح الماء ؛ وبما أودع فى الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء ؛ وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان (وسخر لكم الأنهار) تجرى فتجرى الحياة ، وتفيض فيفيض الخير ، وتحمل ما تحمل فى جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان و سخر لكم الشمس والقمر دائبين لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار . . ولكنه ينتفع بآثارهما,ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها . فهما مسخران بالناموس الكونى ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان فى حياته ومعاشه بل فى تركيب خلاياه وتجديدها (وسخر لكم الليل والنهار) سخرهما كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه ، وما يناسب نشاطه وراحته . ولو كان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان ؛ فضلا على فساد ما حوله كله ، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه . وليست هذه سوى الخطوط العريضة فى صفحة الآلاء المديدة . ففى كل خط من النقط ما لا يحصى . ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال المناسب للوحة المعروضة وللجو الشامل (وآتاكم من كل ما سألتموه) من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فهى أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر ، أو كل البشر . وكلهم محدودون بين حدين من الزمان:بدء ونهاية . وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان . ونعم الله مطلقة – فوق كثرتها – فلا يحيط بها إدراك إنسان وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادا ، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرا (إن الإنسان لظلوم كفار)!!! وحين يستيقظ ضمير الإنسان ، ويتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له ، إما مباشرة ,وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم ؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله ، معين بقدرة الله ، ذلول له بتسخير الله . . حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر . لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع دائما إلى ربه المنعم:حين يكون فى الشدة ليبدله منها يسرا ، وحين يكون فى الرخاء ليحفظ عليه النعماء . والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم . الذى يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران . . ومن ثم يأتى به السياق فى مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء وفى نغمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء (وإذ قال إبراهيم:رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ؛ ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) إن السياق يصور إبراهيم – عليه السلام – إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى آل إلى قريش ، فإذا بها تكفر فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه بانيه لعبادة الله ! فيصوره فى هذا العبد الذاكر الشاكر ، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ، ويرد الغافلين إلى الذكر ، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون . ويبدأ إبراهيم دعاءه (رب اجعل هذا البلد آمنا) فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه . والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا لله أندادا ، وصدوا عن سبيل الله . ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) ويبدو فى دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم

المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه . ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله . وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود ، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب ، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد . . إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام . يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) ثم يتابع الدعاء . . فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فهو منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة (فمن تبعنى فإنه منى) وأما من عصانى منهم فأفوض أمره إليك (ومن عصانى فإنك غفور رحيم) وفى هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ؛ بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة ؛ وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية ؛ فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم ! ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) لماذا ؟ (ربنا ليقيموا الصلاة) فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم . وفى التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهى تهوى إلى ذلك البيت وأهله فى ذلك الوادى الجديب . إنه تعبير ندى يندى الجدب برقة القلوب (وارزقهم من الثمرات) عن طريق تلك القلوب التى ترف عليهم من كل فج . . لماذا ؟ أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا ؟ نعم ! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور (لعلهم يشكرون) وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام . إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله . ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض . إنه شكر الله المنعم الوهاب . وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة فى موقف قريش جيرة البيت المحرم . . فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهوى القلوب والثمرات ! ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله . . يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على ما فى قلوبهم من توجه وشكر ودعاء . فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء . . إنما هو توجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء(ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن:وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء)ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر: (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء) وهبة الذرية على الكبر أوقع فى النفس . فالذرية امتداد . وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته (إن ربى لسميع الدعاء) ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه (رب اجعلنى مقيم الصلاة . ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء) وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى فى موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم ينأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده ! ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ؛ ثم مغفرة الله فى تقصيره (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وينتهى المشهد الطويل:مشهد الدعاء الخاشع الضارع . ومشهد تعداد النعم والشكر عليها . . فى إيقاع متموج رخى . . ينتهى بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا ، تهفو القلوب معه إلى جوار الله ، وتذكر القلوب فيه نعم الله .ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغى أن يكون عباد الله ، الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء . ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم – عليه السلام – فى كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة (ربنا) أو "رب" . فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى . . إنه لا يذكر الله – سبحانه – بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية . فالألوهية قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات – وبخاصة فى الجاهلية العربية – إنما الذى كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية . قضية الدينونة فى واقع الحياة الأرضية . وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الإنسان . والتى هى مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك فى عالم الواقع . . فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم . . وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد

والشرك وبين الإسلام والجاهلية فى واقع الحياة . والقرآن وهو يعرض على مشركى العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء ! ثم يكمل السياق الشوط مع (الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) وهم ما يزالون بعد فى ظلمهم لم يأخذهم العذاب . والذين أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم (تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) وأن ينصرف إلى عباد الله المؤمنين يأمرهم بالصلاة والإنفاق سرا وعلانية (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله ؛ ومتى يلقون مصيرهم المحتوم ؛ وذلك فى مشاهد متعاقبة من مشاهد القيامة ، تزلزل الأقدام والقلوب (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء) والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون . ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم فى هذه الحياة الدنيا . فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التى لا إمهال بعدها . ولا فكاك منها . أخذهم فى اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشهدا للقوم فى زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون إلى شىء . رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكا . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهى هواء خواء هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه . حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب . الذى يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلا آخذا بهم كالطائر الصغير فى مخالب الباشق الرعيب (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء) فالسرعة المهرولة المدفوعة ، فى الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوى من كل وعى ومن كل إدراك . . كلها تشى بالهول الذى تشخص فيه الأبصار.هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه ، والذى ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك . . وهنا يرسم مشهدا آخر لليوم الرعيب المنظور(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا:ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟! وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ؟) أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفا ، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء ، يقولون(ربنا) الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادا ! (أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب . كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون . وكأننا فى الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها . فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم فى تلك الحياة (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟!) فكيف ترون الآن ؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلا بارزا للظالمين ومصيرهم المحتوم (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) وعند هذا التبكيت ينتهى المشهد ،وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء . وإن هذا المثل ليتجدد فى الحياة ويقع كل حين . فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم . وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ؛ ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التى يسكنونها ، والتى تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصور مصائرهم للناظرين . ثم يؤخذون إخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين ! ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك ، إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين ، وتدبيرهم الشر فى كل نواحى الحياة . فيلقى فى الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم . . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) إن الله محيط بهم وبمكرهم ، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدى إلى زوال الجبال ,أثقل شىء وأصلب شىء ، وأبعد شىء عن تصور التحرك والزوال . فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا وليس بعيدا عن متناول القدرة . بل إنه لحاضر (عند الله) يفعل به كيفما يشاء (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام) فما لهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر (إن الله عزيز ذو انتقام) لا يدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكر ينجو . . وكلمة الانتقام هنا تلقى الظل المناسب للظلم والمكر ، فالظالم الماكر يستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعنى تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم ، تحقيقا لعدل الله فى الجزاء . وسيكون ذلك لا محالة (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) ولا ندرى نحن كيف يتم هذا ، ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات ، ولا مكانها ؛ ولكن النص يلقى ظلال القدرة القادرة التى تبدل الأرض وتبدل السماوات ؛ فى مقابل ذلك المكر الذى

مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير . وفجأة نرى ذلك قد تحقق (وبرزوا لله الواحد القهار) وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . ليسوا فى دورهم وليسوا فى قبورهم . إنما هم فى العراء أمام الواحد القهار . . ولفظة (القهار) هنا تشترك فى ظل التهديد بالقوة القاهرة التى لا يقف لها كيد الجبابرة . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ، ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسى المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) فمشهد المجرمين:اثنين اثنين مقرونين فى الوثاق ، يمرون صفا وراء صف مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار . ويضاف إلى قرنهم فى الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهى فى ذات الوقت قذرة سوداء (من قطران) ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار !(وتغشى وجوههم النار) فهو مشهد العذاب المذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار (ليجزى الله كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب) ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل . إن الله سريع الحساب . فالسرعة فى الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذى كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم . فها هو أولاء يجزون ما كسبوا ذلا وألما وسرعة حساب ! وفى النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن فى إعلان عام جهير الصوت ، عالى الصدى ، لتبليغ البشرية كلها فى كل مكان (هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب)إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هى أن يعلم الناس (أنما هو إله واحد . .(فهذه هى قاعدة دين الله التى يقوم عليها منهجه فى الحياة . وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم . . المقصود هو الدينونة لله وحده ، ما دام أنه لا إله غيره . فالإله هو الذى يستحق أن يكون ربا – أى حاكما وسيدا ومتصرفا ومشرعا وموجها – وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافا جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد – أى حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد – وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور ، ويتناول الشعائر والمناسك ؛ كما يتناول الأخلاق والسلوك , والقيم والموازين ؛ وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية , وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء . إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ؛ وليس مجرد عقيدة مستكنة فى الضمائر . وحدود العقيدة أبعد كثيرا من مجرد الاعتقاد الساكن . . إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة . . وقضية الحاكمية بكل فروعها فى الإسلام هى قضية عقيدة . كما أن قضية الأخلاق بجملتها هى قضية عقيدة . فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذى يشتمل الأخلاق والقيم ؛ كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء . . ونحن لا ندرك مرامى هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة فى هذا الدين ، وقبل أن ندرك مدلولات:"شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد . وقبل أن نفهم مدلول:العبادة لله وحده ؛ ونحدده بأنه الدينونة لله وحده ؛ لا فى لحظات الصلاة ، ولكن فى كل شأن من شؤون الحياة ! إن عبادة الأصنام التى دعا إبراهيم – عليه السلام – ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها , لا تتمثل فقط فى تلك الصورة الساذجة التى كان يزاولها العرب فى جاهليتهم ، أو التى كانت تزاولها شتى الوثنيات فى صور شتى ، مجسمة فى أحجار أو أشجار ، أو حيوان أو طير ، أو نجم أو نار ، أو أرواح أو أشباح . . . إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله ، ولا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله . والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التى لا نهاية لها ؛ ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة ! ولا بد من التعمق فى إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها ؛ كما أنه لا بد من التعمق فى معنى الأصنام ، وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة ! إن الشرك بالله – المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله – يتمثل فى كل وضع وفى كل حالة لا تكون فيها الدينونة فى كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده . ويكفى أن يدين العبد لله فى جوانب من حياته ، بينما هو يدين فى جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته . . وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة . . والأمثلة الحاضرة فى حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعى للشرك فى أعماق طبيعته . . إن العبد الذى يتوجه لله بالاعتقاد فى ألوهيته وحده ؛ ثم يدين لله فى الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر . بينما هو فى الوقت ذاته يدين فى حياته الاقتصادية و السياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله . ويدين فى قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين فى أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء – مخالفة لشرع الله وأمره – إن هذا العبد يزاول الشرك فى أخص حقيقته ؛ ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فى أخص حقيقتها . . وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه فى ترخص وتميع ، وهم لايحسبونه الشرك الذى كان يزاوله المشركون فى كل زمان ومكان ! والأصنام . . ليس من الضرورى أن

تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة . . فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها ، وضمان دينونتهم له من خلالها . إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر . . إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها ؛ يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى . . ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها ! فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال . فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها ! إذا رفعت "القومية" شعارا ، أو رفع "الوطن" شعارا ، أو رفع "الشعب" شعارا ، أو رفعت "الطبقة" شعارا . . . ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ؛ وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات – أو بالتعبير الصحيح الدقيق:إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات – كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله . . فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ؛ ولقد يكون الصنم مذهبا أو شعارا ! إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول ؛ ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب ! إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ; وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة . . ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيدا أم شركا ؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام ! والذين يظنون أنفسهم في "دين الله" لأنهم يقولون بأفواههم "نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ، ويدينون لله فعلا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث . . بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله ؛ ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله – وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله – ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم – أرادوا أم لم يريدوا – ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة . فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام , نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام الذين يظنون أنفسهم "مسلمين" وفي "دين الله" وهذا حالهم . . عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم !!! إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم "مسلمين" في مشارق الأرض ومغاربها ! إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها . والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها – فضلا على أصولها وكلياتها – هي دين الله ، وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه . وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ؛ ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه . . وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب ؛ بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات ! ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال ؟ . . فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله . وإن كان لغير الله – معه أو من دونه – فهم في دين الطواغيت والأصنام . . والعياذ بالله ! . .

هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به . وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب . .

سورة الحجر

مكية و آياتها ٩٩

هذه السورة مكية بجملتها ، نزلت بعد سورة يوسف ، فى الفترة الحرجة ، ما بين "عام الحزن "وعام الهجرة . . تلك الفترة التى تحدثنا عن طبيعتها وملابساتها ومعالمها من قبل فى تقديم سورة يونس وفى تقديم سورة هود وفى تقديم سورة يوسف بما فيه الكفاية . . وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة ، وحاجاتها ومقتضياتها الحركية . . إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية ؛ وتوجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة معه ، توجيها واقعيا مباشرا وتجاهد المكذبين جهادا كبيرا . كما هى طبيعة هذا القرآن ووظيفته . ولما كانت حركة الدعوة فى تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت ، بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبى ﷺ والعصبة المؤمنة معه ؛ حيث اجترأت قريش على رسول الله ﷺ بما لم تكن تجترئ عليه فى حياة أبى طالب . واشتد استهزاؤها بدعوته ؛ كما اشتد إيذاؤها لصحابته . . فقد جاء القرآن الكريم فى هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ; ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ؛ ويكشف للرسول ﷺ عن علة تكذيبهم وعنادهم ؛ وهى لا تتعلق به ولا بالحق الذى معه ، لكنها ترجع إلى العناد الذى لا تجدى معه الآيات البينات . ومن ثم يسلى الرسول ﷺ ويواسيه ؛ ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذى معه ؛ والصدع به بقوة فى مواجهة الشرك وأهله ؛ والصبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة ، وطول الطريق ! ومن هنا تلتقى هذه السورة فى وجهتها وفى موضوعها وفى ملامحها مع بقية السور التى نزلت فى تلك الفترة ؛ وتواجه مثلها مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية . أى الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية فى مواجهة الجاهلية العربية فى تلك الفترة من الزمان بكل ملابساتها الواقعية . ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة ، وذلك كالذى تواجهه الحركة الإسلامية الآن فى هذا الزمان . ونحن نؤكد على هذه السمة فى هذا القرآن . سمة الواقعية الحركية . . لأنها فى نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه . إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التى صاحبت نزول النص القرآنى . . لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ؛ ولرؤية حيويته وهو يعمل فى وسط حى ؛ ويواجه حالة واقعة ; كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها ؛ كما هى ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات فى فترة تاريخية تالية ، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية . نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين فى مواجهة الجاهلية الحاضرة ؛ ومن ثم يواجهون أحوالا وملابسات وظروفا وأحداثا كالتى كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى – صلوات الله وسلامه عليه – والعصبة المسلمة معه . . من الإعراض والتولى عن هذا الدين فى حقيقته الكبيرة الشاملة ; التى لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة لله وحده فى كل شأن من شؤون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذى كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبتلى – فى سبيل الله – به . إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين فى مواجهة الجاهلية ؛ ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى . . هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية . . وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ؛ ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه . على النحو الذى أسلفنا . . وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذى لا يغنى عنه فقه الأوراق ,فى مواجهة الحياة المتحركة التى لا تكف عن الحركة ! وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه فى هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة فى مواجهة الجاهلية الشاملة . حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى الإسلام ؛ ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد ؛ كما كانت الحركة الأولى – على عهد محمد ﷺ تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة ؛ قبل أن تقوم الدولة فى المدينة ؛ وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض وعلى أمة من الناس . نحن اليوم فى شبه هذا الموقف لا فى مثله ، وذلك لاختلاف بعض الظروف والملابسات الخارجية . . نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة فى مواجهة جاهلية شاملة . . ولكن مع اختلاف فى الملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة . . وهذا الاختلاف هو

الذى يقتضى "اجتهادا" جديدا فى "فقه الحركة " يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلا أو كثيرا . هذا النوع من الفقه هو الذى تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة . . أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة ، وشرائع المجتمع المنظم المستقر ، فهذا ليس أوانه . . . إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم ، قاعدة التعامل فيه هى شريعة الله والفقه الإسلامى ! . . هذا النوع من الفقه يأتى فى حينه ؛ وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حين يوجد ؛ ويواجه الظروف الواقعية التى تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك ! إن الفقه الإسلامى لا ينشأ فى فراغ ولا تستنبت بذوره فى الهواء !

ونعود إلى استكمال الحديث عن موضوعات السورة:

محور هذه السورة الأول:هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصيلة للتكذيب ,وتصوير المصير المخوف الذى ينتظر الكافرين المكذبين . . وحول هذا المحور يدور السياق فى عدة جولات ، متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء فى ذلك القصة ، ومشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التى تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه . وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام . فإن جو هذه السورة – الحجر – يذكر بجو سورة الأعراف . – وابتداؤها كان بالإنذار ، وسياقها كله جاء مصداقا للإنذار – فهنا كذلك فى سورة الحجر يتشابه البدء والسياق ، مع اختلاف فى الطعم والمذاق ! فى سورة الحجر يجىء الإنذار كذلك فى مطلعها ، ولكن ملفعا بظل من التهويل والغموض يزيد جوها رهبة وتوقعا للمصير: (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون:السماء وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة والرواسى الراسخة ، والنبت الموزون ، والرياح اللواقح ، والماء والسقيا ,والحياة والموت والحشر للجميع . . يلى ذلك قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين . . ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظورا فيها إلى مصائر المكذبين ,وملحوظا فيها أن مشركى العرب يعرفون الآثار الدارسة لهذه الأقوام ، وهم يمرون عليها فى طريقهم إلى الشام . ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى خمس جولات ، أو خمسة مقاطع ، يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا:

تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التى لا تتخلف فى الرسالة والإيمان بها والتكذيب . مبدوءة بذلك الإنذار الضمنى الملفع بالتهويل (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص فى دلائل الإيمان (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا:إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون !). . وأنهم جميعا من طراز واحد (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين)

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله فى الكون:فى السماء وفى الأرض وما بينهما . وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد فى الوقت المقدر المعلوم (وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم).

أما الجولة الثالثة فتعرض قصة البشرية وأصل الهدى والغواية فى تركيبها وأسبابها الأصيلة , ومصير الغاوين فى النهاية والمهتدين . وذلك فى خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون والنفخ من روح الله فى هذا الطين . ثم فى غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة فى مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح ، مبدوءة بقول الله (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) ثم يتتابع القصص ، يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط ،

وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح . . ملحوظا فى هذا القصص أنه يعرض على قريش مصارع أقوام يمرون على أرضهم فى طريقهم إلى الشام ويرون آثارهم(إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم)

أما الجولة الخامسة والأخيرة فتكشف عن الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول ﷺ فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله ، وللبدء والمصير (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم . .) إلى آخر السورة . .

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١} رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{٢} ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٣} وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{٤} مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{٥} وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{٦} لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلآئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{٧} مَا نُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{٨} إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{٩} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{١٠} وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{١١} كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{١٢} لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{١٣} وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{١٤} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ){١٥}

هذا المقطع الأول فى سياق السورة ، يتحدث عن طبيعة الكتاب الذى يكذب به المشركون . . ويهددهم بيوم يتمنون فيه لو كانوا مسلمين ! كما يكشف لهم عن سبب إرجاء هذا اليوم عنهم ، فهو موقوت بأجل معلوم . . ويذكر تحدياتهم واستهزاءهم وطلبهم الملائكة ، ثم يهددهم بأن نزول الملائكة يكون معه الهلاك والتدمير ! وأخيرا يكشف عن العلة الحقيقية للتكذيب . . إنها ليست نقص الدليل ولكنه العناد الأصيل ! (ألف . لام . را . . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) هذه الأحرف ونظائرها هى الكتاب وهى القرآن . هذه الأحرف التى فى متناول الجميع ، هى)تلك)الآيات العالية الأفق البعيدة المتناول ، المعجزة التنسيق . هذه الأحرف التى لا مدلول لها فى ذاتها هى القرآن الواضح الكاشف المبين . فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز ويكذبون بهذا القرآن المبين فسيأتى يوم يودون فيه لو كانوا غير ما كانوا ؛ ويتمنون فيه لو آمنوا واستقاموا (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ربما . . ولكن حيث لا ينفع التمنى ولا تجدى الودادة . . ربما . . وفيها التهديد الخفى ، والاستهزاء الملفوف ؛ وفيها كذلك الحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام والنجاة قبل أن تضيع ، ويأتى اليوم الذى يودون فيه لو كانوا مسلمين ؛ فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون ! وتهديد آخر ملفوف (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم فى تلك الدوامة:الأمل يلهى والمطامع تغر ، والعمر يمضى والفرصة تضيع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا فى متاهة الأمل الغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع ، ويملى لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود ، وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردهم عنه راد ، ولا يمنعهم منه مانع . وأن ليس وراءهم حسيب ؛ وأنهم ناجون فى النهاية بما ينالون مما يطعمون ! وصورة الأمل الملهى صورة إنسانية حية . فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان ، وهو يجرى وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ؛ وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ؛ وحتى ينسى أن هنالك واجبا ، وأن هنالك محظورا ؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلها ، وأن هنالك موتا ، وأن هناك نشورا . وهذا هو الأمل القاتل الذى يؤمر الرسول ﷺ أن يدعهم له (فسوف يعلمون) حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان وهو أمر فيه تهديد لهم ، وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلهم يصحون من الأمل الخادع الذى يلهيهم عن المصير المحتوم . وإن سنة الله لماضية لا تتخلف ؛ وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذى قدره الله لها ؛ مترتب على سلوكها الذى تنفذ به سنة الله ومشيئته (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الوقت ، فإنما هى سنة الله تمضى فى طريقها المعلوم . ولسوف يعلمون . وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم ، يمنحه الله للقرى والأمم ، لتعمل ، وعلى حسب العمل يكون المصير . فإذا هى آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت مد الله فى أجلها ، حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها ، ولا تبقى فيها بقية من خير يرجى ، عندئذ تبلغ أجلها ، وينتهى وجودها ، إما نهائيا بالهلاك والدثور ، وإما وقتيا بالضعف والذبول . ولقد يقال:إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهى مع ذلك قوية ثرية باقية . وهذا وهم . فلا بد من بقية من خير فى هذه الأمم . ولو كان هو خير العمارة للأرض ، وخير العدل فى حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها . فعلى هذه البقية

من الخير تعيش حتى تستنفدها فلا تبقى فيها من الخير بقية . ثم تنتهى حتما إلى المصير المعلوم . إن سنة الله لاتتخلف . ولكل أمة أجل معلوم (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) ويحكى السياق سوء أدبهم مع الرسول ﷺ وقد جاءهم بالكتاب والقرآن المبين ، يوقظهم من الأمل الملهى ، ويذكرهم بسنة الله ، فإذا هم يسخرون منه ويتوقحون (وقالوا:يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين !) وتبدو السخرية فى ندائهم (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) فهم ينكرون الوحى والرسالة ؛ ولكنهم يتهكمون على الرسول الكريم بهذا الذى يقولون . ويبدو سوء الأدب فى وصفهم للرسول الأمين (إنك لمجنون) جزاء على دعوته لهم بالقرآن المبين . وهم يتمحكون فيطلبون الملائكة مصدقين (لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين !)وطلب نزول الملائكة يتكرر في هذه السورة وفي غيرها ، مع الرسول [ص] ومع غيره من الرسل قبله:وهو كما قلنا ظاهرة من ظواهر الجهل بقيمة هذا الكائن الإنسانى الذى كرمه الله ، فجعل النبوة فى جنسه ، ممثلة فى أفراده المختارين . والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل هو ذكر القاعدة التي تشهد بها مصارع السالفين:أن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهى الأجل المعلوم ؛ وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل (ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين) فهل هو ما يريدون وما يتطلبون ؟! ثم يردهم السياق إلى الهدى والتدبر . . إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق ، ليحقوه وينفذوه . والحق عند التكذيب هو الهلاك . فهم يستحقونه فيحق عليهم . فهو حق تنزل به الملائكة لتنفذه بلا تأخير . وقد أراد الله لهم خيرا مما يريدون بأنفسهم ، فنزل لهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به ، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير ! لو كانوا يفقهون (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) فخير لهم أن يقبلوا عليه . فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل . ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه ، إن كانوا يريدون الحق , وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبت . . إن الله لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة , لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ ، لا ملائكة الهلاك والتدمير . ونظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر ؛ فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب – إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة – ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التى تقلبت على هذا الكتاب فى خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا لا تتبدل فيه كلمة ،ولا تحرف فيه جملة , لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر ، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل , تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل ، وتصونه من العبث والتحريف . لقد جاء على هذا القرآن زمان فى أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق ، وكثر فيه النزاع , وطمت فيه الفتن ، وتماوجت فيه الأحداث . وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند فى هذا القرآن وفى حديث رسول الله ﷺ ودخل فى هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود – خاصة – ثم من "القوميين" دعاة "القومية " الذين تسموا بالشعوبيين ! ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله ﷺ ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله ﷺ وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين . كما استطاعت هذه الفرق فى تلك الفتن أن تؤول معانى النصوص القرآنية ، وأن تحاول أن تلوى هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات . ولكنها عجزت جميعا – وفى أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا – أن تحدث حدثا واحدا فى نصوص هذا الكتاب المحفوظ ؛ وبقيت نصوصه كما أنزلها الله ؛ حجة باقية على كل محرف وكل مؤول ؛ وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ . ثم جاء على المسلمين زمان – ما نزال نعانيه – ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم ، وعن حماية عقيدتهم ، وعن حماية نظامهم ، وعن حماية أرضهم ، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم . وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم ! وغير عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم , وأحلوا مكانه كل منكر فيهم . كل منكر من العقائد والتصورات ، ومن القيم والموازين , ومن الأخلاق والعادات ، ومن الأنظمة والقوانين . وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعرى من كل خصائص "الإنسان" وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان . . وأحيانا إلى حياة يشمئز منها الحيوان . . ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقة من "التقدم" و "التطور" و "العلمانية " و "العلمية " و "الانطلاق" و" التحرر" و "تحطيم الأغلال" و "الثورية " و "التجديد" إلى آخر تلك الشعارات والعناوين . وأصبح "المسلمون" بالأسماء وحدها مسلمين . ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير . وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع ، ولا يصلح لشىء إلا أن يكون وقودا للنار . . وهو وقود هزيل ! ولكن أعداء هذا الدين – بعد هذا كله – لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها . ولم يكونوا فى هذا من الزاهدين . فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال ! ولقد بذل أعداء هذا الدين – وفى مقدمتهم اليهود – رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد فى الكيد لدين الله . وقدروا على أشياء كثيرة . . قدروا على الدس فى سنة رسول الله ﷺ وعلى تاريخ الأمة المسلمة . وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص فى جسم المجتمع المسلم ليؤدوا

الأدوار التى يعجزون عن أدائها وهم سافرون . وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين . وقدروا على تقديم عملائهم الخونة فى صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير فى أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون ، وبخاصة فى العصر الحديث . ولكنهم لم يقدروا على شىء واحد – والظروف الظاهرية كلها مهيأة له – . . لم يقدروا على إحداث شىء فى هذا الكتاب المحفوظ ، الذى لا حماية له من أهله المنتسبين إليه ؛ وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع ; فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب ، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقا تنزيل من عزيز حكيم . لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ﷺ مجرد وعد . أما هو اليوم – من وراء كل تلك الأحداث الضخام ؛ ومن وراء كل تلك القرون الطوال . فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب ، والتى لا يمارى فيها إلا عنيد جهول (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون). . وصدق الله العظيم) ويعزى الله سبحانه نبيه ﷺ فيخبره أنه ليس بدعا من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب ، فهكذا المكذبون دائما فى عنادهم الذميم (ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وعلى هذا النحو الذى تلقى به المكذبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم ، يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به . وعلى هذا النحو نجرى هذا التكذيب فى قلوبهم التى لا تتدبر ولا تحسن الاستقبال ، جزاء ما أعرضت وأجرمت فى حق الرسل المختارين (كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين) نسلكه فى قلوبهم مكذبا بما فيه مستهزأ به ؛ لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو . سواء فى هذا الجيل أم فى الأجيال الخالية أم فى الأجيال اللاحقة ; فالمكذبون أمة واحدة ، من طينة واحدة (وقد خلت سنة الأولين) وليس الذى ينقصهم هو توافر دلائل الإيمان ، فهم معاندون ومكابرون ، مهما تأتهم من آية بينة فهم فى عنادهم ومكابرتهم سادرون . وهنا يرسم السياق نموذجا باهرا للمكابرة المرذولة والعناد البغيض (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا:إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون)

ويكفى تصورهم يصعدون فى السماء من باب يفتح لهم فيها . يصعدون بأجسامهم ، ويرون الباب المفتوح أمامهم ، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها . . ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون:لا . لا . ليست هذه حقيقة . إنما أحد سكر أبصارنا وخدرها فهى لا ترى إنما تتخيل (إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) سكر أبصارنا مسكر وسحرنا ساحر ، فكل ما نراه وما نحسه وما نتحركه تهيؤات مسكر مسحور ! يكفى تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزرى . ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء . ويثبت أن ليس الذى ينقصهم هو دلائل الإيمان . وليس الذى يمنعهم أن الملائكة لا تنزل . فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة . إنما هم قوم مكابرون . مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف ! إنه نموذج بشرى للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير ، مثيرا لشعور الاشمئزاز والتحقير . وهذا النموذج ليس محليا ولا وقتيا ، ولا هو وليد بيئة معينة فى زمان معين . . إنه نموذج للإنسان حين تفسد فطرته ، وتستغلق بصيرته ، وتتعطل فى كيانه أجهزة الاستقبال والتلقى ، وينقطع عن الوجود الحى من حوله ، وعن إيقاعاته وإيحاءاته . هذا النموذج يتمثل فى هذا الزمان فى الملحدين وأصحاب المذاهب المادية التى يسمونها" المذاهب العلمية ! " وهى أبعد ما تكون عن العلم ؛ بل أبعد ما تكون عن الإلهام والبصيرة . . إن أصحاب المذاهب المادية يلحدون فى الله ؛ ويجادلون فى وجوده – سبحانه – وينكرون هذا الوجود . . ثم يقيمون على أساس إنكار وجود الله ، والزعم بأن هذا الكون موجود هكذا بذاته ، بلا خالق ، وبلا مدبر ، وبلا موجه . . يقيمون على أساس هذا الزعم وذلك الإنكار مذاهب اجتماعية وسياسية واقتصادية و "أخلاقية ! " كذلك . ويزعمون أن هذه المذاهب القائمة على ذلك الأساس ، والتى لا تنفصل عنه بحال . ." علمية " . . هى وحدها "العلمية " ! وعدم الشعور بوجود الله سبحانه ، مع وجود تلك الشواهد والدلائل الكونية ، هو دلالة لا تنكر على تعطل أجهزة الاستقبال والتلقى فى تلك الجبلات النكدة . كما أن اللجاجة فى هذا الإنكار لا تقل تبجحا عن تبجح ذلك النموذج الذى ترسمه النصوص القرآنية السابقة (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا:إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون !). . فالشواهد الكونية أظهر وأوضح من عروجهم إلى السماء . وهى تخاطب كل فطرة غير معطلة خطابا هامسا وجاهرا ، باطنا وظاهرا ، بما لا تملك هذه الفطرة معه إلا المعرفة والإقرار . إن القول بأن هذا الكون موجود بذاته ؛ وفيه كل تلك النواميس المتوافقة لحفظه وتحريكه وتدبيره ؛ كما أن فيه كل تلك الموافقات لنشأة الحياة فى بعض أجزائه . . وهى موافقات لا تحصى . . إن هذا القول بذاته يرفضه العقل البشرى ، كما ترفضه الفطرة من أعماقها . وكلما توغل "العلم" فى المعرفة بطبيعة هذا الكون وأسراره وموافقاته ؛ رفض فكرة التلقائية فى وجود هذا الكون وفى حركته بعد وجوده ؛ واضطر اضطرارا إلى رؤية اليد الخالقة المدبرة من ورائه . . هذه الرؤية التى تتم للفطرة

السوية بمجرد تلقى إيقاعات هذا الكون وإيحاءاته . قبل جميع البحوث العلمية التى لم تجىء إلا أخيرا ! إن الكون لا يملك أن يخلق ذاته ، ثم يخلق فى الوقت نفسه قوانينه التى تصرف وجوده . كما أن نشأة الحياة لا يفسرها وجود الكون الخالى من الحياة . وتفسير نشأة الكون ونشأة الحياة بدون وجود خالق مدبر تفسير متعسف ترفضه الفطرة كما يرفضه العقل أيضا . . كما أخذ يرفضه العلم المادى نفسه أخيرا:

يقول عالم الأحياء والنبات "رسل تشارلز إرنست" الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا":لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدى إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذى خلق الأشياء ودبرها .

"إننى اعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإننى أومن بوجود الله إيمانا راسخا"

وهذا الذى يكتب هذا التقرير لم يبدأ بحثه من التقريرات الدينية عن نشأة الحياة . إنما بدأ بحثه من النظر الموضوعى لنواميس الحياة . والمنطق السائد فى بحثه هو منطق" العلم الحديث" – بكل خصائصه – لا منطق الإلهام الفطرى ، ولا منطق الحس الدينى . ومع ذلك فقد انتهى إلى الحقيقة التى يقررها الإلهام الفطرى ، كما يقررها الحس الدينى . ذلك أن الحقيقة متى كان لها وجود ، اعترض وجودها كل سالك إليها من أى طريق يسلكه إليها ؛ أما الذين لا يجدون هذه الحقيقة فهم الذين تعطلت فيهم أجهزة الإدراك جميعا !

والذين يجادلون فى الله – مخالفين عن منطق الفطرة وعن منطق العقل ، وعن منطق الكون . . أولئك كائنات تعطلت فيها أجهزة الاستقبال والتلقى جميعا . . إنهم العمى الذين يقول الله تعالى فيهم (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) وإذا كانت هذه حقيقتهم ؛ فإن ما ينشئونه من مذاهب "علمية ! " اجتماعية وسياسية واقتصادية ; وما ينشئون من نظريات عن الكون والحياة والإنسان والحياة الإنسانية والتاريخ الإنسانى ؛ يجب أن ينظر إليها المسلم كما ينظر إلى كل تخبط ، صادر عن أعمى , معطل الحواس الأخرى ، محجوبا عن الرؤية وعن الحس وعن الإدراك جميعا – على الأقل فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وتفسيرها وتنظيمها . وما ينبغى لمسلم أن يتلقى عن هؤلاء شيئا ؛ فضلا على أن يكيف نظرته ، ويقيم منهج حياته ، على شىء مقتبس من أولئك العمى أصلا ! إن هذه قضية إيمانية اعتقادية ، وليست قضية رأى وفكر ! إن الذى يقيم تفكيره ، ويقيم مذهبه فى الحياة ، ويقيم نظام حياته كذلك ، على أساس أن هذا الكون المادى هو منشى ء ذاته ، ومنشى ء الإنسان أيضا . . إنما يخطىء فى قاعدة الفكر والمذهب والنظام ; فكل التشكيلات والتنظيمات والإجراءات القائمة على هذه القاعدة لا يمكن أن تجىء بخير ; ولا يمكن أن تلتحم فى جزئية واحدة مع حياة مسلم ، يقيم اعتقاده وتصوره ، ويجب أن يقيم نظامه وحياته على قاعدة ألوهية الله للكون وخلقه وتدبيره . ومن ثم يصبح القول بأن ما يسمى "الاشتراكية العلمية " منهج مستقل عن المذهب المادى مجرد جهالة أو هراء ! ويصبح الأخذ بما يسمى "الاشتراكية العلمية " – وتلك قاعدتها ونشأتها ومنهج تفكيرها وبناء أنظمتها – عدولا جذريا عن الإسلام:اعتقادا وتصورا ثم منهجا ونظاما . . حيث لا يمكن الجمع بين الأخذ بتلك "الاشتراكية العلمية " واحترام العقيدة فى الله بتاتا . ومحاولة الجمع بينهما هى محاولة الجمع بين الكفر والإسلام . . وهذه هى الحقيقة التى لا محيص عنها . إن الناس فى أى أرض وفى أى زمان ؛ إما أن يتخذوا الإسلام دينا ، وإما أن يتخذوا المادية دينا . فإذااتخذوا الإسلام دينا امتنع عليهم أن يتخذوا" الاشتراكية العلمية " المنبثقة من "الفلسفة المادية " ، والتى لا يمكن فصلها عن الأصل الذى انبثقت منه ، نظاما . وعلى الناس أن تختار . إما الإسلام ، وإما المادية , منذ الابتداء !إن الإسلام ليس مجرد عقيدة مستكنة فى الضمير . إنما هو نظام قائم على عقيدة . .

كما أن "الاشتراكية العلمية " – بهذا الاصطلاح – ليست قائمة على هواء ، إنما هي منبثقة انبثاقا طبيعيا من "المذهب المادى" الذى يقوم بدوره على قاعدة مادية الكون وإنكار وجود الخالق المدبر أصلا ، ولا يمكن الفصل بين هذا التركيب العضوى . . ومن ثم ذلك التناقض الجذرى بين الإسلام وما يسمى "الاشتراكية العلمية " بكل تطبيقاتها ! ولا بد من الاختيار بينهما . . ولكل أن يختار وأن يتحمل عند الله تبعة ما يختار !!!

(لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{١٦} وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{١٧} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{١٨} وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{١٩} وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{٢٠} وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢١} وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{٢٢} وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{٢٣} وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{٢٤} وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) {٢٥}

من مشهد المكابرة . وكان ميدانه السماء . إلى معرض الآيات الكونية مبدوءا بمشهد السماء . فمشهد الأرض . فمشهد الرياح اللواقح بالماء . فمشهد الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . . كل أولئك آيات يكابر فيها من لو فتح عليهم باب من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا:إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون . فلنعرضها مشهدا مشهدا كما هى فى السياق (ولقد جعلنا فى السماء بروجا . وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع ، فأتبعه شهاب مبين) إنه الخط الأول فى اللوحة العريضة . . لوحة الكون العجيبة ، التى تنطق بآيات القدرة المبدعة ، وتشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ؛ وتكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما تكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير . والبروج قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها . وقد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تنتقل فيها فى مدارها . وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة ، وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل (وزيناها للناظرين) وهى لفتة هنا إلى جمال الكون – وبخاصة تلك السماء – تشى بأن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون . فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذى ينتظم المظاهر جميعا ، وينشأ من تناسقها جميعا . وإن نظرة مبصرة إلى السماء فى الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم ، توصوص بنورها ثم يبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبى دعوة من نجم بعيد . . ونظرة مثلها فى الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهوم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد ! إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه ؛ ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة (وزيناها للناظرين) ومع الزينة الحفظ والطهارة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) لا ينالها ولا يدنسها ؛ ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها . أما السماء – وهى رمز للسمو والارتفاع – فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها . إلا محاولة منه ترد كلما حاولها (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) وما الشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأى شىء يسترق ؟ . . كل هذا غيب من غيب الله ، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص . ولا جدوى فى الخوض فيه ، لأنه لا يزيد شيئا فى العقيدة ؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياة . ثم لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقة جديدة . فلنعلم أن لا سبيل فى السماء لشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ما ترمز إليه من سمو وعلى مصون لا يناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين ما يريد . ولا ننسى جمال الحركة فى المشهد فى رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض ، فهى من بدائع التصوير فى هذا الكتاب الجميل . والخط الثانى فى اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخطو والسير ؛ وما فيها من رواس ، وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) إن ظل الضخامة واضح فى السياق . فالإشارة فى السماء إلى البروج الضخمة – تبدو ضخامتها حتى فى جرس كلمة (بروج) وحتى الشهاب المتحرك وصف من قبل بأنه(مبين). . والإشارة فى الأرض إلى الرواسى – ويتجسم ثقلها فى التعبير بقوله: (وألقينا فيها رواسى) وإلى النبات موصوفا بأنه (موزون) وهى كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقة وإحكام وتقدير . . ويشترك فى ظل التضخيم جمع(معايش) وتنكيرها ، وكذلك (ومن لستم له برازقين) من كل ما فى الأرض من أحياء على وجه الإجمال والإبهام . فكلها تخلع ظل الضخامة الذى يجلل المشهد المرسوم . والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس . فهذه

الأرض الممدودة للنظر والخطو ; وهذه الرواسى الملقاة على الأرض ، تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ؛ ومنه إلى المعايش التى جعلها الله للناس فى هذه الأرض . وهى الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها . وهى كثيرة شتى ، يجملها السياق هنا ويبهمها لتلقى ظل الضخامة كما أسلفنا . جعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لكم كذلك (من لستم له برازقين) فهم يعيشون على أرزاق الله التى جعلها لهم فى الأرض . وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التى لا تحصى . أمة لا ترزق سواها إنما الله يرزقها ويرزق سواها ، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ومتاعها وخدمتها أمما أخرى تعيش من رزق الله ، ولا تكلفها شيئا . هذه الأرزاق - ككل شىء - مقدرة فى علم الله ، تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، فى الوقت الذى يريده حسب سنته التى ارتضاها ، وأجراها فى الناس والأرزاق (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) فما من مخلوق يقدر على شىء أو يملك شيئا ، إنما خزائن كل شىء - مصادره وموارده - عند الله . فى علاه . ينزله على الخلق فى عوالمهم (بقدر معلوم) فليس من شىء ينزل جزافا ، وليس من شىء يتم اعتباطا . ومدلول هذا النص المحكم (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان فى المعرفة ، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه . ومدلول (خزائنه) يتجلى فى صورة أقرب بعدما كشف الإنسان طبيعة العناصر التى يتألف منها الكون المادى ؛ وطبيعة تركيبها وتحليلها - إلى حد ما - وعرف مثلا أن خزائن الماء الأساسية هى ذرات الايدروجين والأكسوجين ! وأن من خزائن الرزق المتمثل فى النبات الأخضر كله ذلك الآزوت الذى فى الهواء ! وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب فى ثانى أكسيد الكربون ! وتلك الأشعة التى ترسل بها الشمس أيضا ! ومثل هذا كثير يوضح دلالة خزائن الله التى توصل الإنسان إلى معرفة شىء منها . . وهو شىء على كثرته قليل قليل . ومما يرسله الله بقدر معلوم الرياح والماء (وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . وما أنتم له بخازنين) أرسلنا الرياح لواقح بالماء ، كما تلقح الناقة بالنتاج ؛ فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح ، فأسقيناكموه فعشتم به (وما أنتم له بخازنين) فما من خزائنكم جاء ، إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم والرياح تنطلق وفق نواميس كونية ، وتحمل الماء وفقا لهذه النواميس ؛ وتسقط الماء كذلك بحسبها . ولكن من الذى قدر هذا كله من الأساس ؟ لقد قدره الخالق ، ووضع الناموس الكلى الذى تنشأ عنه كل الظواهر (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) ونلحظ فى التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله حتى شرب الماء (فأسقيناكموه) والمقصود أننا جعلنا خلقتكم تطلب الماء ، وجعلنا الماء صالحا لحاجتكم ، وقدرنا هذا وذاك . وأجريناه وحققناه بقدر الله . والتعبير يجىء على هذا النحو لتنسيق الجو كله ، ورجع الأمر كله إلى الله حتى فى حركة تناول الماء للشراب . لأن الجو جو تعليق كل شىء فى هذا الكون بإرادة الله المباشرة وقدره المتعلق بكل حركة وحادث . . سنة الله هنا فى حركات الأفلاك كسنته فى حركات الأنفس . . تضمن المقطع الأول سنته فى المكذبين ، وتضمن المقطع الثانى سنته فى السماوات والأرضين ، وفى الرياح والماء والاستقاء . وكله من سنة الله التى يجرى بها قدر الله . وهذه وتلك موصولتان بالحق الكبير الذى خلق الله به السماوات والأرض والناس والأشياء سواء . ثم يتم السياق رجع كل شىء إلى الله ، فيرد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور (وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) وهنا يلتقى المقطع الثانى بالمقطع الأول . فهناك قال (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) وهنا يقرر أن الحياة والموت بيد الله ، وأن الله هو الوارث بعد الحياة . وأنه هو يعلم من كتب عليهم أن يستقدموا فيتوفوا ، ومن كتب عليهم أن يؤجلوا فيستأخروا فى الوفاة . وأنه هو الذى يحشرهم فى النهاية ، وإليه المصير (إنه حكيم عليم) يقدر لكل أمة أجلها بحكمته ، ويعلم متى تموت ، ومتى تحشر ، وما بين ذلك من أمور ، ونلاحظ فى هذا المقطع وفى الذى قبله تناسقا فى حركة المشهد . فى تنزيل الذكر . وتنزيل الملائكة . وتنزيل الرجوم للشياطين . وتنزيل الماء من السماء . . ثم فى المجال الذى يحيط بالأحداث والمعانى ، وهو مجال الكون الكبير:السماء والبروج والشهب ، والأرض والرواسى والنبات ، والرياح والمطر . . فلما ضرب مثلا للمكابرة جعل موضوعه العروج من الأرض إلى السماء خلال باب منها مفتوح فى ذات المجال المعروض . . وذلك من بدائع التصوير فى هذا الكتاب العجيب .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٦} وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{٢٧} وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٢٨} فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{٢٩} فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{٣٠} إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣١} قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{٣٢} قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{٣٣} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{٣٤} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{٣٥} قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى

إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{٣٦} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{٣٧} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{٣٨} قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٣٩} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{٤٠} قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{٤١} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{٤٢} وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{٤٣} لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ{٤٤} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{٤٥} ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{٤٦} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{٤٧} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ){٤٨}

هنا نجيء إلى قصة البشرية الكبرى:قصة الفطرة الأولى . قصة الهدى والضلال وعواملها الأصيلة . قصة آدم . مم خلق ؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه ؟ ولقد مرت بنا هذه القصة في الظلال معروضة مرتين من قبل . في سورة البقرة ، وفي سورة الأعراف . ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص ، في معرض خاص ، في جو خاص . ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء ، واختلفت الظلال ، واختلف الإيقاع . مع المشاركة في بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف . تشابهت مقدمات القصة في السور الثلاث ؛ في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها ولكن السياق الذي وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وفي هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال – وهو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن – والنار الموسومة بأنها شعواء سامة . . نار السموم . . وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم (وإذ قال ربك للملائكة:إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال:يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال:لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال:فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) وإذ قال ربك للملائكة . . متى قال ؟ ، وأين قال ؟ وكيف قال ؟ كل أولئك قد أجبنا عنه في سورة البقرة في الجزء الأول من هذه الظلال . إنه لا سبيل إلى الإجابة ، لأنه ليس لدينا نص يجيب . وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص ، وكل ما عدا ذلك ضرب في التيه بلا دليل . فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان ؟ فهو كذلك ما لا ندري كيفيته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى في هذه القضية ، وبخاصة قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وقوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين) أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ؛ ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين . وأن هنالك أطوارا بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة "سلالة" . وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن في حاجة إليه . وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له ، ، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلا مضمونة ، ويبدل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص . غير متعارض في أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التي تضمنها القرآن ؛ وهي ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبها على وجه اليقين . فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولا , وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيرا ؟ فهنا السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون . وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافيا لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه . فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعا ، تفوقا حاسما فاصلا منذ بدء ظهور الإنسان . فأما هذا السر فما تزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله ، مما يزعم بعضها أن الإنسان "تطور" عنه . كما أنها لا تملك نفي الاحتمال الآخر:وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء – وإن كان بعضها أرقى من بعض – ثم نشأة هذا الإنسان متفردا منذ البدء أيضا . والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك التفرد ، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) فهي روح الله تنقل هذا التكوين العضوي الوضيع إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذي توكل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين . كيف ؟ ومتى كان في نطاق هذا المخلوق الإنساني أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟ وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين . . لقد كان خلق الشيطان – من قبل – من نار السموم . فهو سابق إذن للإنسان في الخلق . هذا ما نعلمه . أما كيف هو وكيف كان خلقه . فذلك شأن آخر . ليس لنا أن نخوض فيه . إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم . ندرك من

صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار . والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم . ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار . وهى ليست بعيدة فى التصور عن طبيعة النار ! ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ؛ ثم من النفخة العلوية التى فرقت بينه وبين سائر الأحياء ؛ ومنحته خصائصه الإنسانية ، التى أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ؛ فسلك طريقا غير طريقها منذ الابتداء . بينما بقيت هي فى مستواها الحيواني لا تتعداه ! هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى ؛ وتجعله أهلا للاتصال بالله ، وللتلقى عنه ; ولتجاوز النطاق المادى الذى تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدى الذى تتعامل فيه القلوب والعقول . والتى تمنحه ذلك السر الخفى الذى يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة فى بعض الأحيان . ذلك كله مع ثقلة الطين فى طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته:من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات . ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات . . هذا مع أن هذا الكائن "مركب" منذ البدء من هذين الأفقين اللذين لا ينفصلان فيه . طبيعته طبيعة "المركب" لا طبيعة "المخلوط" أو الممزوج ! . . "ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التى جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين . . إنه لا انفصال بين هذين الأفقين فى تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر فى حالة واحدة من حالاته . إنه لا يكون طينا خالصا فى لحظة ، ولا يكون روحا خالصا فى لحظة ؛ ولا يتصرف تصرفا واحدا إلا بحكم تركيبه الذى لا يقع فيه الإنفصال ! والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذى يطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشرى المقدر له . فليس مطلوبا منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكا أو ليكون حيوانا . وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان . والإرتفاع الذى يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة ، والحكمة التى من أجلها خلق على هذا النحو الخاص . والذى يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذى يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة . . كلاهما يخرج على سواء فطرته ؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له . وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب فى كيانها الأصيل . وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير . من أجل هذا أنكر الرسول ﷺ على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام . أنكر عليهم كما ورد فى حديث عائشة – رضى الله عنها – وقال:" فمن رغب عن سنتى فليس منى " . وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ؛ وأقام له عليها نظاما بشريا لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر . إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها فى غير طغيان ولا ضعف ؛ ولا اعتداء من إحداها على الأخرى . فكل اعتداء يقابله تعطيل . وكل طغيان يقابله تدمير . والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله . والنظام الذى يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التى لم يهبها الله جزافا للإنسان . والذى يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية فى الإنسان يدمر كيانه المتفرد . ومثله الذى يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والإيمان بالغيب الذى هو من خصائص الإنسان . . والذى يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية ، كالذى يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء . . كلاهما عدو "للإنسان" يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان ! إن الإنسان حيوان وزيادة . . فله مثل مطالب الحيوان ، وله ما يقابل هذه الزيادة . وليست هذه المطالب دون هذه هى "المطالب الأساسية " كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية "العلمية " . هذه بعض الخواطر التى تطلقها فى النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما يقررها القرآن . نمر بها سراعا ، حتى لا نوقف تدفق النص القرآني فى عرض مشاهد القصة الكبرى ، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات فى نهايتها لقد قال الله للملائكة (إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وقد كان ما قاله الله . فقوله – تعالى – إرادة . وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد . ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلى الباقى بالصلصال المخلوق الفانى . فالجدل على هذا النحو عبث عقلى . بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التى يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم . وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشرى وخصائصه وحدوده ، وإقحام له فى غير ميدانه ، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه فى إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ فى المنهج من الأساس . إنه يقول:كيف يتلبس الخالد بالفانى ، وكيف يتلبس الأزلى بالحادث ؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل ! بينما العقل الإنسانى ليس مدعوا أصلا للفصل فى الموضوع . لأن الله يقول:إن هذا قد كان . ولا يقول:كيف كان . فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشرى أن ينفيه . وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده – غير التسليم بالنص – لأنه لا يملك وسائل الحكم . فهو حادث . والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلى فى ذاته ، ولا على الأزلى فى خلقه للحادث .

وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية – وهي أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أي صورة من صوره . يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفها في غير مجاله المأمون . فلننظر بعد ذلك ماذا كان (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) كما هي طبيعة هذا الخلق – الملائكة – الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق (إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين) وإبليس خلق آخر غير الملائكة . فهو من نار وهم من نور . وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وهو أبى وعصى . فليس هو من الملائكة بيقين . أما الاستثناء هنا فليس على وجهه . إنما هو كما تقول:حضر بنو فلان إلا أحمد . وليس منهم . إنما هو معهم في كل مكان أو ملابسة . وأما أن الأمر المذكور للملائكة (وإذ قال ربك للملائكة) فكيف شمل إبليس ؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحا في سورة الأعراف (قال:ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟) وأسلوب القرآن يكتفي بالدلالة اللاحقة في كثير من المواضع . فقول الله تعالى له (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟) قاطع في أن الأمر قد صدر له . وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة . فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة ما . وقد يصدر إليه منفردا ولا يذكر تهوينا لشأنه وإظهارا للملائكة في الموقف . ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة . وهذا ما نختاره . وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها في غير حدود النصوص . لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال (قال:يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال:لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم . وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين . وتشامخ برأسه المغرور يقول:إنه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ! وكان ما ينبغي أن يكون (قال:فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) جزاء العصيان والشرود . عندئذ تتبدى خليفة الحقد وخليقة الشر (قال:رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال:فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم . ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده . يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير ! (قال:رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة . إنها الأرض (لأزينن لهم في الأرض) وحدد عدته فيها إنه التزيين . تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه . وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله ,وتظهره في غير حقيقته ورذائه . فليفطن الناس إلى عدة الشيطان ؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينا ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء . ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك . إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان – بشرطه هو – على عباد الله المخلصين من سبيل (ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ، ويجردها له وحده ، ويعبده كأنه يراه . وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان . هذا الشرط الذي قرره إبليس – اللعين – قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله . . أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه . . ومن ثم كان الجواب (هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من الغاوين) هذا صراط . هذا ناموس . هذه سنة . وهي السنة التي ارتضتها الإرادة قانونا وحكما في الهدى والضلال (إن عبادي) المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ,ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك في حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله . إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين . فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزءا من عباد الله المخلصين . إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب الشاردة من القطيع . فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع . ورحمة الله أوسع ولو تخلفوا فإنهم يثوبون من قريب ! فأما العاقبة . عاقبة الغاوين . فهي معلنة في الساحة منذ البدء (وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) فهؤلاء الغاوون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال . ولكل باب منهم جزء مقسوم ,بحسب ما يكونون وما يعملون . وينتهي المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة . ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس . وكيف تغلب خصائص الطين في الإنسان على خصائص النفخة . فأما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان . وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين (إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ولعل العيون في الجنات تقابل في المشهد تلك الأبواب في جهنم . وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين في مقابل الخوف والفزع هناك . ونزعنا

ما فى صدورهم من غل ، فى مقابل الحقد الذى يغلى به صدر إبليس فيما سلف من السياق . لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا . جزاء ما خافوا فى الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن فى جوار الله الكريم . . . .

تعقيب على قصة آدم فى السورة

وبعد , فإن قصة البشرية الكبرى – كما تعرض فى هذا السياق القرآنى – تستحق تعقيبات مفصلة لا نملك أن نستطرد فيها – فى ظلال القرآن – فنكتفى أن نلم بها إلماما , على قدر المناسبة:

إن دلالتها واضحة على طبيعة تكوين هذا الخلق المسمى بالإنسان . فهو تكوين خاص متفرد , يزيد على مجرد التركيب العضوى الحيوى ، الذى يشترك فيه مع بقية الأحياء . وأيا كانت نشأة الحياة ، ونشأة الأحياء ؛ فإن الخلق الإنسانى يتفرد بخاصية أخرى هى التى ورد بها النص القرآنى . . خاصية الروح الإلهى المودع فيه .. وهى الخاصية التى تجعل من هذا الإنسان إنسانا ، يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى . وهى قطعا ليست مجرد الحياة . فهو يشترك فى "الحياة " مع سائر الأحياء . ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة . هذه الخاصية – كما يلهم النص القرآنى – لم تجىء للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته – كما تزعم الدارونية – ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته . فلم يجىء على هذا الكائن الإنسانى زمان كان فيه مجرد حى من الأحياء – بلا روح إنسانى خاص – ثم دخلته هذه الروح ، فصار بها هو هذا الإنسان ! ولقد اضطرت الدارونية الحديثة – على يد جوليان هاكسلى – أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة ؛ وهى تقرر "تفرد الإنسان" من الناحية الحيوية والوظيفية . ومن ثم تفرده من الناحية العقلية ، وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية . . ولكنها ظلت تزعم أن هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان ! والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان ، وبين القاعدة التى تقوم عليها الداروينية – قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان – ولكن الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرين على ذلك الاندفاع – غير العلمى – الذى صبغوه بصبغة العلم ، فى دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة ! والذى شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته ، وإضفاء الصبغة "العلمية " عليه لغرض فى نفوسهم ؛ ولغاية فى مخططاتهم ! وعلى أية حال ، فإن مجموع النصوص القرآنية فى خلق آدم عليه السلام ، وفى نشأة الجنس البشرى ، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحبا لخلقه . وأن الترقى "الإنسانى " كان ترقيا فى بروز هذه الخصائص ، ونموها ، وتدريبها , واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترقيا فى "وجود" الإنسان . . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان . . كما تقول الداروينية . ووجود أنواع مترقية من الحيوان تتبع ترتيبا زمنيا – بدلالة الحفريات التى تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء – هو مجرد نظرية "ظنية " وليست "يقينية " لأن تقدير أعمار الصخور ذاته فى طبقات الأرض ليس إلا ظنا ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها !" على أنه – على فرض العلم اليقينى بأعمار الصخور – ليس هناك ما يمنع من وجود" أنواع" من الحيوان ، فى أزمان متوالية ، بعضها أرقى من بعض ، بفعل الظروف السائدة فى الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة فى حياتها . ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة [وظهور أنواع أخرى أكثر ملاءمة للظروف السائدة] . . ولكن هذا لا "يحتم" أن يكون بعضها "متطورا" من بعض . . وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا ، لا تستطيع أن تثبت –فى يقين مقطوع به – أن هذا النوع تطور تطورا عضويا من النوع الذى قبله من الناحية الزمنية – وفق شهادة الطبقة الصخرية التى يوجد فيها – ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعا أرقى من النوع الذى قبله زمنيا . . وهذا يمكن تعليله بما قلنا من أن الظروف السائدة فى الأرض كان بما فيها ما يسمونه هناك:"الاشتراكية العلمية " فإن هو إلا إفراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحتقرة للإنسان الذى كرمه الله . والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان فى هذه الأرض ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدا عن منهج الله ؛ والتزيين له فيما عداه . استدراجه إلى الخروج من عبادة الله – أى الدينونة له فى كل ما شرع من عقيدة وتصور ، وشعيرة ونسك ، وشريعة ونظام – فأما الذين يدينون له وحده – أى يعبدونه وحده – فليس للشيطان عليهم من سلطان (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التى وعد بها المتقون ؛ وبين الاتجاه إلى جهنم التى وعد بها الغاوون ، هو الدينونة لله وحده – التى يعبر عنها فى القرآن دائما بالعبادة – أو اتباع تزيين الشيطان بالخروج على هذه الدينونة . والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه ، ولا صفاته . . أى إنه لم يكن يلحد فى الله من ناحية العقيدة ! إنما الذى فعله هو الخروج على الدينونة لله . . وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من

الغاوين . إن الدينونة لله وحده هى مناط الإسلام . فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله فى حكم من الأحكام . وسواء كان هذا الحكم خاصا بالاعتقاد والتصور . أو خاصا بالشعائر والمناسك . أو خاصا بالشرائع والقوانين . أو خاصا بالقيم والموازين . . . فهو سواء . . الدينونة فيه لله هى الإسلام . والدينونة فيه لغير الله هى الجاهلية الذاهبة مع الشيطان . ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة ؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع . فالدينونة لله كل لا يتجزأ . وهى العبادة لله فى معناها اللغوى وفى معناها الاصطلاحى على السواء . . وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان !

وأخيرا نقف أمام اللفتة الصادقة العميقة فى قوله تعالى عن المتقين (إن المتقين فى جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) إن هذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر فى هذه الأرض ؛ ولا تحويلهم خلقا آخر . ومن ثم يعترف لهم بأنه كان فى صدورهم غل فى الدنيا ؛ وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التى لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها ؛ ولكنه يعالجها فقط لتخف حدتها ، ويتسامى بها لتنصرف إلى الحب فى الله والكره فى الله – وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ولكنهم فى الجنة – وقد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها فى الحياة الدنيا – ينزع أصل الإحساس بالغل من صدورهم ؛ ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود . إنها درجة أهل الجنة . . فمن وجدها فى نفسه غالبة فى هذه الأرض ، فليستبشر بأنه من أهلها ، مادام ذلك وهو مؤمن ، فهذا هو الشرط الذى لا تقوم بغيره الأعمال

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{٤٩} وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ{٥٠} وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ{٥١} إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ{٥٢} قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ{٥٣} قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{٥٤} قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ{٥٥} قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ{٥٦} قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{٥٧} قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{٥٨} إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{٥٩} إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{٦٠} فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{٦١} قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{٦٢} قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{٦٣} وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{٦٤} فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ{٦٥} وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{٦٦} وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ{٦٧} قَالَ إِنَّ هَؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ{٦٨} وَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ{٦٩} قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ{٧٠} قَالَ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{٧١} لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ{٧٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{٧٣} فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{٧٤} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{٧٥} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ{٧٦} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ{٧٧} وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ{٧٨} فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ{٧٩} وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ{٨٠} وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{٨١} وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{٨٢} فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{٨٣} فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) {٨٤}

يتضمن هذا الدرس نماذج من رحمة الله وعذابه ، ممثلة فى قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم . هذا القصص يساق بعد مقدمة: نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم فيجىء بعضه مصداقا لنبأ الرحمة ، ويجىء بعضه مصداقا لنبأ العذاب . . كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة ، فيصدق ما جاء فيها من نذير (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل . . وكذلك يصدق هذا القصص ما جاء فى مطالع السورة فى شأن الملائكة حين يرسلون (وقالوا:يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين .ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظرين) فتبدو السورة وحدة متناسقة ، يظاهر بعضها بعضا . . وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادرا ، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية توالیها فى المصحف . ولكن ترتيب هذه الآيات فى السور ترتيب توقيفى ، فلا بد من حكمة فى ترتيبها على هذا النسق . وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن فى السور التى عرضناها فى تماسك بنيان السور ، واتحاد الجو والظلال فى كل سورة . . والعلم بعد ذلك لله . إنما هو اجتهاد . والله الموفق إلى الصواب (نبى ء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) يجىء هذا الأمر للرسول ﷺ بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين فى سياق السورة . والمناسبة بينهما ظاهرة

فى السياق . ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب . جريا على الأصل الذى ارتضت مشيئته . فقد كتب على نفسه الرحمة . وإنما يذكر العذاب وحده أحيانا أو يقدم فى النص لحكمة خاصة فى السياق تقتضى إفراده بالذكر أو تقديمه . ثم تجىء قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط . . وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط فى مواضع متعددة بأشكال متنوعة ، تناسب السياق الذى وردت فيه . ووردت قصة لوط وحده فى مواضع أخرى . وقد مرت بنا حلقة من قصة لوط فى الأعراف ، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط فى هود . . فأما فى الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة ، وجواب قومه (أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) وإنجاءه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وذلك دون ذكر لمجىء الملائكة إليه وائتمار قومه بهم . . وأما فى الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم ولوط مع اختلاف فى طريقة العرض . فهناك تفصيل فى الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيره وامرأته قائمة ، وجداله مع الملائكة عن لوط وقومه . وهو ما لم يذكر هنا . وكذلك يختلف ترتيب الحوادث فى القسم الخاص بلوط فى السورتين . . ففى سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه وهو يرجوهم فى ضيفه فلا يقبلون رجاءه ، حتى ضاق بهم ذرعا وقال قولته الأسيفة (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد !) وأما هنا فقدم الكشف عن طبيعة الملائكة منذ اللحظة الأولى , وأخر حكاية القوم وائتمارهم بضيف لوط . لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذى وقعت به ، ولكن تصديق النذير ، وأن الملائكة حين ينزلون فإنما ينزلون للعذاب فلا ينظر القوم ولا يمهلون (ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا:سلاما . قال:إنا منكم وجلون . قالوا:لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال:أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ؟ فبم تبشرون ؟ قالوا:بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال:ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) قالوا:سلاما . قال:إنا منكم وجلون . . ولم يذكر هنا سبب قوله ، ولم يذكر أنه جاءهم بعجل حنيذ (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة). . كما جاء فى سورة هود . ذلك أن المجال هنا هو مجال تصديق الرحمة التى ينبىء الله بها عباده على لسان رسوله ، لا مجال تفصيلات قصة إبراهيم (قالوا:لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) وهكذا عجلوا له البشرى ، وعجل بها السياق دون تفصيل كذلك يثبت هنا رد إبراهيم ولا يدخل امرأته وحوارها فى هذه الحلقة (قال:أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ؟ فبم تبشرون ؟) فقد استبعد إبراهيم فى أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر [وزوجته كذلك عجوز عقيم كما جاء فى مجال آخر] فرده الملائكة إلى اليقين (قالوا:بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أى من اليائسين . فأب إبراهيم سريعا ، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله (قال:ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟) وبرزت كلمة "الرحمة" فى حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة فى هذا السياق ؛ وبرزت معها الحقيقة الكلية:أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . الضالون عن طريق الله , الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته . فأما القلب الندى بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل فى ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر . . فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين . وقدرة الله تنشىء الأسباب كما تنشىء النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود . وهنا - وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة ، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى - راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته (قال:فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا:إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) ولا يعرض السياق لجدال إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له فى سورة هود . بل يصل إخبار الملائكة له ، بالنبأ كله . ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله ، وعذابه لامرأته وقومه . وينتهى بذلك دورهم مع إبراهيم ، ويمضون لعملهم مع قوم لوط (فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال:إنكم قوم منكرون . قالوا:بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وأتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، واتبع أدبارهم , ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر:أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة ، جاءوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون ، تصديقا لوعد الله ، وتوكيدا لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء(قال:إنكم قوم منكرون) قالها ضيق النفس بهم ، وهو يعرف قومه ، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء ، وهو بين قومه غريب ، وهم فجرة فاحشون . . إنكم قوم منكرون أن تجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون ! (قالوا:بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه . وهو فى حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه عن حمايتهم فى وجه قومه . فجاءه التوكيد بعد التوكيد ، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه (فأسر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون) والسرى سير الليل ، والقطع من الليل جزؤه . وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه فى الليل قبل الصبح ، وأن يكون هو فى مؤخرتهم يتفقدهم ولا

يدع أحدا منهم يتخلف أو يتلكأ أو يلتفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون إليها ويتلكأون . وكان الموعد هو الصبح والصبح قريب (وقضينا إليك ذلك الأمر:أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير:أن آخر هؤلاء القوم – وهو دابرهم – مقطوع فى الصباح . وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم ؛ والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التى لا تبقى أحدا . فلا بد من الحرص واليقظة كى لا يتخلف أحد ولا يتلفت ، فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين . قدم السياق هذه الواقعة فى القصة لأنها الأنسب لموضوع السورة كله . ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها . لقد تسامعوا بأن فى بيت لوط شبانا صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيدا (وجاء أهل المدينة يستبشرون) والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذى وصل إليه القوم فى الدنس والفجور فى الفاحشة الشاذة المريضة . يكشف عن هذا المدى فى مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية . هذه العلانية الفاضحة فى طلب هذا المنكر – فوق المنكر ذاته – شىء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع . فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة فى الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس . وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية . بل حين تكون شرعية . وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك . . بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ، ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير . فأما لوط فوقف مكروبا يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه . وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوى لله . وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله ، ويعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنسانى يستجاش . ولكنه فى كربه وشدته يحاول ما يستطيع (قال:إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون) وبدلا من أن يثير هذا فى نفوسهم رواسب المروءة والحياة ، إذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطا على استضافة أحد من الرجال . كأنما هو الجانى الذى هيأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعا ! (قالوا:أو لم ننهك عن العالمين ؟) ويمضى لوط فى محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليم إلى الجنس الآخر . إلى الإناث اللواتى جعلهن الله لتلبية هذا الدافع العميق فى نظام الحياة ؛ ليكون النسل الذى تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معا – فى الحالات الطبيعية – ليكون هذا ضمانا لامتداد الحياة ، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة . . يمضى لوط فى محاولته هذه (قال:هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) ولوط النبى لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا . إنما هو يلوح لهم بالطريق الطبيعى الذى ترضاه الفطرة السليمة ، لينبه فيهم هذه الفطرة . وهو يعلم أنهم إن ثابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحا . فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة فى نفوسهم لعلها تستيقظ على هذا العرض الذى هم عنه معرضون وبينما هذا المشهد معروض . القوم فى سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون . ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ، ويستجيش وجدانهم ، ويحرك دواعى الفطرة السليمة فيهم ، وهم فى سعارهم مندفعون . . بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطابا لمن يشهد ذلك المشهد ,على طريقة العرب فى كلامهم بالقسم (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) لتصوير حالتهم الأصيلة الدائمة التى لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة . ثم تكون الخاتمة وتحق عليهم كلمة الله وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطبائع المقلوبة (فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وقد خسف بقرى لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحيانا ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح فى الأرض . ويقال:إن بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث ، بعد انقلاب عمورة وسدوم فى باطن الأرض ، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء . ولكننا لا نعلل ما وقع لهم بأنه كان زلزالا أو بركانا عابرا مما يقع فى كل حين . . فالمنهج الإيمانى الذى نحرص عليه فى هذه الظلال يبعد كل البعد عن هذه المحاولة ! وقرى لوط تقع فى طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظات لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة فى مصارع الغابرين . وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقى والتدبر واليقين (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين) وهكذا صدق النذير ، وكان نزول الملائكة إيذانا بعذاب الله الذى لا يرد ولا يمهل ولا يحيد كذلك كان الحال مع قوم شعيب – أصحاب الأيكة – ومع قوم صالح – أصحاب الحجر (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم . وإنهما لبإمام مبين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ؛ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ؛ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه:أهل مدين وأصحاب الأيكة فى مواضع أخرى . فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقا لنبأ العذاب ، فى هذا الشوط ، ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد فى مطالع السورة . ومدين

والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا (وإنهما لبإمام مبين .) قد تعنى مدين والأيكة ، فهما فى طريق واضح غير مندثر ، وقد تعنى قرى لوط السالفة الذكر وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما فى طريق واحد بين الحجاز والشام . ووقوع القرى الداثرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة ، فهى شاهد حاضر يراه الرائح والغادى . والحياة تجرى من حولها وهى داثرة كأن لم تكن يوما عامرة . والحياة لا تحفلها وهى ماضية فى الطريق ! أما أصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وهى ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها فى الصخر فى ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح . ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين ؛ فلما كذبه قومه قيل:إنهم كذبوا المرسلين . توحيدا للرسالة وللرسل وللمكذبين . فى كل أعصار التاريخ ، وفى كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) وآية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات فى هذا الكون كثير . والآيات فى هذه الأنفس كثير . وكلها معروضة للأنظار والأفكار . وليست الخارقة التى جاءهم بها صالح هى وحدها الآية التى آتاهم الله . وقد أعرضوا عن آيات الله كلها ، ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن فى البيوت الحصينة فى صلب الجبال ، إلى الصيحة التى تأخذهم فلا تبقى لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئا يغنى عنهم ويدفع الهلاك الخاطف . . هذه اللمحة تلمس القلب البشرى لمسة عنيفة . فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة فى صلب الصخور . وما يبلغ الاطمئنان بالناس فى وقت أشد من اطمئنانهم فى وقت الصباح المشرق الوديع . . وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم فى ديارهم الحصينة آمنون . فإذا كل شىء ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين موهون . . فما شىء من هذا كله بواقيهم من الصيحة . وهى فرقعة ريح أو صاعقة ، تلحقهم فتهلكهم فى جوف الصخر المتين . وهكذا تنتهى تلك الحلقات الخاطفة من القصص فى السورة ، محققة سنة الله فى أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم . فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة فى تحقيق سنة الله التى لا ترد ، ولا تتخلف ، ولا تحيد .

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{٨٥} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{٨٦} وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{٨٧} لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{٨٨} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{٨٩} كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ{٩٠} الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{٩١} فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{٩٣} فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{٩٤} إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{٩٥} الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{٩٦} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{٩٧} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{٩٨} وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ){٩٩}

يعقب السياق فى ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر ، الذى يتجلى فى طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها . وطبيعة الدعوة التى يحملها الرسول ﷺ وقد حملها الرسل قبله . ويجمع بينها كلها فى نطاق الحق الأكبر الذى يربطها ويتجلى فيها ؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق ، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود (إن ربك هو الخلاق العليم) فليمض الحق الأكبر فى طريقه ، ولتمض الدعوة المستندة إلى الحق الأكبر فى طريقها , وليمض الداعية إلى الحق لا يبالى المشركين المستهزئين (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وسنة الله ماضية فى طريقها لا تتخلف . والحق الأكبر من ورائها متلبسا بالدعوة وبالساعة وبخلق السماوات والأرض ، وبكل ما فى الوجود الصادر عن الخلاق العليم . . إنها لفتة ضخمة تختم بها السورة . لفتة إلى الحق الأكبر الذى يقوم به هذا الوجود (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية . فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم) إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذى تقوم به السماوات والأرض ، والذى به كان خلقهما وما بينهما ، لتعقيب عظيم الدلالة ، عميق المعنى ، عجيب التعبير . فماذا يشير إليه هذا القول: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)؟ إنه يوحى بأن الحق عميق فى تصميم هذا الوجود:عميق فى تكوينه . عميق فى تدبيره . عميق فى مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه . . عميق فى تصميم هذا الوجود . فهو لم يخلق عبثا ، ولم يكن جزافا ، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل . والباطل طارىء عليه ليس عنصرا من عناصر تصميمه . عميق فى تكوينه . فقوامه من العناصر التى يتألف منها حق لا وهم ولا خداع . والنواميس التى تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يتزعزع ولا يضطرب ولا يتبدل .

ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف . عميق فى تدبيره . فبالحق يدبر ويصرف ، وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التى لا تتبع هوى ولا نزوة ، إنما تتبع الحق والعدل . عميق فى مصيره . فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة ؛ وكل تغيير يقع فى السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق . وكل جزاء يترتب يتبع الحق الذى لا يحابى . ومن هنا يتصل الحق الذى خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما ، بالساعة الآتية لا ريب فيها . فهى آتية لا تتخلف . وهى جزء من الحق الذى قام به الوجود . فهى فى ذاتها حقيقة ، وقد جاءت لتحق الحق (فاصفح الصفح الجميل) ولا تشغل قلبك بالحنق والحقد ، فالحق لا بد أن يحق (إن ربك هو الخلاق العليم) الذى خلق ويعلم ما خلق ومن خلق . والخلق كله من إبداعه فلا بد أن يكون الحق أصيلا فيه ، ولا بد أن ينتهى كل شىء فيه إلى الحق الذى بدأ منه وقام عليه . فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارىء يذهب ، فلا يبقى إلا ذلك الحق الكبير الشامل المستقر فى ضمير الوجود يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التى جاء بها الرسول . وذلك القرآن الذى أوتيه (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) والمثانى الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع – كما ورد فى الأثر – فهى تثنى وتكرر فى الصلاة ، أو يثنى فيها على الله . والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق والساعة الآتية لا ريب فيها ، يشى بالاتصال بين هذا القرآن والحق الأصيل الذى يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف بسنن الخالق ويوجه القلوب إليها ، ويكشف آياته فى الأنفس والآفاق ويستجيش القلوب لإدراكها ، ويكشف أسباب الهدى والضلال ، ومصير الحق والباطل ، والخير والشر والصلاح والطلاح . فهو من مادة ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبيانه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذى خلقت به السماوات والأرض . ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمرا عارضا ولا ذاهبا . إنما يبقى مؤثرا فى توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزىء المستهزئون ، ويحاول المبطلون ، الذين يعتمدون على الباطل ، وهو عنصر طارىء زائل فى هذا الوجود . ومن ثم فإن من أوتى هذه المثانى وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ، المتصل بالحق الأكبر . . لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشىء زائل فى هذه الأرض من أعراضها الزوائل . ولا يحفل مصير أهل الضلال ، ولا يهمه شأنهم فى كثير ولا قليل . إنما يمضى فى طريقه مع الحق الأصيل (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أى يتوجه . ولكن التعبير التصويرى يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهى صورة طريفة حين يتصورها المتخيل . والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول ﷺ ذلك المتاع الذى آتاه الله لبعض الناس رجالا ونساء – امتحانا وابتلاء – ولا يلقى إليه نظرة اهتمام . أو نظرة استجمال . أو نظرة تمن . فهو شىء زائل وشىء باطل ؛ ومعه هو الحق الباقى من المثانى والقرآن العظيم . وهذه اللفتة كافية للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذى مع الرسول ، والمتاع الصغير الذى يتألق بالبريق وهو ضئيل . يليها توجيه الرسول ﷺ إلى إهمال القوم المتمتعين ، والعناية بالمؤمنين ، فهؤلاء هم أتباع الحق الذى جاء به ، والذى تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما ؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارىء على صميم الوجود (ولا تحزن عليهم) ولا تهتم لمصيرهم السيىء الذى تعلم أن عدل الله يقتضيه ، وأن الحق فى الساعة يقتضيه .ودعهم لمصيرهم الحق (واخفض جناحك للمؤمنين) والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويرى ، يمثل لطف الرعاية وحسن المعاملة ورقة الجانب فى صورة محسوسة على طريقة القرآن الفنية فى التعبير (وقل:إنى أنا النذير المبين) فذلك هو طريق الدعوة الأصيل . . ويفرد الإنذار هنا دون التبشير لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون ، ويتمتعون ذلك المتاع البراق ، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذى تقوم عليه الدعوة ، وتقوم عليه الساعة ، ويقوم عليه الكون الكبير .

(وقل:إنى أنا النذير المبين) تلك القولة التى قالها كل رسول لقومه ؛ ومنهم بقايا الأقوام التى جاءها أولئك الرسل بتلك النذارة البينة التى جئت بها قومك . . وكان منهم فى الجزيرة العربية اليهود والنصارى . . ولكن هذه البقايا لم تكن تتلقى هذا القرآن بالتسليم الكامل ، إنما كانت تقبل بعضه وترفض بعضه ، وفق الهوى ووفق التعصب وهؤلاء هم الذين يسميهم الله هنا (المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين) (كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وهذه السورة مكية . ولكن الخطاب بالقرآن كان عاما للبشر . ومن البشر هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين [والعضة:الجزء . من عضى الشاة أى فصل بين أعضائها . .] وهم مسؤولون عن هذه التفرقة . وقد جاءهم القرآن بالنذارة البينة ، كما جاءتهم كتبهم من قبل . ولم يكن أمر القرآن ولا أمر النبى بدعا لا عهد لهم به . فقد أنزل الله عليهم مثله ، فكان أولى أن يستقبلوا الجديد من كتاب الله بالقبول والتسليم ، وحين يصل السياق إلى هذا الحد ، يتجه بالخطاب إلى الرسول ﷺ أن يمضى فى طريقه . يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمى هذا الجهر صدعا – أى شقا – دلالة على القوة والنفاذ . لا يقعده عن الجهر والمضى شرك

مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة أمرهم . ولا استهزاء مستهزىء فقد كفاه الله شر المستهزئين فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ؛ إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) والرسول ﷺ بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق . فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك . لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم . ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذى ما بعده يقين . . الأجل . . فيمضى إلى جوار ربه الكريم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ويكون هذا ختام السورة . . الإعراض عن الكافرين واللواذ بجوار الله الكريم . أولئك الكافرين الذين سيأتى يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين . . إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة ؛ والجهر بكل مقوماتها وكل مقتضياتها . ضرورة فى الحركة بهذه الدعوة ؛ فالصدع القوى النافذ هو الذى يهز الفطرة الغافية ؛ ويوقظ المشاعر المتبلدة ؛ ويقيم الحجة على الناس (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة (أما التدسس الناعم بهذه العقيدة ؛ وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا , لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية . والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعنى الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة ! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعنى التدسس الناعم ، وكتمان جانب من حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب ، وجعل القرآن عضين . . لا هذه ولا تلك . . إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة ؛ فى وضوح جلى ، وفى حكمة كذلك فى الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير ." وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة فى الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة فى كل مكان . . لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ؛ ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا فى المستقبل . . فالجاهلية هى الجاهلية ، والإسلام هو الإسلام . . الجاهلية هى الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهى فى الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد والقيم والموازين ، من مصدر آخر غير المصدر الإلهى . . والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هى نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام" . وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هى التى يجب أن يصدع بها أصحاب الدعوة الإسلامية ,ولا يخفوا منها شيئا ؛ وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتململ الجماهير.

سورة النحل

مكية و آياتها ١٢٨

هذه السورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ؛ ولكنها مليئة حافلة . موضوعاتها الرئيسية كثيرة منوعة ؛ والإطار الذى تعرض فيه واسع شامل ؛ والأوتار التى توقع عليها متعددة مؤثرة ، والظلال التى تلونها عميقة الخطوط وهى كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى:الألوهية . والوحي . والبعث . ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية . تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التى تصل بين دين إبراهيم – عليه السلام – ودين محمد ﷺ وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال . وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم . وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع . وتلم بالهجرة فى سبيل الله ، وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله . . ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة:العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة . . وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها . فأما الإطار الذى تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذى تجرى فيه الأحداث ، فهو فسيح شامل . . هو السماوات والأرض . والماء الهاطل والشجر النامى . والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار . وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها ، والأخرى بأقدارها ومشاهدها . وهو الغيب بألوانه وأعماقه فى الأنفس والآفاق . فى هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير . حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار . ليست فى جلجلة الأنعام والرعد ، ولكنها فى هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة فى الكيان البشرى , وتتجه إلى العقل الواعى كما تتجه إلى الوجدان الحساس . إنها تخاطب العين لترى ، والأذن لتسمع ، واللمس ليستشعر ، والوجدان ليتأثر ، والعقل ليتدبر . وتحشد الكون كله:سماؤه وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكنانه نبته وثماره ، وحيوانه وطيوره . كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه . . كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التى لا يصمد لها فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت ، والحس المطموس . هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله فى الكون ، وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ، ومصارع الغابرين ؛ تصاحبها اللمسات الوجدانية التى تتدسس إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة فى البطون ، وهم فى الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم فى حالات الضعف والقوة ، وهم فى أحوال النعمة والنقمة . كذلك يتخذ الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح . فأما الظلال العميقة التى تلون جو السورة كله فهى الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير . . كلها متداخلة . . فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ، ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر ، لا تلبى ضروراتهم وحدها ، ولكن تلبى أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة . وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون . ومن ثم تتراءى فى السورة ظلال النعمة وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها ، والتعقيب بها فى مقاطع السورة ، وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج ، وأظهرها نموذج سيدنا إبراهيم عليه السلام (شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم). كل أولئك فى تناسق ملحوظ بين الصور والظلال والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نقف على نماذج منه فى أثناء استعراضنا للسياق .

ونبدأ الشوط الأول ، وموضوعه هو التوحيد ؛ وأدواته هى آيات الله فى الخلق ، وأياديه فى النعمة .

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{١} يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَ أَنَاْ فَاتَّقُونِ{٢} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{٣} خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{٤} وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{٥} وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ{٦} وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِ الأَنفُسِ إِنَ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٧} وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ

تَعْلَمُونَ{٨} وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ{٩} هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ{١٠} يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{١١} وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{١٢} وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ{١٣} وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{١٤} وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{١٥} وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ{١٦} أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ{١٧} وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١٨} وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{١٩} وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{٢٠} أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ){٢١}

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده:أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) لقد كان مشركوا مكة يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل بهم العذاب زادوا استعجالا ، وزادوا استهزاء ,وزادوا استهتارا ؛ وحسبوا أن محمدا يخوفهم ما لا وجود له ولا حقيقة ، ليؤمنوا له ويستسلموا . ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ؛ ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن . هذه الآيات التى تخاطب العقول والقلوب ,خيرا من خطابها بالعذاب ! والتى تليق بالإنسان الذى أكرمه الله بالعقل والشعور ,وحرية الإرادة والتفكير . وجاء مطلع السورة حاسما جازما (أتى أمر الله .) يوحى بصدور الأمر وتوجه الإرادة ; وهذا يكفى لتحققه فى الموعد الذى قدره الله لوقوعه (فلا تستعجلوه) فإن سنة الله تمضى وفق مشيئته ، لا يقدمها استعجال . ولا يؤخرها رجاء . فأمر الله بالعذاب أو بالساعة قد قضى وانتهى ، أما وقوعه ونفاذه فسيكون فى حينه المقدر ، لا يستقدم ساعة ولا يتأخر . وهذه الصيغة الحاسمة الجازمة ذات وقع فى النفس مهما تتماسك أو تكابر ، وذلك فوق مطابقتها لحقيقة الواقع ؛ فأمر الله لا بد واقع ، ومجرد قضائه يعد فى حكم نفاذه ، ويتحقق به وجوده ، فلا مبالغة فى الصيغة ولا مجانبة للحقيقة ، فى الوقت الذى تؤدى غايتها من التأثر العميق فى الشعور . فأما ما هم عليه من شرك بالله الواحد ، وتصورات مستمدة من هذا الشرك فقد تنزه الله عنه وتعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) بكل صوره وأشكاله ، الناشئة عن هبوط فى التصور والتفكير . أتى أمر الله المنزه عن الشرك المتعالى عما يشركون . الله الذى لا يدع الناس إلى ضلالهم وأوهامهم إنما هو ينزل عليهم من السماء ما يحييهم وينجيهم (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وهذا أولى نعمه وكبراها . فهو لا ينزل من السماء ماء يحيى الأرض والأجسام وحدها - كما سيجيء - إنما ينزل الملائكة بالروح من أمره . وللتعبير بالروح ظله ومعناه . فهو حياة ومبعث حياة ، حياة فى النفوس والضمائر والعقول والمشاعر . وحياة فى المجتمع تحفظه من الفساد والتحلل والانهيار . وهو أول ما ينزله الله من السماء للناس ، وأول النعم التى يمن الله بها على العباد . تنزل به الملائكة أطهر خلق الله على المختارين من عباده - الأنبياء - خلاصته وفحواه (أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) إنها الوحدانية فى الألوهية . روح العقيدة . وحياة النفس . ومفرق الطريق بين الاتجاه المحيى والاتجاه المدمر . فالنفس التى لا توحد المعبود نفس حائرة هالكة تتجاذبها السبل وتخايل لها الأوهام وتمزقها التصورات المتناقضة ، وتناوشها الوساوس , فلا تنطلق مجتمعة لهدف من الأهداف ! والتعبير بالروح يشمل هذه المعانى كلها ويشير إليها فى مطلع السورة المشتملة على شتى النعم ، فيصدر بها نعمه جميعا ؛ وهى النعمة الكبرى التى لا قيمة لغيرها بدونها ; ولا تحسن النفس البشرية الانتفاع بنعم الأرض كلها إن لم توهب نعمة العقيدة التى تحييها . ويفرد الإنذار ، فيجعله فحوى الوحى والرسالة ، لأن معظم سياق السورة يدور حول المكذبين والمشركين والجاحدين لنعمة الله ، والمحرمين ما أحله الله ، والناقضين لعهد الله ، والمرتدين عن الإيمان ومن ثم يكون إظهار الإنذار أليق فى هذا السياق . وتكون الدعوة إلى التقوى والحذر والخوف أولى فى هذا المقام . ثم يأخذ فى عرض الآيات . آيات الخلق الدالة على وحدانية الخالق ؛ وآيات النعمة الدالة على وحدانية المنعم ؛ يعرضها فوجا فوجا ، ومجموعة مجموعة . بادئا بخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان (خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) (خلق السماوات والأرض بالحق) الحق قوام خلقهما ، والحق قوام تدبيرهما ، والحق عنصر أصيل فى تصريفهما وتصريف من فيهما وما فيهما . فما شيء من ذلك كله عبث ولا جزاف . إنما كل شيء قائم على الحق ومتلبس به ومفض له وصائر فى النهاية إليه (تعالى عما يشركون) تعالى عن شركهم ، وتعالى عما يشركون به من خلق الله الذى خلق السماوات والأرض ، وخلق من فيهما وما فيهما ، فليس أحد وليس شيء شريكا له وهو الخالق الواحد بلا شريك .

(خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير . بين النطفة الساذجة والإنسان المخاصم المجادل الذى يخاصم خالقه فيكفر به ويجادل فى وجوده أو فى وحدانيته . وليس بين مبدئه من نطفة وصيرورته إلى الجدل والخصومة فارق ولا مهلة . فهكذا يصوره التعبير ، ويختصر المسافة بين المبدأ والمصير ، لتبدو المفارقة كاملة ، والنقلة بعيدة ، ويقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين:مشهد النطفة المهينة الساذجة ، ومشهد الإنسان الخصيم المبين . . وهو إيجاز مقصود فى التصوير . وفى هذا المجال الواسع – مجال الكون:السماوات والأرض – الذى يقف فيه الإنسان ، يأخذ السياق فى استعراض خلق الله الذى سخره للإنسان ، ويبدأ بالأنعام (والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون) وفى بيئة كالبيئة التى نزل فيها القرآن أول مرة ، وأشباهها كثير ؛ وفى كل بيئة زراعية والبيئات الزراعية هى الغالبة حتى اليوم فى العالم . . فى هذه البيئة تبرز نعمة الأنعام ، التى لا حياة بدونها لبنى الإنسان . والأنعام المتعارف عليها فى الجزيرة كانت هى الإبل والبقر والضأن والمعز . أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة ولا تؤكل والقرآن إذ يعرض هذه النعمة هنا ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر وتلبية لأشواقهم كذلك ، ففى الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، ومنافع فى هذه وفى اللبن واللحم وما إليها . ومنها تأكلون لحما ولبنا وسمنا ، وفى حمل الأثقال إلى البلد البعيد لا يبلغونه إلا بشق الأنفس . وفيها كذلك جمال عند الإراحة فى المساء وعند السرح فى الصباح . جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة . وأهل الريف يدركون هذا المعنى بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة . وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة وفى الركوب . وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة(لتركبوها وزينة) وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة . فالجمال عنصر أصيل فى هذه النظرة وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ; بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان (إن ربكم لرؤوف رحيم) يعقب بها على حمل الأثقال إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس توجيها إلى ما فى خلق الأنعام من نعمة (ويخلق ما لا تعلمون) يعقب بها على خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال ، وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة . ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة ، فلا يغلق تصورهم خارج حدود البيئة ، وخارج حدود الزمان الذى يظلهم . فوراء الموجود فى كل مكان وزمان صور أخرى ، يريد الله للناس أن يتوقعوها فيتسع تصورهم وإدراكهم ، ويريد لهم أن يأنسوا بها حين توجد أو حين تكشف فلا يعادوها ولا يجمدوا دون استخدامها والانتفاع بها . ولا يقولوا:إنما استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها . وإنما نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها ! إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومقدرات الحياة كلها ومن ثم يهيء القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل . استقباله بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة . ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان . وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان . والقرآن يهيىء لها القلوب والأذهان ، بلا جمود ولا تحجر (ويخلق ما لا تعلمون) وفى معرض النقل والحمل والركوب والسير لبلوغ غايات محسوسة فى عالم الأرض ، يدخل السياق غايات معنوية وسيرا معنويا وطرقا معنوية . فثمة الطريق إلى الله . وهو طريق قاصد مستقيم لا يلتوى ولا يتجاوز الغاية . وثمة طرق أخرى لا توصل ولا تهدى . فأما الطريق إلى الله فقد كتب على نفسه كشفها وبيانها:بآياته فى الكون وبرسله إلى الناس (وعلى الله قصد السبيل . ومنها جائر . ولو شاء لهداكم أجمعين) والسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذى لا يلتوى كأنه يقصد قصدا إلى غايته فلا يحيد عنها . والسبيل الجائر هو السبيل المنحرف المجاوز للغاية لا يوصل إليها ، أو لا يقف عندها ! (ولو شاء لهداكم أجمعين) ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعدا للهدى والضلال ، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . فكان منهم من يسلك السبيل القاصد ، ومنهم من يسلك السبيل الجائر . وكلاهما لا يخرج على مشيئة الله ، التى قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار .

والفوج الثانى من آيات الخلق والنعمة (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) والماء ينزل من السماء وفق النواميس التى خلقها الله فى هذا الكون ، والتى تدبر حركاته ، وتنشىء نتائجها وفق إرادة الخالق وتدبيره ، بقدر خاص من أقداره ينشىء كل حركة وكل نتيجة . هذا الماء

يذكر هنا نعمة من نعم الله (لكم منه شراب) فهى خصوصية الشراب التى تبرز فى هذا المجال ثم خصوصية المرعى (ومنه شجر فيه تسيمون) وهى المراعى التى تربون فيها السوائم . ذلك بمناسبة ذكر الأنعام قبلها وتنسيقا للجو العام بين المراعى والأنعام . ثم الزروع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فى تدبير الله لهذا الكون ، ونواميسه المواتية لحياة البشر ، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته ، موافقة لفطرته ، ملبية لحاجاته . وما هى بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان فى هذا الكوكب الأرضى ، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هى هذه النسب ، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هى عليه ، ممكنة للإنسان من الحياة ، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذى نراه . والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير ، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار ، وبين النواميس العليا للوجود ، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته ووحدانية تدبيره . أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية فى الصباح والمساء ، فى الصيف والشتاء ، فلا توقظ تطلعهم ، ولا تثير استطلاعهم ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد .

والفوج الثالث من أفواج الآيات (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ومن مظاهر التدبير فى الخلق ، وظواهر النعمة على البشر فى آن:الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . فكلها مما يلبى حاجة الإنسان فى الأرض . وهى لم تخلق له ولكنها مسخرة لمنفعته . فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم فى حياة هذا المخلوق البشرى . ومن شاء فليتصور نهارا بلا ليل أو ليلا بلا نهار ، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون . كذلك الشمس والقمر . وعلاقتهما بالحياة على الكوكب الأرضى ، وعلاقة الحياة بهما فى أصلها وفى نموها ، (والنجوم مسخرات بأمره)للإنسان ولغير الإنسان مما يعلم الله . وكل أولئك طرف من حكمة التدبير ، وتناسق النواميس فى الكون كله ، يدركه أصحاب العقول التى تتدبر وتعقل وتدرك ما وراء الظواهر من سنن وقوانين (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان (وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه . إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) وما خلق الله فى الأرض وما أودع فيها للبشر من مختلف المعادن التى تقوم بها حياتهم فى بعض الجهات وفى بعض الأزمان . ونظرة إلى هذه الذخائر المخبوءة فى الأرض ، المودعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوما بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم فى حينها ووقت الحاجة إليها . وكلما قيل:إن كنزا منها قد نفد أعقبه كنز آخر غنى ، من رزق الله المدخر للعباد . . (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) ولا ينسون أن يد القدرة هى التى خبأت لهم هذه الكنوز .

والفوج الخامس من أفواج الخلق والأنعام فى البحر الملح الذى لا يشرب ولا يسقى ، ولكنه يشتمل على صنوف من آلاء الله على الإنسان (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون) ونعمة البحر وأحيائه تلبى كذلك ضرورات الإنسان وأشواقه . فمنه اللحم الطرى من السمك وغيره للطعام . وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان ، وغيرهما من الأصداف والقواقع التى يتحلى بها أقوام ما يزالون حتى الآن . والتعبير كذلك عن الفلك يشى بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال: (وترى الفلك مواخر فيه) فهى لفتة إلى متاع الرؤية وروعتها رؤية الفلك (مواخر) تشق الماء وتفرق العباب . . ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام التوجيه القرآنى العالى إلى الجمال فى مظاهر الكون ، بجانب الضرورة والحاجة ، لنتملى هذا الجمال ونستمتع به ، ولا نحبس أنفسنا داخل حدود الضرورات والحاجات . كذلك يوجهنا السياق – أمام مشهد البحر والفلك تشق عبابه – إلى ابتغاء فضل الله ورزقه ، وإلى شكره على ما سخر من الطعام والزينة والجمال فى ذلك الملح الأجاج (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)

والفوج الأخير فى هذا المقطع من السورة (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون) فأما الجبال الرواسى فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التى يذكرها القرآن هنا . يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش ، فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه وتتجعد فتكون الجبال والمرتفعات والمنخفضات . ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض . وهذه الوظيفة لم يتعرض لها العلم الحديث . وفى مقابل الجبال

الرواسى يوجه النظر إلى الأنهار الجوارى ، والسبل السوالك . والأنهار ذات علاقة طبيعية في المشهد بالجبال ، ففي الجبال في الغالب تكون منابع الأنهار ; حيث مساقط الأمطار . والسبل ذات علاقة بالجبال والأنهار . وذات علاقة كذلك بجو الأنعام والأحمال والانتقال . وإلى جوار ذلك معالم الطرق التي يهتدى بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومنفرجات ، وفي السماء من النجم الذى يهدى السالكين فى البر والبحر سواء . وعندما ينتهي استعراض آيات الخلق ، وآيات النعمة ، وآيات التدبير في هذا المقطع من السورة يعقب السياق عليه بما سبق هذا الاستعراض من أجله . فقد ساقه فى صدد قضية التعريف بالله سبحانه وتوحيده وتنزيهه عما يشركون (أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) وهو تعقيب يجيء فى أوانه ، والنفس متهيئة للإقرار بمضمونه (أفمن يخلق كمن لا يخلق) فهل هنالك إلا جواب واحد:لا . وكلا:أفيجوز أن يسوى إنسان فى حسه وتقديره . . بين من يخلق ذلك الخلق كله ، ومن لا يخلق لا كبيرا ولا صغيرا ؟ (أفلا تذكرون) فما يحتاج الأمر إلى أكثر من التذكر ، فيتضح الأمر ويتجلى اليقين . ولقد استعرض ألوانا من النعمة . فهو يعقب عليها (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فضلا على أن تشكروها . وأكثر النعم لا يدريها الإنسان ، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها . . وهذا تركيب جسده ووظائفه متى يشعر بما فيه من إنعام إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال ؟ إنما يسعه غفران الله للتقصير ورحمته بالإنسان الضعيف (إن الله لغفور رحيم). . والخالق يعلم ما خلق . يعلم الخافى والظاهر:(والله يعلم ما تسرون وما تعلنون(فكيف يسوونه فى حسهم وتقديرهم بتلك الآلهة المدعاة وهم لا يخلقون شيئا ولا يعلمون شيئا ، بل إنهم لأموات غير قابلين للحياة على الإطلاق . ومن ثم فهم لا يشعرون (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) والإشارة هنا إلى البعث وموعده فيها تقرير أن الخالق لا بد أن يعلم موعد البعث . لأن البعث تكملة للخلق ، وعنده يستوفى الأحياء جزاءهم على ما قدموا . فالآلهة التي لا تعلم متى يبعث عبادها هي آلهة لا تستحق التأليه ، بل هى سخرية الساخرين . فالخالق يبعث مخاليقه ويعلم متى يبعثهم على التحقيق !

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ{٢٢} لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ{٢٣} وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ{٢٤} لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ{٢٥} قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ{٢٦} ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ{٢٧} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٢٨} فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{٢٩} وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ{٣٠} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ{٣١} الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٣٢} هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{٣٣} فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{٣٤} وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{٣٥} وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{٣٦} إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{٣٧} وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{٣٨} لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ{٣٩} إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{٤٠} وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{٤١} الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٤٢} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{٤٣} بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{٤٤} أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ{٤٥} أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ{٤٦} أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{٤٧} أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ

الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ{٤٨} وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{٤٩} يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ){٥٠}

نبدأ شوطا جديدا , يفتتح بتقرير وحدة الألوهية ، ويعلل عدم إيمان الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن قلوبهم منكرة ، فالجحود صفة كامنة فيها تصدهم عن الإقرار بالآيات البينات ، وهم مستكبرون , فالاستكبار يصدهم عن الإذعان والتسليم . . ويختم بمشهد مؤثر:مشهد الظلال فى الأرض كلها ساجدة لله ، ومعها ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة , قد برئت نفوسهم من الاستكبار ، وامتلأت بالخوف من الله ، والطاعة لأمره بلا جدال . . هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المنكرة قلوبهم فى مفتتح هذا الشوط الجديد . وبين المقطع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين عن الوحى والقرآن إذ يزعمون أنه أساطير الأولين . ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله ، إذ يدعون أن الله أراد منهم الشر وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة إذ يقسمون جهدهم لا يبعث الله من يموت . ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا . ويعرض فى ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرأون من تلك المقولات الباطلة ، كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ، ويخوفهم أخذ الله فى ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون ، وهم فى تقلبهم فى البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب . . وإلى جوار هذا ، يعرض صورا من مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء . وينتهى بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة فى الأرض والسماء (إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه لا يحب المستكبرين) ويجمع السياق بين الإيمان بوحدة الله والإيمان بالآخرة . بل يجعل إحداهما دالة على الأخرى لارتباط عبادة الله الواحد بعقيدة البعث والجزاء . فبالآخرة تتم حكمة الخالق الواحد ويتجلى عدله فى الجزاء (إلهكم إله واحد) وكل ما سبق فى السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدى إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة ، الواضحة الآثار فى نواميس الكون وتناسقها وتعاونها كما سلف الحديث . فالذين لا يسلمون بهذه الحقيقة ، ولا يؤمنون بالآخرة – وهى فرع عن الاعتقاد بوحدانية الخالق وحكمته وعدله – هؤلاء لا تنقصهم الآيات ولا تنقصهم البراهين ، إنما تكمن العلة فى كيانهم وفى طباعهم . إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات , وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول . فالعلة أصيلة والداء كامن فى الطباع والقلوب ! والله الذى خلقهم يعلم ذلك منهم . فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون . يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم (إنه لا يحب المستكبرين) فالقلب المستكبر لا يرجى له أن يقتنع أو يسلم . ومن ثم فهم مكرهون من الله لاستكبارهم الذى يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون (وإذا قيل لهم:ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا:أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون) هؤلاء المستكبرون ذوو القلوب المنكرة التى لا تقتنع ولا تستجيب إذا سئلوا (ماذا أنزل ربكم ؟) لم يجيبوا الجواب الطبيعى المباشر ، فيتلوا شيئا من القرآن أو يلخصوا فحواه , فيكونوا أمناء فى النقل ، ولو لم يعتقدوه . إنما هم يعدلون عن الجواب الأمين فيقولون (أساطير الأولين) والأساطير هى الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة . . وهكذا يصفون هذا القرآن الذى يعالج النفوس والعقول ، ويعالج أوضاع الحياة وسلوك الناس وعلاقات المجتمع وأحوال البشر فى الماضى والحاضر والمستقبل . هكذا يصفونه لما يحويه من قصص الأولين . وهكذا يؤدى بهم ذلك الإنكار والاستهتار إلى حمل ذنوبهم وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن القرآن والإيمان ، وهم جاهلون به لا يعلمون حقيقته . . ويصور التعبير هذه الذنوب أحمالا ذات ثقل – وساءت أحمالا وأثقالا – ! فهى توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهى تثقل القلوب , كما تثقل الأحمال العواتق ، وهى تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال حامليها بل هى أدهى وأنكى ! روى ابن أبى حاتم عن السدى قال:"اجتمعت قريش ، فقالوا:إن محمدا رجل حلو اللسان ، إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه . فخرج ناس فى كل طريق فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم , قال أحدهم:أنا فلان ابن فلان . فيعرفه نسبه ، ويقول له:أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، فقد كانت حرب دعاية منظمة يديرها قريش على الدعوة ، ويديرها أمثال قريش فى كل زمان ومكان من المستكبرين الذين لا يريدون الخضوع للحق والبرهان ، لأن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق والبرهان . فهؤلاء المستكبرون من قريش ليسوا أول من ينكر ، وليسوا أول من يمكر . والسياق يعرض عليهم نهاية الماكرين من قبلهم ، ومصيرهم يوم القيامة , بل مصيرهم منذ مفارقة أرواحهم لأجسادهم حتى يلقوا فى الآخرة جزاءهم . يعرض عليهم هذا كله فى مشاهد مصورة على طريقة القرآن المأثورة (قد مكر الذين من

قبلهم . فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ,وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول:أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟ قال الذين أوتوا العلم:إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين ,الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين) (قد مكر الذين من قبلهم) والتعبير يصور هذا المكر فى صورة بناء ذى قواعد وأركان وسقف إشارة إلى دقته وإحكامه ومتانته وضخامته . ولكن هذا كله لم يقف أمام قوة الله وتدبيره (فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم) وهو مشهد للتدمير الكامل الشامل ، يطبق عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالقواعد التى تحمل البناء تحطم وتهدم من أساسها ، والسقف يخر عليهم من فوقهم فيطبق عليهم ويدفنهم (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) فإذا البناء الذى بنوه وأحكموا واعتمدوا على الاحتماء فيه . إذا هو مقبرتهم التى تحتويهم ، ومهلكتهم التى تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم . وهو الذى اتخذوه للحماية ولم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته ! إنه مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ، ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ! وهو مشهد مكرر فى الزمان قبل قريش وبعدها . ودعوة الله ماضية فى طريقها مهما يمكر الماكرون ، ومهما يدبر المدبرون . وبين الحين والحين يتلفت الناس فيذكرون ذلك المشهد المؤثر الذى رسمه القرآن الكريم (فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم ,وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) هذا فى الدنيا ، وفى واقع الأرض (ثم يوم القيامة يخزيهم ، ويقول:أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟) ويرتسم مشهد من مشاهد القيامة يقف فيه هؤلاء المستكبرون الماكرون موقف الخزى ؛ وقد انتهى عهد الاستكبار والمكر . وجاءوا إلى صاحب الخلق والأمر ، يسألهم سؤال التبكيت والتأنيب (أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ؟) أين شركائى الذين كنتم تخاصمون من أجلهم الرس ول والمؤمنين ، وتجادلون فيهم المقرين الموحدين ؟ ويسكت القوم من خزى ، لتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم من الملائكة والرسل والمؤمنين وقد أذن الله لهم أن يكونوا فى هذا اليوم متكلمين ظاهرين (قال الذين أوتوا العلم:إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) فيعود السياق بهم خطوة قبل خطوة القيامة . يعود بهم إلى ساعة الاحتضار ، والملائكة تتوفاهم ظالمين لأنفسهم بما حرموها من الإيمان واليقين ، وبما أوردوها موارد الهلاك ، وبما قادوها فى النهاية إلى النار والعذاب . ويرسم مشهدهم فى ساعة الاحتضار ، وهم قريبو عهد بالأرض ، وما لهم فيها من كذب ومكر وكيد (فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء !) ألقوا السلم . هؤلاء المستكبرون . فإذا هم مستسلمون لا يهمون بنزاع أو خصام ، إنما يلقون السلم ويعرضون الاستسلام ! ثم يكذبون - ولعله طرف من مكرهم فى الدنيا - فيقولون مستسلمين (ما كنا نعمل من سوء)! وهو مشهد مخز وموقف مهين لأولئك المستكبرين ! ويجيئهم الجواب (بلى) من العليم بما كان منهم (إن الله عليم بما كنتم تعملون)فلا سبيل إلى الكذب والمغالطة والتمويه . ويجيئهم الجزاء جزاء المتكبرين (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فلبئس مثوى المتكبرين !) وعلى الجانب الآخر . . الذين اتقوا . يقابلون المتكبرين المستكبرين فى المبدأ والمصير (وقيل للذين اتقوا:ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا:خيرا . للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ,ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار , لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزى الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين , يقولون:سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) إن المتقين يدركون أن الخير هو قوام هذه الدعوة ، وقوام ما أنزل ربهم من أمر ونهى وتوجيه وتشريع . فيلخصون الأمر كله فى كلمة: قالوا:خيرا ثم يفصلون هذا الخير حسبما علموا مما أنزل الله (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) حياة حسنة ومتعة حسنة , ومكانة حسنة . (ولدار الآخرة خير) من هذه الدار الدنيا (ولنعم دار المتقين) ثم يفصل ما أجمل . عن هذه الدار . فإذا هى (جنات عدن)للإقامة (تجرى من تحتها الأنهار) رخاء (لهم فيها ما يشاءون) فلا حرمان ولا كد ، ولا حدود للرزق كما هى الحياة الدنيا (كذلك يجزى الله المتقين) ثم يعود السياق خطوة بالمتقين كما عاد من قبلهم خطوة بالمستكبرين . فإذا هم فى مشهد الاحتضار وهو مشهد هين لين كريم: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) طيبة نفوسهم بلقاء الله ، معافين من الكرب وعذاب الموت . (يقولون:سلام عليكم) طمأنة لقلوبهم وترحيبا بقدومهم (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)تعجيلا لهم بالبشرى ، وهم على عتاب الآخرة , جزاء وفاقا على ما كانوا يعملون . وفى ظل هذا المشهد بشقيه . مشهد الاحتضار ومشهد البعث . يعقب السياق بسؤال عن المشركين من قريش:ماذا ينتظرون ؟ أينتظرون الملائكة فتتوفاهم ؟ أم ينتظرون أمر الله فيبعثهم . وهذا ما ينتظرهم عند الوفاة ، وما ينتظرهم يوم يبعثهم الله ! أو ليس فى مصير المكذبين قبلهم وقد شهدوه ممثلا فى ذينك المشهدين عبرة وغناء (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك ؟ كذلك فعل الذين من قبلهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فأصابهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وعجيب أمر الناس . فإنهم يرون ما حل بمن قبلهم ممن يسلكون طريقهم

، ثم يظلون سادرين فى الطريق غير متصورين أن ما أصاب غيرهم يمكن أن يصيبهم ، وغير مدركين أن سنة الله تمضى وفق ناموس مرسوم ، وأن المقدمات تعطى دائما نتائجها ، وأن الأعمال تلقى دائما جزاءها ، وأن سنة الله لن تحابيهم ولن تتوقف إزاءهم ، ولن تحيد عن طريقهم (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)فقد آتاهم الله حرية التدبر والتفكر والاختيار , وعرض عليهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وحذرهم العاقبة ، ووكلهم إلى عملهم وإلى سنته الجارية . فما ظلمهم فى مصيرهم المحتوم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وما قسا عليهم فى عقوبة ، إنما قست عليهم سيئات أعمالهم ، لأنهم أصيبوا بها أى بنتائجها الطبيعية وجرائرها (فأصابهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) ولهذا التعبير وأمثاله دلالة فإنهم لا يعاقبون بشىء خارج عن ثمرة أعمالهم الذاتية . وإنهم ليصابون بجرائر سلوكهم التلقائية . وهم ينتكسون إلى أدنى من رتبة البشرية بما يعملون ، فيجازون بما هو أدنى من رتبة البشرية فى دركات المقام المهين , والعذاب الأليم (وقال الذين أشركوا:لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شىء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ?ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ؛ فمنهم من هدى الله , ومنهم من حقت عليه الضلالة . فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) إنهم يحيلون شركهم وعبادتهم آلهة من دون الله هم وآباؤهم ، وأوهام الوثنية التي يزاولونها من تحريمهم لبعض الذبائح وبعض الأطعمة على أنفسهم بغير شريعة من الله . . إنهم يحيلون هذا كله على إرادة الله ومشيئته . فلو شاء الله – فى زعمهم – ألا يفعلوا شيئا من هذا لمنعهم من فعله . وهذا وهم وخطأ فى فهم معنى المشيئة الإلهية . وتجريد للإنسان من أهم خصائصه التي وهبها له الله لاستخدامها فى الحياة . فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات . وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها فى شرائعه ، على ألسنة الرسل الذين كلفوا التبليغ وحده فقاموا به وأدوه: (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)فهذا أمره وهذه إرادته لعباده . والله – تعالى – لا يأمر الناس بأمر يعلم أنه منعهم خلقة من القدرة عليه ، أو دفعهم قسرا إلى مخالفته . وآية عدم رضاه عن مخالفة أمره هذا ما أخذ به المكذبين (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) إنما شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة فى اختيار أى الطريقين ؛ ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين , بعد ما بث فى الكون من آيات الهدى ما يلمس العين والأذن والحس والقلب والعقل حيثما اتجهت أناء الليل وأطراف النهار . . ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده ، فوضع لهذا العقل ميزانا ثابتا فى شرائعه التي جاءت بها رسله ، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذى لا تعصف به الأهواء . ولم يجعل الرسل جبارين يلوون أعناق الناس إلى الإيمان ، ولكن مبلغين ليس عليهم إلا البلاغ ، يأمرون بعبادة الله وحده واجتناب كل ما عداه من وثنية وهوى وشهوة وسلطان (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ففريق استجاب: (فمنهم من هدى الله) وفريق شرد فى طريق الضلال (ومنهم من حقت عليه الضلالة) وهذا الفريق وذلك كلاهما لم يخرج على مشيئة الله ، وكلاهما لم يقسره الله قسرا على هدى أو ضلال ، إنما سلك طريقه الذى شاءت إرادة الله أن تجعل إرادته حرة فى سلوكه ، بعد ما زودته بمعالم الطريق فى نفسه وفى الآفاق . كذلك ينفى القرآن الكريم بهذا النص وهم الإجبار الذى لوح به المشركون ، والذى يستند إليه كثير من العصاة والمنحرفين . والعقيدة الإسلامية عقيدة ناصعة واضحة فى هذه النقطة . فالله يأمر عباده بالخير وينهاهم عن الشر ، ويعاقب المذنبين أحيانا فى الدنيا عقوبات ظاهرة يتضح فيها غضبه عليهم . فلا مجال بعد هذا لأن يقال:إن إرادة الله تتدخل لترغمهم على الانحراف ثم يعاقبهم عليه الله ! إنما هم متروكون لاختيار طريقهم وهذه هى إرادة الله . وكل ما يصدر عنهم من خير أو شر . من هدى ومن ضلال . يتم وفق مشيئة الله على هذا المعنى الذى فصلناه . ومن ثم يعقب على هذا بخطاب إلى الرسول ﷺ يقرر سنة الله فى الهدى والضلال (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين) فليس الهدى أو الضلال بحرص الرسول على هدى القوم أو عدم حرصه ، فوظيفته البلاغ . أما الهدى أو الضلال فيمضى وفق سنة الله وهذه السنة لا تتخلف ولا تتغير عواقبها ، فمن أضله الله لأنه استحق الضلال وفق سنة الله ، فإن الله لايهديه ، لأن لله سننا تعطى نتائجها . وهكذا شاء . والله فعال لما يشاء (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من دون الله . ومقولة ثالثة من مقولات المنكرين المستكبرين (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى . وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له:كن . فيكون) ولقد كانت قضية البعث دائما هى مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله رسله للناس ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب . وهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ! فهم يقرون بوجود الله ولكنهم ينفون عنه بعث

الموتي من القبور . يرون هذا البعث أمرا عسيرا بعد الموت والبلي وتفرق الأشلاء والذرات ! وغفلوا عن معجزة الحياة الأولى . . وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية ، وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقاتهم . وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئا ؛ فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء ليكون . وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث . وهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه . فالناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر . وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه في هذه الأرض لأن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه الفاصل في هذه الديار . حتى يتم الجزاء في الآخرة ويبلغ كل أمر تمامه هناك . والسياق يرد على تلك المقولة الكافرة ، ويكشف ما يحيط بها في نفوس القوم من شبهات فيبدأ بالتقرير (بلى . وعدا عليه حقا) ومتى وعد الله فقد كان ما وعد به لا يتخلف بحال من الأحوال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)حقيقة وعد الله . وللأمر حكمته (ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) فيما ادعوا أنهم على الهدى ؛ وفيما زعموا من كذب الرسل ، ومن نفي الآخرة ؛ وفيما كانوا فيه من اعتقاد ومن فساد . والأمر بعد ذلك هين (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له:كن . فيكون) والبعث شيء من هذه الأشياء يتم حالما تتوجه إليه الإرادة دون إبطاء وهنا يعرض في الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين ، لمحة عن المؤمنين المصدقين ، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة على هجر الديار والأموال ، في الله ، وفي سبيل الله (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون ، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم . . هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا . وقد عانوا الظلم وفارقوه . فإذا كانوا قد خسروا الديار ف (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) و لنسكننهم خيرا مما فقدوا (ولأجر الآخرة أكبر)لو كان الناس يعلمون . هؤلاء (الذين صبروا) واحتملوا ما احتملوا (وعلى ربهم يتوكلون) لا يشركون به أحدا في الاعتماد والتوجه والتكلان . ثم يعود السياق إلى بيان وظيفة الرسل التي أشار عليها عند الرد على مقولة المشركين عن إرادة الله الشرك لهم ولآبائهم . يعود إليها لبيان وظيفة الرسول الأخير - صلوات الله وسلامه عليه - وما معه من الذكر الأخير . وذلك تمهيدا لإنذار المكذبين به ما يتهددهم من هذا التكذيب (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون . بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا . . لم نرسل ملائكة ، ولم نرسل خلقا آخر . رجالا مختارين (نوحي إليهم) كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك (فاسألوا أهل الذكر) أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل ، أكانوا رجالا أم كانوا ملائكة أم خلقا آخر . اسألوهم (إن كنتم لا تعلمون) أرسلناهم بالبينات وبالكتب [والزبر الكتب المتفرقة] (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا في كتابهم ، فجاء القرآن ليفصل في هذا الخلاف . وليبين لهم وجه الحق فيه . أو المعاصرون الذين جاءهم القرآن والرسول ﷺ يبينه لهم ويشرحه بفعله وقوله (ولعلهم يتفكرون) في آيات الله وآيات القرآن فإنه يدعو دائما إلى التفكر والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور . ويختم هذا الدرس الذي بدأه بالإشارة إلى الذين يستكبرون ويمكرون . . ينتهي بلمسة وجدانية بعد لمسة أولاهما للتخويف من مكر الله الذي لا يأمنه أحد في ساعة من ليل أو نهار . والثانية لمشاركة هذا الوجود في عبادة الله وتسبيحه . فليس إلا الإنسان هو الذي يستكبر ويمكر . وكل ما حوله يحمد ويسبح (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ؟ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ؟ أو يأخذهم على تخوف ؟ فإن ربكم لرؤوف رحيم) (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ؟) (ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون , يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون) وأعجب العجب في البشر أن يد الله تعمل من حولهم ، وتأخذ بعضهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا يغني عنهم مكرهم وتدبيرهم ، ولا تدفع عنهم قوتهم وعلمهم ومالهم . . وبعد ذلك يظل الذين يمكرون يمكرون ، ويظل الناجون آمنين لا يتوقعون أن يؤخذوا كما أخذ من قبلهم ومن حولهم ، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد الله في صحوهم أو في منامهم ، في غفلتهم أو في استيقاظهم والقرآن الكريم يلمس وجدانهم من هذا الجانب ليثير حساسيتهم للخطر المتوقع ، الذي لا يغفل عنه إلا الخاسرون (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) أو يأخذهم وهم يتقلبون في البلاد ، من بلد إلى بلد للتجارة والسياحة ، (فما هم بمعجزين(لله ، ولا يبعد عليه مكانهم في حل أو ترحال (أو يأخذهم على تخوف) فإن يقظتهم وتوقعهم لا يرد يد الله عنهم فهو قادر على أخذهم وهم متأهبون قدرته على أخذهم وهم لا يشعرون ؟ ولكن الله رؤوف رحيم . أفأمن الذين مكروا السيئات أن يأخذهم الله ؟ فهم لاجون في مكرهم سادرون في غيهم لا يثوبون ولا يتقون . ذلك والكون من حولهم بنواميسه وظواهره يوحي بالإيمان ، و يوحي بالخشوع (أولم يروا إلى ما خلق الله من

شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) ومشهد الظلال تمتد وتتراجع ، تثبت وتتمايل ، مشهد موح لمن يفتح قلبه ، ويوقظ حسه ، ويتجاوب مع الكون حوله . والسياق القرآنى يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود - وهو أقصى مظاهر الخضوع - ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة - أى الراجعة بعد امتداد - وهى حركة لطيفة خفية ذات دبيب فى المشاعر وئيد عميق . ويرسم المخلوقات داخرة أى خاضعة خاشعة طائعة . ويضم إليها ما فى السماوات وما فى الأرض مندابة . ويضيف إلى الحشد الكونى . . الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب . ومعهم الملائكة . فى مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود . لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره . والمنكرون المستكبرون من بنى الإنسان وحدهم شواذ فى هذا المقام العجيب . وبهذا المشهد يختم الدرس الذى بدأ بالإشارة إلى المنكرين المستكبرين ، ليفردهم فى النهاية بالإنكار والاستكبار فى مشهد الوجود .

(وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ{٥١} وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ{٥٢} وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ{٥٣} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{٥٤} لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{٥٥} وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ{٥٦} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ{٥٧} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{٥٨} يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ{٥٩} لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{٦٠} وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ{٦١} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ{٦٢} تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{٦٣} وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٦٤} وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{٦٥} وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِّلشَّارِبِينَ{٦٦} وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٦٧} وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ{٦٨} ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{٦٩} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ{٧٠} وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ{٧١} وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ{٧٢} وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ{٧٣} فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{٧٤} ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{٧٥} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ){٧٦}

هذا الشوط الثالث فى قضية الألوهية الواحدة التى لا تتعدد ، يبدأ فيقرر وحده الإله ، ووحدة المالك ، ووحدة المنعم فى الآيات الثلاث الأولى متواليات ، ويختم بمثلين يضربهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك لا يقدر على شىء ، ولا يملك شيئا . . هل يستوون ؟ فكيف يسوى الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؟ فيقال:هذا إله وهذا إله ؟! وفى خلال الدرس يعرض نموذجا بشريا للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده ، حتى إذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به غيره ! ويعرض كذلك صورا من أوهام الوثنية وخرافاتها . فى تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدعاة ، فى حين أنهم لا يردون شيئا مما يملكونه على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه ! وفى نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم:(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم)! وفى الوقت الذى يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق بأن لهم الحسنى ، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيرا ! وهذه الأوهام التى ورثوها من المشركين قبلهم هى التى جاءهم الرسول ﷺ ليبين لهم الحقيقة فيها هدى ورحمة للمؤمنين . ثم يأخذ فى عرض نماذج من صنع الألوهية الحقة فى تأملها عظة وعبرة فالله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهى هى دلائل الألوهية لا سواها:فالله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . والله يسقى الناس

– غير الماء – لبنا سائغا يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم . والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكرا ورزقا حسنا . والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون , ثم تخرج عسلا فيه شفاء للناس . ثم الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجا لا يعلم شيئا . والله فضل بعضهم على بعض فى الرزق . والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة . وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا فى السماوات والأرض ولا يقدرون على شىء . ويجعلون لله الأشباه والأمثال ! هذه اللمسات كلها فى أنفسهم وفيما حولهم ، يوجههم إليها لعلهم يستشعرون القدرة وهى تعمل فى ذواتهم وفى أرزاقهم وفى طعامهم وفى شرابهم ، وفى كل شىء حولهم . . ثم يختمها بالمثلين الواضحين الموضحين اللذين أشرنا إليهما آنفا . فهى حملة على الوجدان البشرى والعقل البشرى ، ذات إيقاعات عميقة ، تضرب على أوتار حساسة فى النفس البشرية يصعب ألا تهتز لها وتتأثر وتستجيب (وقال الله:لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد فإياى فارهبون . وله ما فى السماوات والأرض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون . وما بكم من نعمة فمن الله ؛ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشكرون , ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون) لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين . إنما هو إله واحد لا ثانى له . ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين ، ويتبع النهى بالقصر إنما هو إله واحد . ويعقب على النهى والقصر بقصر آخر (فإياى فارهبون) دون سواى بلا شبيه أو نظير . ويذكر الرهبة زيادة فى التحذير . . ذلك أنها القضية الأساسية فى العقيدة كلها ، لا تقوم إلا بها ، ولا توجد إلا بوجودها فى النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض . إنما هو إله واحد . . وإنما هو كذلك مالك واحد (وله ما فى السماوات والأرض) ودائن واحد (وله الدين واصبا)[أى واصلا منذ ما وجد الدين ، فلا دين إلا دينه] ومنعم واحد (وما بكم من نعمة فمن الله) وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق , وتنتفى عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه . وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه ؛ وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك . . ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق ! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم ، وبالهدى الذى آتاهم . . فلينظروا إذن ما يصيبهم بعد المتاع القصير(فتمتعوا فسوف تعلمون) هذا النموذج الذى يرسمه التعبير هنا (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشكرون) نموذج متكرر فى البشرية . ففى الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة إلا عاصم لها سواه . وفى الفرج تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو فى الشرك به وتبدو كذلك فى صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله ! ولقد يشتد انحراف الفطرة وفسادها ، فإذا بعضهم فى ساعة العسرة لا يلجأ إلى الله ; ولكن يلجأ إلى بعض مخاليقه يدعوها للنصرة والإنقاذ والنجاة ، بحجة أنها ذات جاه أو منزلة عند الله ، أو بغير هذه الحجة فى بعض الأحيان ، كالذين يدعون الأولياء لإنقاذهم من مرض أو شدة أو كرب . . فهؤلاء أشد انحرافا من مشركى الجاهلية الذين يرسم لهم القرآن ذلك النموذج الذى رأيناه ! (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) فإذا هم يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام . لا يركبونها أولا يذوقون لحومها . أو يبيحونها للذكور دون الإناث – كما أسلفنا فى سورة الأنعام – باسم الآلهة المدعاة ؛ التى لا يعلمون عنها شيئا ، إنما هى أوهام موروثة من الجاهلية الأولى . والله هو الذى رزقهم هذه النعمة التى يجعلون لما لا يعلمون نصيبا منها ، فليست هى من رزق الآلهة المدعاة لهم ليردوها عليها ، إنما هى من رزق الله ، الذى يدعوهم إلى توحيده فيشركون به سواه ! وهكذا تبدو المفارقة فى تصورهم وفى تصرفهم على السواء . . الرزق كله من الله . والله يأمر ألا يعبد سواه فهم يخالفون عن أمره فيتخذون الآلهة . وهم يأخذون من رزقه فيجعلونه لما نهاهم عنه ! وبهذا تتبدى المفارقة واضحة جاهرة عجيبة مستنكرة ! وما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت ، يجعلون نصيبا من رزق الله لهم موقوفا على ما يشبه آلهة الجاهلية . ما يزال بعضهم يطلق عجلا يسميه "عجل السيد البدوى "يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد ، ولا ينتفع به أحد ، حتى يذبح على اسم السيد البدوى لا على اسم الله ! وما يزال بعضهم ينذرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله ، ولا باسم الله ، ولكن باسم ذلك الولى ، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقهم الله . وهو حرام نذره على هذا الوجه . حرام لحمه . ولو سمى اسم الله عليه . لأنه أهل لغير الله به ! (تالله لتسألن عما كنتم تفترون) بالقسم والتوكيد الشديد . فهو افتراء يحطم العقيدة من أساسها لأنه يحطم فكرة التوحيد (ويجعلون لله البنات – سبحانه – ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون !) إن الانحراف فى العقيدة لا تقف آثاره عند حدود العقيدة ، بل يتمشى فى أوضاع الحياة الاجتماعية وتقاليدها .

فالعقيدة هى المحرك الأول للحياة ، سواء ظهرت أو كمنت . وهؤلاء عرب الجاهلية كانوا يزعمون أن لله بنات – هن الملائكة – على حين أنهم كانوا يكرهون لأنفسهم ولادة البنات ! فالبنات لله أما هم فيجعلون لأنفسهم ما يشتهون من الذكور ! وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة سول لهم وأد البنات أو الإبقاء عليهن فى الذل والهوان من المعاملة السيئة والنظرة الوضيعة . ذلك أنهم كانوا يخشون العار والفقر مع ولادة البنات . إذ البنات لا يقاتلن ولا يكسبن ؛ وقد يقعن فى السبى عند الغارات فيجلبن العار ؛ أو يعشن كلا على أهليهن فيجلبن الفقر . والعقيدة الصحيحة عصمة من هذا كله . إذ الرزق بيد الله يرزق الجميع ؛ ولا يصيب أحد إلا ما كتب له ؛ ثم إن الإنسان بجنسيه كريم على الله ، والأنثى – من حيث إنسانيتها – صنو الرجل وشطر نفسه كما يقرر الإسلام . ويرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) مسودا من الهم والحزن والضيق ، وهو كظيم ، يكظم غيظه وغمه ، كأنها بلية ، والأنثى هبة الله له كالذكر ، وما يملك أن يصور فى الرحم أنثى ولا ذكرا ، وما يملك أن ينفخ فيه حياة ، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنسانا سويا . وإن مجرد تصور الحياة نامية متطورة من نطفة إلى بشر – بإذن الله – ليكفى لاستقبال المولود – أيا كان جنسه – بالفرح والترحيب وحسن الاستقبال ، لمعجزة الله التى تتكرر ، فلا يبلى جدتها التكرار ! فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ويتوارى من القوم من سوء ما بشر به وهو لم يخلق ولم يصور . إنما كان أداة القدرة فى حدوث المعجزة الباهرة ؟ وحكمة الله ، وقاعدة الحياة ، اقتضت أن تنشأ الحياة من زوجين ذكر وأنثى . فالأنثى أصيلة فى نظام الحياة أصالة الذكر ؛ بل ربما كانت أشد أصالة لأنها المستقر . فكيف يغتم من يبشر بالأنثى ، وكيف يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ونظام الحياة لا يقوم إلا على وجود الزوجين دائما ؟ إنه انحراف العقيدة ينشىء آثاره فى انحراف المجتمع وتصوراته وتقاليده . . (ألا ساء ما يحكمون) وما أسوأه من حكم وتقدير . وهكذا تبدو قيمة العقيدة الإسلامية فى تصحيح التصورات والأوضاع الاجتماعية . وتتجلى النظرة الكريمة القويمة التى بثها فى النفوس والمجتمعات تجاه المرأة ، بل تجاه الإنسان . فما كانت المرأة هى المغبونة وحدها فى المجتمع الجاهلى الوثنى إنما كانت" الإنسانية " فى أخص معانيها . فالأنثى نفس إنسانية ، إهانتها إهانة للعنصر الإنسانى الكريم ، ووأدها قتل للنفس البشرية ، وإهدار لشطر الحياة ؛ ومصادمة لحكمة الخلق الأصيلة ، التى اقتضت أن يكون الأحياء جميعا – لا الإنسان وحده – من ذكر وأنثى . وكلما انحرفت المجتمعات عن العقيدة الصحيحة عادت تصورات الجاهلية تطل بقرونها . . وفى كثير من المجتمعات اليوم تعود تلك التصورات إلى الظهور . فالأنثى لا يرحب بمولدها كثير من الأوساط وكثير من الناس ، ولا تعامل معاملة الذكر من العناية والاحترام . وهذه وثنية جاهلية فى إحدى صورها ، نشأت من الانحراف الذى أصاب العقيدة الإسلامية . ومن عجب أن ينعق الناعقون بلمز العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية – فى مسألة المرأة , – نتيجة لما يرونه فى هذه المجتمعات المنحرفة ولا يكلف هؤلاء الناعقون اللامزون أنفسهم وأن يراجعوا نظرة الإسلام ، وما أحدثته من ثورة فى التطورات والأوضاع . وفى المشاعر والضمائر . وهى بعد نظرة علوية لم تنشئها ضرورة واقعية ولا دعوة أرضية ولا مقتضيات اجتماعية أو اقتصادية . إنما أنشأتها العقيدة الإلهية الصادرة عن الله الذى كرم الإنسان ، فاستتبع تكريمه للجنس البشرى تكريمه للأنثى ، ووصفها بأنها شطر النفس البشرية ، فلا تفاضل بين الشطرين الكريمين على الله . والفارق بين طبيعة النظرة الجاهلية والنظرة الإسلامية ، هو الفارق بين صفة الذين لا يؤمنون بالآخرة وصفة الله سبحانه – ولله المثل الأعلى (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء . ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم) وهنا تقترن قضية الشرك بقضية إنكار الآخرة ، لأنهما ينبعان من معين واحد وانحراف واحد . ويختلطان فى الضمير البشرى ، وينشئان آثارهما فى النفس والحياة والمجتمع والأوضاع . فإذا ضرب مثل للذين لا يؤمنون بالآخرة فهو مثل السوء . السوء المطلق فى كل شىء:فى الشعور والسلوك ، فى الاعتقاد والعمل . فى التصور والتعامل ، فى الأرض والسماء (ولله المثل الأعلى) الذى لا يقارن ولا يوازن بينه وبين أحد ، بله الذين لا يؤمنون بالآخرة هؤلاء . . (وهو العزيز الحكيم)ذو المنعة وذو الحكمة الذى يتحكم ليضع كل شىء موضعه ، ويحكم ليقر كل شىء فى مكانه بالحق والحكمة والصواب . وإنه لقادر أن يأخذ الناس بظلمهم الذى يقع منهم ولو فعل لدمرها عليهم تدميرا ؛ ولكن حكمته اقتضت أن يؤخرهم إلى أجل . وهو العزيز الحكيم (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى , فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) والله خلق هذا الخلق – البشرى – وأنعم عليه بآلائه . وهو وحده الذى يفسد فى الأرض ويظلم ، وينحرف عن الله ويشرك ؛ ويطغى بعضه على بعض ، ويؤذى سواه من الخلق . . والله بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به ، ويمهله وإن كان لا يهمله . فهى الحكمة تصاحب القوة ، وهى الرحمة تصاحب العدل . ولكن الناس يغترون بالإمهال ، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته ، حتى يأخذهم عدله وقوته . عند الأجل المسمى الذى ضربه الله لحكمة ، وأمهلهم إليه لرحمة (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وأعجب ما فى الأمر أن المشركين ، يجعلون لله ما يكرهون من البنات وغير البنات ، ثم

يزعمون كاذبين أن سينالهم الخير والإحسان جزاء على ما يجعلون ويزعمون ! والقرآن يقرر ما ينتظرهم وهو غير ما يزعمون (ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى . لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) والتعبير يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها . كما تقول قوامه يصف الرشاقة وعينه تصف الحور . لأن ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة مفصح عنها ، ولأن هذه العين بذاتها تعبير عن الحور مفصح عنه . كذلك قال:تصف ألسنتهم الكذب ، فهى بذاتها تعبير عن الكذب مفصح عنه مصور له ، لطول ما قالت الكذب وعبرت عنه حتى صارت رمزا عليه ودلالة له ! وقولهم:أن لهم الحسنى ، وهم يجعلون لله ما يكرهون هو ذلك الكذب الذى تصفه ألسنتهم أما الحقيقة التى يجبههم بها النص قبل أن تكمل الآية ، فهى أن لهم النار دون شك ولا ريب ، وعن استحقاق وجدارة (لا جرم أن لهم النار) وأنهم معجلون إليها غير مؤخرين عنها: (وأنهم مفرطون)والفرط هو ما يسبق ، والمفرط ما يقدم ليسبق فلا يؤجل . وبعد فإن القوم ليسوا أول من انحرف ، وليسوا أول من جدف ، فقد كان قبلهم منحرفون ومجدفون , أغواهم الشيطان ، وزين لهم ما انحرفوا إليه من تصورات وأعمال ، فصار وليهم الذى يشرف عليهم ويصرفهم ؛ وإنما أرسل الله رسوله ﷺ ليستنقذهم ، وليبين لهم الحق من الباطل ، ويفصل فيما وقع بينهم من خلاف فى عقائدهم وكتبهم ؛ وليكون هدى ورحمة لمن يؤمنون . (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم , ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هى الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم . . إذ الأصل هو التوحيد ، وكل ما طرأ على التوحيد من شبهات وكل ما شابه من شرك فى صورة من الصور ، ومن تشبيه وتمثيل . . كله باطل جاء القرآن الكريم ليجلوه وينفيه . وليكون هدى ورحمة لمن استعدت قلوبهم للإيمان وتفتحت لتلقيه . وعند هذا الحد يأخذ السياق فى استعراض آيات الألوهية الواحدة فيما خلق الله فى الكون , وفيما أودع الإنسان من صفات واستعدادات ، وفيما وهبه من نعم وآلاء ، مما لا يقدر عليه أحد إلا الله . وقد ذكر فى الآية السابقة إنزال الكتاب – وهو خير ما أنزل الله للناس وفيه حياة الروح – فهو يتبعه بإنزال الماء من السماء ، وفيه حياة الأجسام (والله أنزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) والماء حياة كل حى:والنص يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها . والذى يحول الموت إلى حياة هو الذى يستحق أن يكون إلها: إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون فيتدبرون ما يسمعون . فهذه القضية . قضية آيات الألوهية ودلائلها من الحياة بعد الموت ذكرها القرآن كثيرا ووجه الأنظار إليها كثيرا ، ففيها آية لمن يسمع ويعقل ويتدبر ما يقال . وعبرة أخرى فى الأنعام تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب (وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه – من بين فرث ودم – لبنا خالصا سائغا للشاربين) فهذا اللبن الذى تدره ضروع الأنعام مم هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم . والفرث ما يتبقى فى الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التى تتحول إلى دم . هذا الدم الذى يذهب إلى كل خلية فى الجسم ، فإذا صار إلى غدد اللبن فى الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب ، الذى لا يدرى أحد كيف يكون . وعملية تحول الخلاصات الغذائية فى الجسم إلى دم ، وتغذية كل خلية بالمواد التى تحتاج إليها من مواد هذا الدم ، عملية عجيبة فائقة العجب ، وهى تتم فى الجسم فى كل ثانية , كما تتم عمليات الاحتراق . وفى كل لحظة تتم فى هذا الجهاز الغريب عمليات هدم وبناء مستمرة لا تكف حتى تفارق الروح الجسد . . ولا يملك إنسان سوى الشعور أن يقف أمام هذه العمليات العجيبة لا تهتف كل ذرة فيه بتسبيح الخالق المبدع لهذا الجهاز الإنسانى ، الذى لا يقاس إليه أعقد جهاز من صنع البشر ، ولا إلى خلية واحدة من خلاياه التى لا تحصى . ووراء الوصف العام لعمليات الامتصاص والتحول والاحتراق تفصيلات تدير العقل ، وعمل الخلية الواحدة فى الجسم فى هذه العملية عجب لا ينقضى التأمل فيه . وقد بقى هذا كله سرا إلى عهد قريب . وهذه الحقيقة العلمية التى يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر ، وما كان بشر فى ذلك العهد ليتصورها فضلا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة . وما يملك إنسان يحترم عقله أن يمارى فى هذا أو يجادل . ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفى وحده لإثبات الوحى من الله بهذا القرآن . فالبشرية كلها كانت تجهل يومذاك هذه الحقيقة . والقرآن – يعبر هذه الحقائق العلمية البحتة – يحمل أدلة الوحى من الله فى خصائصه الأخرى لمن يدرك هذه الخصائص ويقدرها ؛ ولكن ورود حقيقة واحدة على هذا النحو الدقيق يفحم المجادلين المتعنتين (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) هذه الثمرات المنبثقة عن الحياة التى بثها الماء النازل من السماء . تتخذون منه سكرا] والسكر الخمر ولم تكن حرمت بعد [ورزقا حسنا . والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر وأن الخمر ليست رزقا حسنا ، وفى هذا توطئة لما جاء بعد من تحريمها , وإنما كان يصف الواقع فى ذلك الوقت من اتخاذهم الخمر من ثمرات النخيل والأعناب ، وليس فيه نص بحلها ، بل فيه توطئة

لتحريمها (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذى يستحق العبودية له وهو الله (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجرة ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق ، فهو لون من الوحى تعمل بمقتضاه . وهى تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء فى بناء خلاياها ، أو فى تقسيم العمل بينها ، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى . وهى تتخذ بيوتها – حسب فطرتها – فى الجبال والشجر وما يعرشون أى ما يرفعون من الكروم وغيرها – وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق . والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين فى الطب . شرحا فنيا . وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه . وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استنادا إلى الحق الكلى الثابت فى كتاب الله ؛ كما أثر عن رسول الله . روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:إن أخى استطلق بطنه ، فقال له رسول الله ﷺ" اسقه عسلا " فسقاه عسلا . ثم جاء فقال:يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال:" اذهب فاسقه عسلا " فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال:يا رسول الله ما زاده ذلك إلا استطلاقا . فقال رسول الل ه ﷺ " صدق الله وكذب بطن أخيك اذهب فاسقه عسلا " فذهب فسقاه عسلا فبرى ء . ويروعنا فى هذا الأثر يقين الرسول ﷺأمام ما بدا واقعا عمليا من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه . وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له فى النهاية . وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت فى كتاب الله . مهما بدا فى ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها . فهى أصدق من ذلك الواقع الظاهرى ، الذى ينثنى فى النهاية ليصدقها . .ونقف هنا أمام ظاهرة التناسق فى عرض هذه النعم:إنزال الماء من السماء . وإخراج اللبن من بين فرث ودم . واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب . والعسل من بطون النحل . . إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مخالفة لها فى شكلها . ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام لبنها وحده فى هذا المجال تنسيقا لمفردات المشهد كله . وسنرى فى الدرس التالى أنه عرض من الأنعام جلودها وأصوافها وأوبارها لأن الجو هناك جو أكنان وبيوت وسرابيل فناسب أن يعرض من الأنعام جانبها الذى يتناسق مع مفردات المشهد . . وذلك أفق من آفاق التناسق الفنى فى القرآن ، ومن الأنعام والأشجار والثمار والنحل والعسل إلى لمسة أقرب إلى أعماق النفس البشرية , لأنها فى صميم ذواتهم:فى أعمارهم وأرزاقهم وأزواجهم وبنيهم وأحفادهم . فهم أشد حساسية بها ، وأعمق تأثرا واستجابة لها (والله خلقكم ثم يتوفاكم ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا , إن الله عليم قدير) (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء . أفبنعمة الله يجحدون) (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون ؟) واللمسة الأولى فى الحياة والوفاة ، وهى متصلة بكل فرد وبكل نفس ؛ والحياة حبيبة , والتفكر فى أمرها قد يرد القلب الصلد إلى شىء من اللين ، وإلى شىء من الحساسية بيد الله ونعمته وقدرته . والخوف عليها قد يستجيش وجدان التقوى والحذر والالتجاء إلى واهب الحياة . وصورة الشيخوخة حين يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، فينسى ما كان قد تعلم ، ويرتد إلى مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة . هذه الصورة قد ترد النفس إلى شىء من التأمل فى أطوار الحياة ، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته . ويجىء التعقيب (إن الله عليم قدير) ليرد النفس إلى هذه الحقيقة الكبيرة . أن العلم الشامل الأزلى الدائم لله ، وأن القدرة الكاملة التى لا تتأثر بالزمن هى قدرة الله . وأن علم الإنسان إلى حين ، وقدرته إلى أجل ، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان . واللمسة الثانية فى الرزق . والتفاوت فيه ملحوظ . والنص يرد هذا التفاوت إلى تفضيل الله لبعضهم على بعض فى الرزق . ولهذا التفضيل فى الرزق أسبابه الخاضعة لسنة الله . فليس شىء من ذلك جزافا ولا عبثا . وقد يكون الإنسان مفكرا عالما عاقلا ، ولكن موهبته فى الحصول على الرزق وتنميته محدودة ، لأن له مواهب فى ميادين أخرى . وقد يبدو غبيا جاهلا ساذجا ، ولكن له موهبة فى الحصول على المال وتنميته . والناس مواهب وطاقات . فيحسب من لا يدقق أن لا علاقة للرزق بالمقدرة ، وإنما هى مقدرة خاصة فى جانب من جوانب الحياة . وقد تكون بسطة الرزق ابتلاء من الله ، كما يكون التضييق فيه لحكمة يريدها ويحققها بالابتلاء . . وعلى أية حال فإن التفاوت فى الرزق ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف فى المواهب – وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التى توجد فى المجتمعات المختلة – والنص يشير إلى هذه الظاهرة التى كانت واقعة فى المجتمع العربى ؛ ويستخدمها فى تصحيح بعض أوهام الجاهلية الوثنية التى يزاولونها , والتى سبقت الإشارة إليها . ذلك حين كانوا يعزلون جزءا من رزق الله الذى أعطاهم ويجعلونه لآلهتهم المدعاة . فهو يقول عنهم هنا:إنهم لا يردون جزءا من أموالهم على ما ملكت أيمانهم من الرقيق . [وكان

هذا أمرا واقعا قبل الإسلام] ليصبحوا سواء فى الرزق . فما بالهم يردون جزءا من مال الله الذى رزقهم إياه على آلهتهم المدعاة ؟ (أفبنعمة الله يجحدون ؟) فيجازون النعمة بالشرك ، بدل الشكر للمنعم المتفضل الوهاب ؟ . واللمسة الثالثة فى الأنفس والأزواج والأبناء والأحفاد وتبدأ بتقرير الصلة الحية بين الجنسين (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) فهن من أنفسكم ، شطر منكم ، لا جنس أحط يتوارى من يبشر به ويحزن ! (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) والإنسان الفانى يحس الامتداد فى الأبناء والحفدة ، ولمس هذا الجانب فى النفس يثير أشد الحساسية . . ويضم إلى هبة الأبناء والأحفاد هبة الطيبات من الرزق للمشاكلة بين الرزقين ليعقب عليها بسؤال استنكارى: (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟)فيشركون به ويخالفون عن أمره . وهذه النعم كلها من عطائه . وهى آيات على ألوهيته وهى واقعة فى حياتهم , تلابسهم فى كل آن . .أفبالباطل يؤمنون ؟ وما عدا الله باطل ، وهذه الآلهة المدعاة ، والأوهام المدعاة كلها باطل لا وجود له ، ولا حق فيه . وبنعمة الله هم يكفرون ، وهى حق يلمسونه ويحسونه ويتمتعون به ثم يجحدونه (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقا وما هو بقادر فى يوم من الأيام ، ولا فى حال من الأحوال . ويدعون الله الخالق الرازق ، والآلوه بين أيديهم لا يملكون إنكارها ، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال ! (فلا تضربوا لله الأمثال . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) إنه ليس لله مثال ، حتى تضربوا له الأمثال . ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق وللمملوك العاجز الذى لا يملك ولا يكسب . لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها . حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا فى العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا . هل يستوون ؟ الحمد لله . بل أكثرهم لا يعلمون) (وضرب الله مثلا رجلين:أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟) والمثل الأول مأخوذ من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون ، لا يملكون شيئا ولا يقدرون على شىء . وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف . فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شىء مما خلق . وكل مخلوقاته له عبيد ؟ والمثل الثانى يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذى لا يدرى شيئا ولا يعود بخير . والرجل القوى المتكلم الآمر بالعدل ، العامل المستقيم على طريق الخير . . ولا يسوى عاقل بين هذا وذاك . فكيف تمكن التسوية بين ضم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادى إلى الصراط المستقيم ؟ وبهذين المثلين يختم الشوط الذى بدأ بأمر الله للناس ألا يتخذوا إلهين اثنين ، وختم بالتعجيب من أمر قوم يتخذون إلهين اثنين !

(وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{٧٧} وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{٧٨} أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٧٩} وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ{٨٠} وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ{٨١} فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{٨٢} يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ{٨٣} وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ{٨٤} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{٨٥} وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ{٨٦} وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{٨٧} الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ{٨٨} وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ){٨٩}

يستمر السياق فى هذا الدرس فى استعراض دلائل الألوهية الواحدة التى يتكى ء عليها فى هذه السورة:عظمة الخلق ، وفيض النعمة وإحاطة العلم . غير أنه يركز فى هذا الشوط على قضية البعث . والساعة أحد أسرار الغيب الذى يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا . وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله فى السماوات والأرض ، وفى الأنفس والآفاق . غيب الساعة . التى لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهى عليه هينة (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وغيب الأرحام والله وحده هو الذى يخرج الأجنة من هذا الغيب . لا تعلم شيئا ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة

لعلهم يشكرون نعمته . . وغيب أسرار الخلق يعرض منها تسخير الطير في جو السماء ما يمسكهن إلا الله . يلى هذا في الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهي بجانب تلك الأسرار وفى جوها ، نعم السكن والهدوء والاستظلال . في البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار . وهى كذلك الضلال والأكنان والسرابيل تقى الحر وتقى البأس فى الحرب (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ثم تفصيل لأمر البعث فى مشاهد يعرض فيها المشركين وشركاءهم ، والرسل شهداء عليهم . والرسول ﷺ شهيدا على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة في جو البعث والقيامة (ولله غيب السماوات والأرض . وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير) وقضية البعث إحدى قضايا العقيدة التي لقيت جدلا شديدا فى كل عصر ، ومع كل رسول . وهي غيب من غيب الله الذى يختص بعلمه . (ولله غيب السماوات والأرض) وإن البشر ليقفون أمام أستار الغيب عاجزين قاصرين ، مهما يبلغ علمهم الأرضى ، ومهما تتفتح لهم كنوز الأرض وقواها المذخورة . وإن أعلم العلماء من بنى البشر ليقف مكانه لا يدرى ماذا سيكون اللحظة التالية فى ذات نفسه . أيرتد نفسه الذى خرج أم يذهب فلا يعود ! وتذهب الآمال بالإنسان كل مذهب ، وقدره كامن خلف ستار الغيب لا يدرى متى يفجؤه ، وقد يفجؤه اللحظة . وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا ، ويخلفوا وراءهم ما بدؤوه يتمه الخلف حتي يأتيهم ما خبى ء لهم خلف الستار الرهيب . والساعة من هذا الغيب المستور . ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة ، أو اختلت , ولما سارت الحياة وفق الخط الذى رسمته لها القدرة ، والناس يعدون السنين والأيام والشهور والساعات واللحظات لليوم الموعود ! (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) فهى قريب ولكن في حساب غير حساب البشر المعلوم . وتدبير أمرها لا يحتاج إلى وقت . طرفة عين . فإذا هى حاضرة مهيأة بكل أسبابها (إن الله على كل شيء قدير) وبعث هذه الحشود التي يخطئها الحصر والعد من الخلق ، وانتفاضها ، وجمعها ، وحسابها , وجزاؤها . . كله هين على تلك القدرة التى تقول للشيء:كن . فيكون . إنما يستهول الأمر ويستصعبه من يحسبون بحساب البشر ، وينظرون بعين البشر ، ويقيسون بمقاييس البشر . . ومن هنا يخطئون التصور والتقدير ! ويقرب القرآن الأمر بعرض مثل صغير من حياة البشر ، تعجز عنه قواهم ويعجز عنه تصورهم , وهو يقع فى كل لحظة من ليل أو نهار (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) وهو غيب قريب ، ولكنه موغل بعيد . وأطوار الجنين قد يراها الناس ، ولكنهم لا يعلمون كيف تتم ، لأن سرها هو سر الحياة المكنون . والعلم الذى يدعيه الإنسان ويتطاول به ويريد أن يختبر به أمر الساعة وأمر الغيب ، علم حادث مكسوب (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) ومولد كل عالم وكل باحث ، ومخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا قريب قريب ! وما كسبه بعد ذلك من علم هبة من الله بالقدر الذى أراده للبشر , وجعل فيه كفاية حياتهم على هذا الكوكب ، فى المحيط المكشوف لهم من هذا الوجود (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) والقرآن يعبر بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية ؛ وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل ، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل . جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة (لعلكم تشكرون) حين تدركون قيمة النعمة فى هذه وفي سواها من آلاء الله عليكم . وأول الشكر:الإيمان بالله الواحد المعبود . وعجيبة أخرى من آثار القدرة الإلهية يرونها فلا يتدبرونها وهى مشهد عجيب معروض للعيون (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) ومشهد الطير مسخرات فى جو السماء مشهد مكرور ، قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب ، وما يتلفت القلب البشرى عليه إلا حين يستيقظ ، ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب . وإن تحليقة طائر في جو السماء لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيدة حين تلمسه . فينتفض للمشهد القديم الجديد (ما يمسكهن إلا الله) بنواميسه التي أودعها فطرة الطير وفطرة الكون من حولها ، وجعل الطير قادرة على الطيران ، وجعل الجو من حولها مناسبا لهذا الطيران ؛ وأمسك بها الطير وهى فى جو السماء: إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . . فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين ، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر وتستجيش الضمائر . وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق ، بالإيمان والعبادة والتسبيح ؛ والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير ، قادرون على إبداع ألوان من رائع القول فى بدائع الخلق والتكوين ، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضيء . ويخطو السياق خطوة أخرى فى أسرار الخلق وآثار القدرة ومظاهر النعمة ، يدخل بها إلى بيوت القوم وما يسر لهم فيها وحولها من سكن ومتاع وأكنان وظلال ! (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا ؛ وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم . كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون). والسكن والطمأنينة فى البيوت نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة . وذكرها فى

السياق يجيء بعد الحديث عن الغيب ، وظل السكن ليس غريبا عن ظل الغيب ، فكلاهما فيه خفاء وستر . والتذكير بالسكن يمس المشاعر الغافلة عن قيمة هذه النعمة . ونستطرد هنا إلى شيء عن نظرة الإسلام إلى البيت ، بمناسبة هذا التعبير الموحى (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) فهكذا يريد الإسلام البيت مكانا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعورى . هكذا يريده مريحا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة ، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض ، ويسكن من فيه كل إلى الآخر . فليس البيت مكانا للنزاع والشقاق والخصام ، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام . ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه . فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد - بغير حق - باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب ، ولا يتجسس أحد على أهله فى غفلة منهم أو غيبة ، فيروع أمنهم ، ويخل بالسكن الذى يريده الإسلام للبيوت ، ويعبر عنه ذلك التعبير الجميل العميق ! ولأن المشهد مشهد بيوت وأكنان وسرابيل ، فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذى يتناسق مع مفردات المشهد (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وهو هنا كذلك يستعرض من نعمة الأنعام ما يلبى الضرورات ومايلبى الأشواق ، فيذكر المتاع ، إلى جانب الأثاث . والمتاع ولو أنه يطلق على ما فى الأرحال من فرش وأغطية وأدوات ، إلا أنه يشى بالتمتع والارتياح . ويرق التعبير فى جو السكن والطمأنينة ، وهو يشير إلى الظلال والأكنان فى الجبال ، وإلى السرابيل تقى فى الحر وتقى فى الحرب (والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكنانا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) وللنفس فى الظلال استرواح وسكن ، ولها فى الأكنان طمأنينة ووسن ، ولها فى السرابيل التى تقى الحر من الأردية والأغطية راحة وفى السرابيل التى تقى البأس من الدروع وغيرها وقاية . . وكلها بسبيل من طمأنينة البيوت وأمنها وراحتها وظلها . . ومن ثم يجيء التعقيب (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) والإسلام استسلام وسكن وركون . وهكذا تتناسق ظلال المشهد كله على طريقة القرآن فى التصوير . فإن أسلموا فبها . وإن تولوا وشردوا فما على الرسول إلا البلاغ . وليكونن إذا جاحدين منكرين ، بعد ما عرفوا نعمة الله التى لا تقبل النكران ! (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون) ثم يعرض ما ينتظر الكافرين عندما تأتى الساعة التى ذكرت فى مطلع الحديث (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ، ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون . وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا:ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك . فألقوا إليهم القول:إنكم لكاذبون . وألقوا إلى الله يومئذ السلم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) والمشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم فى الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم فى حجة ولا استشفاع ولا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بعمل أو قول ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب (وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم فى ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله . فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون ! (ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) فاليوم يقرون (ربنا) واليوم لا يقولون عن هؤلاء إنهم شركاء لله . إنما يقولون (هؤلاء شركاؤنا) ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل ، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب فى تقرير وتوكيد (فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) ويتجهون إلى الله مستسلمين خاضعين (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئا يعتمدون عليه فى موقفهم العصيب (وضل عنهم ما كانوا يفترون) وينتهى الموقف بتقرير مضاعفة العذاب للذين كفروا وحملوا غيرهم على الكفر وصدوهم عن سبيل الله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) فالكفر فساد ، والتكفير فساد ، وقد ارتكبوا جريمة كفرهم ، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاء وفاقا . ذلك شأن عام مع جميع الأقوام . ثم يخصص السياق موقفا خاصا للرسول ﷺ مع قومه (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وفى ظل المشهد المعروض للمشركين ، والموقف العصيب الذى يكذب الشركاء فيه شركاءهم ، ويستسلمون لله متبرئين من دعوى عبادهم الضالين ، يبرز السياق شأن الرسول مع مشركى قريش يوم يبعث من كل أمة شهيد . فتجيء هذه اللمسة فى وقتها وفوتها: (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء). . ثم يذكر أن فى الكتاب الذى نزل على الرسول (تبيانا لكل شيء) فلا حجة بعده لمحتج ، ولا عذر معه لمعتذر . (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) فمن شاء الهدى والرحمة فليسلم قبل أن يأتى اليوم المرهوب ، فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون . وهكذا تجيء مشاهد القيامة فى القرآن لأداء غرض فى السياق ، تتناسق مع جوه وتؤديه .

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{٩٠} وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ{٩١} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{٩٢} وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٩٣} وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{٩٤} وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{٩٥} مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٩٦} مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{٩٧} فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{٩٨} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{٩٩} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{١٠٠} وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{١٠١} قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{١٠٢} وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ{١٠٣} إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{١٠٤} إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ{١٠٥} مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{١٠٦} ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{١٠٧} أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ{١٠٨} لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ{١٠٩} ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١١٠} يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ){١١١}

في هذا الدرس بيان لبعض ما في الكتاب من التبيان والهدى والرحمة والبشرى . فيه الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ,والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وفيه الأمر بالوفاء بالعهد والنهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها . . وكلها من مبادىء السلوك الأساسية التى جاء بها هذا الكتاب . وفيه بيان الجزاء المقرر لنقض العهد واتخاذ الإيمان للخداع والتضليل ، وهو العذاب العظيم . والبشرى للذين صبروا وتوفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . ثم يذكر بعض آداب قراءة هذا الكتاب . وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم . كما يذكر بعض تقولات المشركين عن هذا الكتاب . فمنهم من يرمي الرسول ﷺ بافترائه على الله . ومنهم من يقول إن غلاما أعجميا هو الذى يعلمه هذا القرآن ! وفى نهاية الدرس يبين جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ,ومن فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . . وكل أولئك تبيان ،وهدى ورحمة وبشرى للمسليمن (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء ، ولتسألن عما كنتم تعملون) لقد جاء هذا الكتاب لينشىء أمة وينظم مجتمعا ، ثم لينشىء عالما ويقيم نظاما . جاء داء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ؛ إنما العقيدة وحدها هى الآصرة والرابطة والقومية والعصبية . ومن ثم جاء بالمبادىء التى تكفل تماسك الجماعة والجماعات ، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب ، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود . جاء (بالعدل) الذى يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، لا تميل مع الهوى ، ولا تتأثر بالود والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، والغنى والفقير ,والقوة والضعف . إنما تمضى فى طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع ، وتزن بميزان واحد للجميع . وإلى جوار العدل (الإحسان) يلطف من حدة العمل الصارم الجازم ، ويدع الباب مفتوحا لمن يريد أن يتسامح فى بعض حقه إيثارا لود القلوب ، وشفاء لغل الصدور . ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوى جرحا أو يكسب فضلا . والإحسان أوسع مدلولا ، فكل عمل طيب إحسان ، والأمر بالإحسان يشمل كل عمل وكل تعامل ,فيشمل محيط الحياة كلها فى علاقات العبد بربه ، وعلاقاته بأسرته ، وعلاقاته بالجماعة , وعلاقاته بالبشرية جميعا . ومن الإحسان (إيتاء ذى القربى) إنما يبرز الأمر به تعظيما لشأنه ، وتوكيدا عليه . وما يبنى هذا على عصبية الأسرة ، إنما يبنيه على مبدأ التكافل الذى يتدرج به الإسلام من المحيط المحلى إلى المحيط العام . وفق

نظريته التنظيمية لهذا التكافل . (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) والفحشاء كل أمر يفحش أى يتجاوز الحد . ومنه ما خصص به غالبا وهو فاحشة الاعتداء على العرض ، لأنه فعل فاحش فيه اعتداء وفيه تجاوز للحد حتى ليدل على الفحشاء ويختص بها . والمنكر كل فعل تنكره الفطرة ومن ثم تنكره الشريعة فهى شريعة الفطرة . وقد تنحرف الفطرة أحيانا فتبقى الشريعة ثابتة تشير إلى أصل الفطرة قبل انحرافها . والبغى الظلم وتجاوز الحق والعدل وما من مجتمع يمكن أن يقوم على الفحشاء والمنكر والبغى . ما من مجتمع تشيع فيه الفاحشة بكل مدلولاتها ، والمنكر بكل مغرراته ، والبغى بكل معقباته ، ثم يقوم . والفطرة البشرية تنتفض بعد فترة معينة ضد هذه العوامل الهدامة ، مهما تبلغ قوتها , ومهما يستخدم الطغاة من الوسائل لحمايتها . وتاريخ البشرية كله انتفاضات وانتفاضات ضد الفحشاء والمنكر والبغى . فلا يهم أن تقوم عهود وأن تقوم دول عليها حينا من الدهر ، فالانتفاض عليها دليل على أنها عناصر غريبة على جسم الحياة ، فهى تنتفض لطردها ، كما ينتفض الحى ضد أى جسم غريب يدخل إليه . وأمر الله بالعدل والإحسان ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغى يوافق الفطرة السليمة الصحيحة ، ويقويها ويدفعها للمقاومة باسم الله . لذلك يجىء التعقيب (يعظكم لعلكم تذكرون) فهى عظة للتذكر وتذكر وحى الفطرة الأصيل القويم (وأفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون) والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله . والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة فى التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ، ولا تقوم إنسانية . والنص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلا عليهم ، وأشهدوه عهدهم ، وجعلوه كافلا للوفاء بها . ثم يهددهم تهديدا خفيا (إن الله يعلم ما تفعلون) وقد تشدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبدا ، لأنها قاعدة الثقة التى ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم ، والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهى عن النقض إنما تستطرد لضرب الأمثال ، وتقبيح نكث العهد ، ونفى الأسباب التى قد يتخذها بعضهم مبررات (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة . إنما يبلوكم الله به . وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فمثل من ينقض العهد مثل امرأة حمقاء ملتاثة ضعيفة العزم والرأى ، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة ومحلولة ! وكل جزيئة من جزئيات التشبيه تشى بالتحقير والترذيل والتعجيب . وتشوه الأمر فى النفوس وتقبحه فى القلوب . وهو المقصود . وما يرضى إنسان كريم لنفسه أن يكون مثله كمثل هذه المرأة الضعيفة الإرادة الملتاثة العقل ، التى تقضى حياتها فيما لا غناء فيه ! وكان بعضهم يبرر لنفسه نقض عهده مع الرسول ﷺ بأن محمدا ومن معه قلة ضعيفة ، بينما قريش كثرة قوية . فنبههم إلى أن هذا ليس مبررا لأن يتخذوا أقسامهم غشا وخديعة فيتخلوا عنها (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى بسبب كون أمة أكثر عددا وقوة من أمة . وطلبا للمصلحة مع الأمة الأربى . ويدخل فى مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقا لما يسمى الآن "مصلحة الدولة " فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول ، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى فى الصف الآخر ، تحقيقا لمصلحة الدولة ! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر ، ويجزم بالوفاء بالعهد ,وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل . ذلك فى مقابل أنه لا يقر تعاهدا ولا تعاونا على غير البر والتقوى . ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان , وأكل حقوق الناس ، واستغلال الدول والشعوب . . وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة فى المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية إلى الإسلام . والنص هنا يحذر من مثل ذلك المبرر ، وينبه إلى أن قيام مثل هذه الحالة (أن تكون أمة هى أربى من أمة) هو ابتلاء من الله لهم ليمتحن إرادتهم ووفاءهم وكرامتهم على أنفسهم وتحرجهم من نقض العهد الذى أشهدوا الله عليه (إنما يبلوكم الله به) ثم يكل أمر الخلافات التى تنشب بين الجماعات والأقوام إلى الله فى يوم القيامة للفصل فيه: (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) يمهد بهذا لترضية النفوس بالوفاء بالعهد حتى لمخالفيهم فى الرأى والعقيدة (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون) ولو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، ولكنه خلقهم باستعدادات متفاوتة ، نسخا غير مكررة ولا معادة ,وجعل نواميس للهدى والضلال ، تمضى بها مشيئته فى الناس . وكل مسؤول عما يعمل . فلا يكون الاختلاف فى العقيدة سببا فى نقض العهود . فالاختلاف له أسبابه المتعلقة بمشيئة الله . والعهد مكفول مهما اختلفت المعتقدات . وهذه قمة فى نظافة التعامل ، والسماحة الدينية ، لم يحققها فى واقع الحياة إلا الإسلام فى ظل هذا القرآن . ويمضى السياق فى توكيده للوفاء بالعهود ، ونهيه عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة , وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانية . ويحذرعاقبة ذلك فى زعزعة قوائم الحياة النفسية والاجتماعية ، وزلزلة العقائد والارتباطات والمعاملات . وينذر بالعذاب العظيم فى الآخرة ، ويلوح بما عند الله من عوض عما يفوتهم بالوفاء من منافع هزيلة ، وينوه

بفناء ما بأيديهم وبقاء ما عند الله الذى لا تنفد خزائنه ، ولا ينقطع رزقه (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا . إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون . ما عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)واتخاذ الأيمان غشا وخداعا يزعزع العقيدة فى الضمير ، ويشوه صورتها فى ضمائر الآخرين . فالذى يقسم وهو يعلم أنه خادع فى قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ، ولا أن تثبت له قدم على صراطها . وهو فى الوقت ذاته يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل ؛ ومن ثم يصدهم عن سبيل الله بهذا المثل السيىء الذى يضربه للمؤمنين بالله . ولقد دخلت فى الإسلام جماعات وشعوب بسبب ما رأوا من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ، ومن إخلاصهم فى أيمانهم ، ومن نظافتهم فى معاملاتهم . فكان الكسب أضخم بكثير من الخسارة الوقتية الظاهرية التى نشأت عن تمسكهم بعهودهم . ولقد ترك القرآن وسنة الرسول ﷺ فى نفوس المسلمين أثرا قويا وطابعا عاما فى هذه الناحية ظل هو طابع التعامل الإسلامى الفردى والدولى المتميز . . روى أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم فى آخر الأجل . [حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون] فقال له عمر بن عتبة:الله أكبر يا معاوية . وفاء لا غدر . سمعت رسول الله ﷺ يقول:" من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضى أمدها " فرجع معاوية بالجيش . والروايات عن حفظ العهود – مهما تكن المصلحة القريبة فى نقضها – متواترة مشهورة . وقد ترك هذا القرآن فى النفوس ذلك الطابع الإسلامى البارز . وهو يرغب ويرهب ، وينذر ويحذر ويجعل العهد عهد الله ، ويصور النفع الذى يجره نقضه ضئيلا هزيلا ، وما عند الله على الوفاء عظيما جزيلا (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا . إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) ويذكر بأن ما عند البشر ولو ملكه فرد فإنه زائل ، وما عند الله باق دائم (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) ويقوى العزائم على الوفاء ، والصبر لتكاليف الوفاء ، ويعد الصابرين أجرا حسنا (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) والتجاوز عما وقع منهم من عمل سىء ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه . وبمناسبة العمل والجزاء ، يعقب بالقاعدة العامة فيهما (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فيقرر بذلك القواعد التالية:

أن الجنسين:الذكر والأنثى . متساويان فى قاعدة العمل والجزاء ، وفى صلتهما بالله ، وفى جزائهما عند الله . ومع أن لفظ (من) حين يطلق يشمل الذكر والأنثى إلا أن النص يفصل (من ذكر أو أنثى) لزيادة تقرير هذه الحقيقة . وذلك فى السورة التى عرض فيها سوء رأى الجاهلية فى الأنثى ، وضيق المجتمع بها ، واستياء من يبشر بمولدها ، وتواريه من القوم حزنا وغما وخجلا وعارا !

وأن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها . قاعدة الإيمان بالله (وهو مؤمن) فبغير هذه القاعدة لا يقوم بناء ، وبغير هذه الرابطة لا يتجمع شتاته ، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . والعقيدة هى المحور الذى تشد إليه الخيوط جميعا ، وإلا فهى أنكاث . فالعقيدة هى التى تجعل للعمل الصالح باعثا وغاية . فتجعل الخير أصيلا ثابتا يستند إلى أصل كبير . لا عارضا مزعزعا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل .

وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى هذه الأرض . لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال . فقد تكون به ، وقد لا يكون معها . وفى الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية:فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه . وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة ، وسكن البيوت ومودات القلوب . وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة . وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفى منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله .

وأن الحياة الطيبة فى الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة .

وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون فى الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات . فما أكرمه من جزاء !

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم

تمهيد للجو الذى يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذى يمثله الشيطان . فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فالذين يتوجهون إلى الله وحده ، ويخلصون قلوبهم لله ، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم ، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه ، وينقادوا إليه . وقد يخطئون ، لكنهم لا يستسلمون ، فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب (إنما سلطانه على الذين يتولونه) أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم ، ومنهم من يشرك به . فقد عرفت عبادة الشيطان وعبادة إله الشر عند بعض الأقوام . على أن أتباعهم للشيطان نوع من الشرك بالولاء والاتباع . وعند ذكر المشركين يذكر تقولاتهم عن القرآن الكريم (وإذا بدلنا آية مكان آية ، والله أعلم بما ينزل قالوا:إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون . قل:نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون:إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين . إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون) إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب . لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمى إنسانى ، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمى . وأنه الرسالة الأخيرة التى ليست بعدها من السماء رسالة ؛ وأن الله الذى خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادىء والشرائع . فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها ، ليأتى بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التى صارت إليها الأمة ، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذى لا يعلمه إلا هو ، فالشأن له ، ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى ، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية فى الظروف العادية . إن المشركين لا يدركون شيئا من هذا كله ، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية فى حياة الرسول ﷺ فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذى لم يعهدوا عليه كذبا قط (بل أكثرهم لا يعلمون) (قل:نزله روح القدس من ربك بالحق) فما يمكن أن يكون افتراء . وقد نزله (روح القدس) جبريل عليه السلام (من ربك) لا من عندك (بالحق) لا يتلبس به الباطل (ليثبت الذين آمنوا) الموصولة قلوبهم بالله ، فهى تدرك أنه من عند الله ، فتثبت على الحق وتطمئن إلى الصدق (وهدى وبشرى للمسلمين) بما يهديهم إلى الطريق المستقيم ، وبما يبشرهم بالنصر والتمكين (ولقد نعلم أنهم يقولون:إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين) والفرية الأخرى بزعمهم أن الذى يعلم الرسول ﷺ هذا القرآن إنما هو بشر . سموه باسمه ، واختلفت الروايات فى تعيينه . . قيل:كانوا يشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه . وقال محمد بن إسحاق فى السيرة:كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيرا ما يجلس عند المروة إلى سبيعة . غلام نصرانى يقال له:جبر . عبد لبعض بنى الحضرمى ، فأنزل الله (ولقد نعلم أنهم يقولون:إنما يعلمه بشر . لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) وأما ما كان فقد رد عليهم البسيط الواضح الذى لا يحتاج إلى جدل:"لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين" فكيف يمكن لمن لسانه أعجمى أن يعلم محمدا هذا الكتاب العربى المبين ؟ وهذه المقالة منهم يصعب حملها على الجد ، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذى كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه . وإلا فكيف يقولون – وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه – إن أعجميا يملك أن يعلم محمدا هذا الكتاب . ولئن كان قادرا على مثله ليظهرن به لنفسه ! واليوم ، وبعد ما تقدمت البشرية كثيرا ، وتفتقت مواهب البشر عن كتب ومؤلفات ، وعن نظم وتشريعات ؛ يملك كل من يتذوق القول ، وكل من يفقه أصول النظم الاجتماعية ، والتشريعات القانونية أن يدرك أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من عمل البشر . وحتى الماديون الملحدون فى روسيا الشيوعية ، عندما أرادوا أن يطعنوا فى هذا الدين فى مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد – هو محمد – بل من عمل جماعة كبيرة . وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب فى الجزيرة العربية بل إن بعض أجزائه كتب خارجها !!! دعاهم إلى هذا استكثار هذا الكتاب على موهبة رجل واحد . وعلى علم أمة واحدة . ولم يقولوا ما يوحى به المنطق الطبيعى المستقيم:إنه من وحى رب العالمين . لأنهم ينكرون أن يكون لهذا الوجود إله ، وأن يكون هناك وحى ورسل ونبوات ! فكيف كان يمكن – وهذا رأى جماعة من العلماء فى القرن العشرين – أن يعلمه بشر لسانه أعجمى عبد لبنى فلان فى الجزيرة العربية ؟! ويعلل القرآن هذه المقولة الضالة فيقول (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) فهؤلاء الذين لا يؤمنوا بآيات الله لم يهدهم الله إلى الحقيقة فى أمر هذا الكتاب ، ولا يهديهم إلى الحقيقة فى شىء ما . بكفرهم وإعراضهم عن الآيات المؤدية إلى الهدى" ولهم عذاب أليم" بعد ذلك الضلال المقيم . ثم يثنى بأن الافتراء على الله لا يصدر إلا من مثل هؤلاء الذين لا يؤمنون . ولا يمكن أن يصدر من

الرسول الأمين (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله . وأولئك هم الكاذبون) فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن . وقد نفى الرسول ﷺ فى حديث له صدورها عن المسلم ، وإن كان يصدر عنه غيرها من الذنوب . ثم ينتقل السياق إلى بيان أحكام من يكفر بعد الإيمان (من كفر بالله من بعد إيمانه – إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان – ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) ولقد لقى المسلمون الأوائل فى مكة من الأذى ما لا يطيقه إلا من نوى الشهادة ، وآثر الحياة الأخرى ، ورضى بعذاب الدنيا عن العودة إلى ملة الكفر والضلال . والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه . لأنه عرف الإيمان وذاقه ، ثم ارتد عنه إيثارا للحياة الدنيا على الآخرة . فرماهم بغضب من الله ، وبالعذاب العظيم ، والحرمان من الهداية ؛ ووصمهم بالغفلة وانطماس القلوب والسمع والأبصار ؛ وحكم عليهم بأنهم فى الآخرة هم الخاسرون . . ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة ، وحساب للربح والخسارة . ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض ؛ فللأرض حساب ، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان . وليست العقيدة هزلا ، وليست صفة قابلة للأخذ والرد فهى أعلى من هذا وأعز . ومن ثم كل هذا التغليظ فى العقوبة ، والتفظيع للجريمة . واستثنى من ذلك الحكم الدامغ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . أى من أظهر الكفر بلسانه نجاة لروحه من الهلاك ، وقلبه ثابت على الإيمان مرتكن إليه مطمئن به . وقد روى أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر . روى ابن جرير – بإسناده – عن أبى عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال:أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا . فشكا ذلك إلى النبى ﷺ فقال النبى ﷺ " كيف تجد قلبك ؟ " قال:مطمئنا بالإيمان . قال النبى ﷺ " إن عادوا فعد . . " فكانت رخصة فى مثل هذه الحال . وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان . كذلك صنعت سمية أم ياسر ، وهى تطعن بالحربة فى موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع أبوه ياسر . وقد كان بلال – رضوان الله عليه – يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول:أحد . أحد . ويقول:والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب:أتشهد أن محمدا رسول الله . فيقول:نعم . فيقول:أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول:لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك . ذلك أن العقيدة أمر عظيم ، لا هوادة فيها ولا ترخص ، وثمن الاحتفاظ بها فادح ، ولكنها ترجحه فى نفس المؤمن ، وعند الله . وهى أمانة لا يؤتمن عليها إلا من يفديها بحياته وهانت الحياة وهان كل ما فيها من نعيم (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم . يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها . وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون) وقد كانوا من ضعاف العرب ، الذين فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب وغيره . ولكنهم هاجروا بعد ذلك عندما أمكنتهم الفرصة ، وحسن إسلامهم ، وجاهدوا فى سبيل الله ، صابرين على تكاليف الدعوة . فالله يبشرهم بأنه سيغفر لهم ويرحمهم (إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ذلك يوم تشغل كل نفس بأمرها ، لا تتلفت إلى سواها ؛ (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) وهو تعبير يلقى ظل الهول الذى يشغل كل امرىء بنفسه ، يجادل عنها لعلها تنجو من العذاب . ولا غناء فى انشغال ولا جدال . إنما هو الجزاء . كل نفس وما كسبت (وهم لا يظلمون)

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{١١٢} وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ{١١٣} فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ{١١٤} إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{١١٥} وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{١١٦} مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{١١٧} وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{١١٨} ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١١٩} إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٢٠} شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{١٢١} وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{١٢٢} ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{١٢٣} إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{١٢٤} ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{١٢٥} وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ

بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ {١٢٦} وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ {١٢٧} إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ {١٢٨}

سبق أن ضرب الله فى هذه السورة مثلين لتقريب حقيقة من حقائق العقيدة . وهو يضرب هنا مثلا لتصوير حال مكة ، وقومها المشركين ، الذين جحدوا نعمة الله عليهم . لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضرب لهم . ومن ذكر النعمة فى المثل ، وهى نعمة الرزق الرغد مع الأمن والطمأنينة ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التى يحرمونها عليهم إتباعا لأوهام الوثنية ، وقد أحلها الله لهم ، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها . وذلك لون من الكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بشكرها . يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله ، وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة . وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث ، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات . بسبب ظلمهم . جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرما على آبائهم فى عهد إبراهيم الذى كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، فكانت حلالا له الطيبات ولبنيه من بعده ، حتى حرم الله بعضها على اليهود فى صورة عقوبة لهم خاصة . ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم . ثم جاء دين محمد امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ، فعادت الطيبات حلالا كلها . وكذلك السبت الذى منع فيه اليهود من الصيد . فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ففريق كف عن الصيد وفريق نقض عهده فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية الكريم وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . وأن يجادلهم بالتى هى أحسن . وأن يلتزم قاعدة العدل فى رد الاعتداء بمثله دون تجاوز . . والصبر والعفو خير . والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين لأن الله معهم ، ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح . (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون) وهى حال أشبه شيء بحال مكة . جعل الله فيها البيت ، وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن ، لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا ، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو فى جوار بيت الله الكريم . وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة فى حراسته وحمايته آمنون مطمئنون . كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة ، مع أنهم فى واد قفر جدب غير ذى زرع ، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شيء فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل . ثم إذا رسول منهم ، يعرفونه صادقا أمينا ، ولا يعرفون عنه ما يشين ، يبعثه الله فيهم رحمة لهم وللعالمين ، دينه دين إبراهيم بانى البيت الذى ينعمون فى جواره بالأمن والطمأنينة والعيش الرغيد ؛ فإذا هم يكذبونه ، ويفترون عليه الافتراءات ، وينزلون به وبمن اتبعوه الأذى . وهم ظالمون ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسا ؛ ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا ، لأن الذوق أعمق أثرا فى الحس من مساس اللباس للجلد . وتتداخل فى التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله فى النفوس . لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التى تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون . وفى ظل هذا المثل الذى تخايل فيه النعمة والرزق ، كما يخايل فيه المنع والحرمان ، يأمرهم بالأكل مما أحل لهم من الطيبات وشكر الله على نعمته إن كانوا يريدون أن يستقيموا على الإيمان الحق بالله ، وأن يخلصوا له العبودية خالصة من الشرك ، الذى يوحى إليهم بتحريم بعض الطيبات على أنفسهم باسم الآلهة المدعاة (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) ويحدد لهم المحرمات على سبيل الحصر . وليس منها ما يحرمونه على أنفسهم من رزق الله من بحيرة أو سائبة أو وصيلة أوحام (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به) وهى محرمة إما لأن فيها أذى للجسم والحس كالميتة والدم ولحم الخنزير ، أو أذى للنفس والعقيدة كالذى توجه به ذابحه لغير الله (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) فهذا الدين يسر لا عسر . ومن خاف على نفسه الموت أو المرض من الجوع والظمأ فلا عليه أن يتناول من هذه المحرمات قدر ما يدفع الضرر [على خلاف فقهى ذكرناه من قبل] غير باغ على مبدأ التحريم ولا متجاوز قدر الضرورة التى أباحت المحظور . ذلك حد الحلال والحرام الذى شرعه الله فى المطعومات ، فلا تخالفوه اتباعا لأوهام الوثنية ، ولا تكذبوا فتدعوا تحريم ما أحله الله . فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من الله . فهما تشريع . والتشريع لله وحده لا لأحد من البشر . وما يدعى أحد لنفسه حق التشريع بدون أمر من الله إلا مفتر ، والمفترون على الله لا يفلحون (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب:هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم) لا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم وتحكيه:هذا حلال وهذا حرام . فهذا حلال وهذا حرام حين تقولونها بلا نص هى الكذب عينه ، الذى تفترونه على الله . والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل فى الدنيا ومن ورائه العذاب الأليم ، والخيبة والخسران . ثم يجرؤ ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله

، وبغير نص فى شريعته يقوم عليه ما يشرعونه من القوانين ، وينتظرون أن يكون لهم فلاح فى هذه الأرض أو عند الله ! فأما ما حرمه الله على اليهود فى قوله من قبل فى سورة الأنعام . (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما , أو الحوايا أو ما اختلط بعظم)فقد كان عقوبة خاصة بهم لا تسرى على المسلمين (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . إن ربك من بعدها لغفور رحيم) ولقد استحق اليهود تحريم هذه الطيبات عليهم بسبب تجاوزهم الحد ومعصيتهم لله . فكانوا ظالمين لأنفسهم لم يظلمهم الله . فمن تاب ممن عمل السوء بجهالة ولم يصر على المعصية , ولم يلج فيها حتى يوافيه الأجل ؛ ثم أتبع التوبة القلبية بالعمل الصالح فإن غفران الله يسعه ورحمته تشمله . والنص عام يشمل التائبين العاملين من اليهود المذنبين وغيرهم إلى يوم الدين . وبمناسبة ما حرم على اليهود خاصة ، ومناسبة ادعاء مشركى قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، يعرج السياق على إبراهيم – عليه السلام – يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين الذى جاء به محمد ﷺ ويبين ما اختص به اليهود من المحظورات التى لم تكن على عهد إبراهيم (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يک من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ؛ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليک أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربک ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) والقرآن الكريم يرسم إبراهيم – عليه السلام – نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله . ويقول عنه هنا:إنه كان أمة . واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة . ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به فى الخير . وورد فى التفسير المأثور هذا المعنى وذاك . وهما قريبان فالإمام الذى يهدى إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه لا فرد واحدا (قانتا لله) طائعا خاشعا عابدا(حنيفا) متجها إلى الحق مائلا إليه (ولم يک من المشركين) فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون ! (شاكرا لأنعمه) بالقول والعمل . لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا ، ويكفرونها عملا ، ويشركون فى رزقه لهم ما يدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعا للأوهام والأهواء) (اجتباه) اختاره (وهداه إلى صراط مستقيم) هو صراط التوحيد الخالص القويم . ذلک شأن إبراهيم الذى يتعلق به اليهود ويتمسح به المشركون .(ثم أوحينا إليک أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)فكان ذلک وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد , ويؤكدها النص من جديد على أن إبراهيم (ما كان من المشركين)فالصلة الحقيقية هى صلة الدين الجديد . فأما تحريم السبت فهو خاص باليهود الذين اختلفوا فيه , وليس من ديانة إبراهيم ، وليس كذلک من دين محمد السائر على نهج إبراهيم (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) وأمرهم موكول إلى الله (وإن ربک ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ذلک بيان المشتبهات فى العلاقة بين التوحيد الذى جاء بها إبراهيم من قبل ، وكملت فى الدين الأخير ، والعقائد المنحرفة التى يتمسک بها المشركون واليهود . وهو بعض ما جاء هذا الكتاب لتبيانه . فليأخذ الرسول ﷺ فى طريقه يدعو إلى سبيل ربه دعوة التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل المخالفين فى العقيدة بالتى هى أحسن . فإذا اعتدوا عليه وعلى المسلمين عاقبهم بمثل ما اعتدوا . إلا أن يغفروا ويصبر مع المقدرة على العقاب بالمثل ؛ مطمئنا إلى أن العاقبة للمتقين المحسنين . فلا يحزن على من لا يهتدون ، ولا يضيق صدره بمكرهم به وبالمؤمنين (ادع إلى سبيل ربک بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربک هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به , ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرک إلا بالله . ولا تحزن عليهم ولا تک فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون) على هذه الأسس يرسى القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها وطرائقها , ويرسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم فلننظر فى دستور الدعوة الذى شرعه الله فى هذا القرآن . إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله . لا لشخص الداعى ولا لقومه . فليس للداعى من دعوته إلا أنه يؤدى واجبه لله , لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ولا على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلک على الله . والدعوة بالحكمة ، والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر الذى يبينه لهم فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ، والطريقة التى يخاطبهم بها ، والتنويع فى هذه الطريقة حسب مقتضياتها . فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة فى هذا كله وفى سواه . وبالموعظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ، ولا يفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية . فإن الرفق فى الموعظة كثيرا ما يهدى القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ . وبالجدل بالتى هى أحسن . بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح . حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الإقناع

والوصول إلى الحق . فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة . وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى عند الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها ، والجدل بالحسنى هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها ، والاهتداء إليها . فى سبيل الله ، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر ! ولكى يطامن الداعية من حماسته واندفاعه يشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين . فلا ضرورة للجاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله . هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر فى دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة . فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير ، فالاعتداء عمل مادى يدفع بمثله إعزازا لكرامة الحق ، ودفعا لغلبة الباطل ، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتفظيع ، فالإسلام دين العدل والاعتدال ، ودين السلم والمسالمة ، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغى ولا يبغى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وليس ذلك بعيدا عن دستور الدعوة فهو جزء منه . فالدفع عن الدعوة فى حدود القصد والعدل يحفظ لها كرامتها وعزتها ، فلا تهون فى نفوس الناس . والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد ، ولا يثق أنها دعوة الله . فالله لا يترك دعوته مهينة لا تدفع عن نفسها ، والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة لله والعزة لله جميعا . ثم إنهم أمناء على إقامة الحق فى هذه الأرض وتحقيق العدل بين الناس ، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ، فكيف ينهضون بهذا كله وهم يعاقبون فلا يعاقبون ، ويعتدى عليهم فلا يردون ؟! . ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل ، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر ، حين يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان ، فى الحالات التى قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثرا . وأكثر فائدة للدعوة . فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤثر العفو والصبر . فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها ، فالقاعدة الأولى هى الأولى . ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال ، وضبط للعواطف ، وكبت للفطرة ، فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله) فهو الذى يعين على الصبر وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذى يطامن من الرغبة الفطرية فى رد الاعتداء بمثله والقصاص له بقدره . ويوصى القرآن الرسول ﷺ وهى وصية لكل داعية من بعده ، ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون ، فإنما عليه واجبه يؤديه ، والهدى والضلال بيد الله ، وفق سنته فى فطرة النفوس واستعداداتها واتجاهاتها ومجاهدتها للهدى أو للضلال . وألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله ، فالله حافظه من المكر والكيد ، لا يدعه للماكرين الكائدين وهو مخلص فى دعوته لا يبتغى من ورائها شيئا لنفسه . ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره ، ويبطىء عليه النصر لابتلاء ثقته بربه ، ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ومن كان الله معه فلا عليه ممن يكيدون وممن يمكرون . هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمه الله . والنصر مرهون بإتباعه كما وعد الله . ومن أصدق من الله ؟ .

الفهرس

سورة يونس ص:٣

سورة هود .....ص: ٣٢

سورة يوسف ..... ص: ٧٨

سورة الرعد ..... ص: ١١٩

سورة إبراهيم ص:١٣٤

سورة الحجر ص:١٥٢

سورة النحل ص:١٧٠

الفهرس ص:١٩٥

الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر) كاتب عصامى و صحفى مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكترونى ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائرى من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامى لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و ما بعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامى فى الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريقة ألكترونية PDF طباعة راقية و أنيقة .